



893,7991  
T1983

57957G

# فهرس الكتاب\*

صفحة

## ١٦ - ٦ مقدمة الكتاب

### ٣٢ - ١٧ مقدمة تاريخية عن : العصر العثماني في مصر

عصر السلاطين ١٧ - تطلع العثمانيين لامتلاك مصر ١٨ - مصر في عهد محمد :  
حالتها السياسية ١٩ - حالتها الاقتصادية ٢٠ حالتها الاجتماعية ٢٢ -  
حالتها العلمية ٢٣ - تطور أحوالها في القرون الثامن عشر ( في السياسة  
والعلم ) ٢٩

### ١٠٣ - ٢٣ الكتاب الأول : في الطريق

تمهيد في صلة الكتاب الأول بما بعده ٣٥

#### الفصل الأول

### ٥١ - ٣٦ أظهر معالم التصوف في مصر قبل العصر العثماني

التصوف قبل العصر العثماني ٣٦ - أنواع المبادئ في مصر ٣٨ - الحياة في  
رحاب الخوانق والربط والزوايا في مصر ٣٩ - نشأة التصوف في مصر  
وتطوره حتى مطلع العصر العثماني ٤٣ - بعض مظاهر نفوذهم قبل العصر  
العثماني ٤٧

#### الفصل الثاني

### ٧٠ - ٥٢ أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني

تمهيد في اتصال المصريين ( الملوك والعمامة ) ٥٢ - حقيقة التصوف في  
العصر العثماني ٥٤ - احصائية بأسم الزوايا ٥٧ - البسيادة في رحاب  
الزوايا ٦٠ - الذكر ٦١ - سندم في ذكر الله ٦٢ - قبعة القمطر  
في عرفهم ٦٣ - طريقة الذكر ٦٤ - آداب الذكر ٦٦ - ثمرات  
الذكر ٦٧ - الخلوة ٦٨ - التزامات الخلوة ٦٨ - ثمرات الخلوة ٦٩ -  
أركان الطريق ٦٩

### ٨٩ - ٧١ الفصل الثالث : في الطرق الصوفية

نشأة الطرق الصوفية ٧١ - حال الطرق في وقتنا الحاضر ٧٣ - احصائية  
بالطرق أيام العثمانيين ٧٥ - سميات الطرق ٧٩ - ثلاثى الفروق بين  
الطوائف ٨٧

579576

DEC 9 1961

2/88

صيفة

## الفصل الرابع

### مشيخة مشايخ الطرق الصوفية بالديار المصرية

تمهيد ٩٠ — رأى جرجى زيدان في نشأتها ومناشئة زماعه ٩١ — رأى  
اليد توفيق البكرى ومدى الخطأ فيه ٩٤ — نشأة هذا القرب في مصر  
قبل العصر العثماني ٩٧ — ثلاثى القرب في العصر العثماني ٩١

## الكتاب الثاني

نفوذ شيوخ الطرق أحياء وأمواتاً ١٠٥—١٩٩  
( تمهيد في ربط الكتاب الثاني بما قبله وما بعده ) ١٧٠—

## الفصل الأول

نفوذ شيوخ الطريق ١ — أحياء ١٠٨ — ١٤  
بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان ١٠٨ — تحرروهم من عرف البلاد ودينها  
١٠٩ — مفارقات العصر ١١٤ تحرروهم من نظام الدولة وقوانينها ١١٧ —  
تحرروهم على العرف السائد عند أرباب الطريق ١٢١  
بعض مظاهر نفوذهم ١٢٤ — ١٤٠

دنيا الصوفية الروحية وحكامها ١٢٤ — تقسيم مصر بين الأولياء إلى مناطق  
نفوذ ١٢٥ — الطلعية ونفوذ أهلها في مصر ١٢٨ — آفاق نفوذهم في  
مناطقهم ١٣٠ — بعض آيات نفوذهم عند الريدن ١٣٤ — وعند الحكام ١٣٥  
٢ — نفوذهم أمواتاً ١٤١ — ١٤٩

جبال الموت ١٤١ — الأميون من مدعى الولاية ١٤١ — العلماء من مدعى  
الولاية ١٤٣ — نظارتهم إلى من أخذ النهج على موقى الأولياء ١٤٤ —  
الطوائف التي سلكت الطريق على موقى الأولياء ١٤٦  
أسباب انتشار التصوف ١٥٠ — ١٦٢

صلاحية مصر لانتشاره ١٥٠ — الترف في معيشة أرباب الطريق ١٥٤  
سقوط التكاليف الدينية عن مدعى الولاية ١٥٥ — حالة مصر تحت الحكم  
العثماني ١٥٨ — حب الأتراك للدروشة ١٦٢

## الفصل الثاني

الإنكار على أرباب الطريق ١٦٣ — ١٩٩

تمهيد ١٦٣ — حالات الناس ١٦٦ — موقف التكرين من الجنود

مكتبة

والحكماء ١٦٨ — الحقد في صدور الفقهاء ١٦٩ — بعض مظاهر المقاومة العملية ١٦٩ — التناسب الطردى بين حقد الفقهاء وعلم أرباب الطريق ١٧١  
بعض مظاهر الحقد النظرية ١٧٥ — تصوف الفقهاء الذين اتصروا لمشاغ  
الطرق ١٧٩ — بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف ١٨٠ — موقف  
التصوفة من الفقهاء ١٨٢ — استمرار النزاع إلى اليوم ١٨٤ — حملات  
أرباب الطريق (على إخوانهم في الطريق) ١٨٥ — بعض مظاهر المقاومة  
العملية ١٨٦ — بعض مظاهر المقاومة النظرية ١٨٨

١٩٠—١٩٩

٣ — أسباب الإنكار على أرباب الطريق

أسباب الإنكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق ١٩٠ — أسباب النزاع  
عند الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر ١٩١ — إهانة التأويل  
لأهل الله ١٩٢ — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله ١٩٥ — التنافس من  
أجل الدنيا ١٩٩

فصل ختامي عن :

٢٠٠—٢٢٨

أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية

تمهيد ٢٠٠ — نقوذ أرباب الطريق عند المصريين ٢٣٥ — المجاورون ٢٠٣  
الأنبياء والمحبون ٢٠٥ — أثر تسليمهم في توجيه الحياة المصرية في العصر  
العثماني وما بعده ٢٠٨ — موقف الإسلام من هذا التوجيه ٢١٧ الإسلام  
والحياة العملية عند أهله ٢١٧ — الإسلام والحياة العقلية عند أهله ٢٢٠ —  
الإسلام والحياة العملية عند أهله ٢٢٤

## مقدمة الكتاب

يقولون إن غاية التفكير الاهتداء إلى الحقيقة ، وأن الجهل بالحقائق يؤدي بالإنسان إلى متابعة النظر ومواصلة التفكير أملاً في الاهتداء إلى حقيقة الحقيقة ، وأن ذلك ينتهي بصاحبه إلى أن ينقض في يومه ما اعتدى اليه في أمسه ، ويشور في غده على ما استقر عليه في يومه ، وبذلك جعلوا التفكير عملاً يقوم به الإنسان ليحقق غاية وضعها لنفسه ووطن العزم على بلوغها ، وقد يكون هذا صحيحاً في بعض حالاته ، ولكن الأصح كذلك أن يقال إننا نفكر منساقين بطبيعتنا إلى التفكير ، وبذلك يكون التفكير غاية في نفسه — إن صح هذا التعبير — فلسنا نفكر لأننا نريد أن نفكر ، أو لأننا نريد الاهتداء بالتفكير إلى حقيقة مجهولة ، ولكننا نفكر — لأن التفكير وظيفة طبيعية للعقل ، كما نرى لأن الرؤية وظيفة طبيعية للنظر ، والإنسان لا يرى الأشياء ليكشف عن رؤيتها يوماً من الأيام ، ومتى كان سليم النظر دقيق الحس أثر العودة إلى رؤية الجليل منها وإطالة النظر اليه ، والاستمتاع به ، وهو لا يعمل إيمان النظر إلى الشيء الجليل إلا إذا أصاب عينه كل أو أدرك حسه نقص ، فالغنان الذي أوقى دقة الحس يرى مناظر الطبيعة فيعجب بها ويستمتع بجمالها ، وكلما أطال النظر إليها ازداد شغفاً بها وحباً لها وإقبالاً عليها ، وقد يحس في لحظة من لحظاته أنه قد أخذ من الطبيعة زاده واستوفى حاجته ، فيفر منها ويهرب من النظر إليها ، ولكنه سرعان ما يطلب العودة إليها والاستمتاع بجمالها ، وكذلك حال التفكير عند الإنسان من بعض الوجوه ، هو وظيفة طبيعية للعقل ، ولهذا فنحن لا نفكر لكي نتوقف عن التفكير في الموضوع الذي فكرنا فيه وننصرف إلى غيره يوماً من الأيام ، ومتى كان العقل سليماً وموضوع التفكير ملائماً له ، أحس الإنسان بالحنين إلى إيمان التفكير فيه وإطالة النظر اليه ، وقد يشعر في



لحظة من لحظاته بأنه أخذ حاجته العقلية من موضوعه واستوفى منه زاده ،  
 فيهرب منه إلى موضوع آخر وينصرف إليه تفكيره ، ولكنه مرعان ما يحس  
 بالحنين إلى العودة للتفكير في موضوعه الأول ، فيبادر إليه ويتولاه بالنظر  
 حتى يهتدى إلى نقض ما رضى به من قبل ، أو تدعيمه على أسس جديدة .  
 ومن هنا انقضت حياة الكثيرين من المفكرين في تأييد فكرة أو شرح  
 مذهب أو نقض رأى . . . وكثرت مؤلفاتهم يؤيد بعضها بعضاً أو ينقض  
 آخرها ما جاء في أولها .. تلك طبيعة العقل البشرى في أداء وظيفته .

ومن هنا كان موقف الباحث من بحثه شبيهاً بموقف القاضي عبد الرحيم  
 البيهقي للمعاد الكاتب الأصمباني في اعتذاره عن كلام استدركه عليه إذ قال :  
 « إنه وقع لي شيء ولا أدري أوقع لك أم لا ، وهأنا أخبرك به ، وذلك أنني  
 رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده :

لو غُيِّرَ هذا لكان أحسن ، ولو زيد هذا لكان يستحسن ، ولو قدم هذا  
 لكان أفضل ، ولو ترك هذا لكان أجمل ، وهذا من أعظم العبر ، وهو دليل  
 على استيلاء النقص على جملة البشر <sup>(١)</sup> .

ولعله ، فوق ذلك دليل على ما أسلفت الآن شرحه حين قلت إن العقل  
 ينساق إلى التفكير بطبيعته ، وأن مواصلة النظر في الموضوعات التي تلائمها تحلو  
 له وتلد كثيراً ، وأن من شأن هذا أن يكشف لصاحبه عن آفاق كان يجهلها  
 وينتهي به إلى الندم على ما كتب . . . ١١ .

على أنني وضعت هذا البحث منذ ثمان سنوات ، وترددت من أجل هذا في نشره  
 طوال هذه الفترة ، ولكن الإنسان لا يفكر لنفسه ، أو هو لا يقنع إذا ارتاد  
 بجهولا وكشف غامضا إلا بأن يشارك الأغيار فيما ظفر به واهتدى إليه ، ومن  
 هنا كان حرصى على نشر هذا البحث بعد انقضاء هذه الأعوام الطويلة على  
 وضعه . . . وقد حرصت عند نشره على الإبقاء على أسلوبه وروحه على قدر  
 الاستطاعة ، وإن كنت قد اضطررت إلى حذف جملة من فصوله وردت

(١) الزبيدي : أعقاب السادة المتقين ج ١ ص ٢

خلاصتها في كتابي عن: الشعراء إمام التصوف في عصره ، إذ كان الشعراء في روح العصر العثماني وعملاته عليها وتصوفا ، فأثر في توجيه آرائه ، وتحديد تياراته وطبع العصر كله بطابعه ، وقد أثرت ألا أكرر هنا ما ذكرته في كتابي عنه ، وإن كان موضوع هذا الكتاب أعم وأشمل (١) . .

قلت إن الباحث لا يفتأ يعيد النظر فيما يكتب ، ويتناوله بالتعديل والحذف والإضافة ، وأنه قد يندم على كل ما كتب . . وإذا صح هذا في كل بحث عقلي فهو أصح ما يكون في بحث مثل هذا البحث الذي يعرض لموضوع بكر لم تطرقه أقلام الباحثين من قبل ، لأن التصوف الإسلامي لم يخضع للبحث العقلي إلا منذ أمد قصير ، وتكاد عنايه المستشرقين والشرقيين به ، أن تكون مقصورة على مراحلها الزاهرة ، حين تحول إلى نوع من الفلسف والنظر العقلي تجاوز بأهله مجرد العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والافراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وهي المظاهر الأولى للتصوف الإسلامي فيما يقول ابن خلدون ، وإذن فقد عنى الباحثون بالتصوف حين أصبح التفلسف — لا الإيمان — طريقا إلى الله ، وعندما انصرف أهله إلى مذاهب في المعرفة والوجود ونحوهما ، فلما عاد التصوف سيرته الأولى ، وأصبح في عصره المتأخر — كما كان في عصره الأول — عمليا لا نظريا ، انصرف عنه أهل البحث وأهملوا دراسته .

والملاحظ أن التصوف في هذا الدور الأخير قد دخله الدجل وتحول من ظاهرة نفسية فردية ، إلى ظاهرة اجتماعية يشارك فيها جمهرة الناس ، ومن هنا

---

(١) كان لصوفية العصر السابق نظرات وآراء في مختلف نواحي الحياة : العلمية والفنية والسياسية والفنية والعمالية ، وقد كتبنا عن كل منها فصلا مستقلا مزودا بفيض من التوضيح ثم لاحظنا أن خلاصة هذه الفصول قد وردت موجزة في كتابنا عن الشعراء لحفظنا من كتابتنا عن التصوف وهذا إلى جانب فصول أخرى يلحقها نأري السكتيين ، ومن هنا كان كتابنا عن الشعراء ضروريا نقارى هذا الكتاب .



كان خطره في حياتهم وتأثيره في شتى مرافقها ، ويبدو هذا الدور في أكمل صورته وأوضحها ، في تصوف مصر أيام الثمانين ، وهذا هو موضوع الكتاب الذي نحن الآن بصدده ، وقد كانت لفظة طيبة موفقة من أستاذنا محمد شفيق بك غربال أن يشير بدراسة هذا الموضوع ، في العصر المظلم الذي لم يدرس بعد ، وأن يتابع اهتمامه بخطوات البحث ويحرص إبانته على تزويدى بالقيم من ملاحظاته .

وقد شجعتنى على هذه الدراسة كثرة المصادر التى وضعت في هذا العصر ، والكثير منها ينطوى على مادة طيبة وهى خير زاد للباحث الذى يريد أن يرتاد آفاق هذا الموضوع البكر المظلم ويميل إلى الضرب فى ميادينه والسير فى مسالكه الوعرة ، وهذه المصادر - من المخطوطات خاصة - ما زالت بكرا لم تعبث بها يد ولم يتجه إليها نظر ، وفى هذا ما يغرى بمتابعة التفكير ومواصلة النظر . وقد ظننت بعد دراستى لهذا الموضوع أنى وقعت فى الاهتداء إلى كنوز كانت تنطوى عليها هذه الآفاق المجهولة التى كنت أرتادها ، والإنسان - كما قلت من قبل - لا يفتن إلا بأن يشرك الأغيار فيما ظفرو به واهتدى إليه ، ومن هنا كانت رغبتي فى نشر هذا الكتاب ، وإن طال الأمد على تحقيق هذه الرغبة . ولشد ما رضيت عن هذا الموضوع بعد أن تكشف لي الكثير من آفاته المظلمة فقد عرفت ، فجأة - وعلى غير إندار سابق ، أنه يساهم فى تحقيق أمل كنت شديد الحنين إلى تحقيقه منذ زمن طويل ، وقد انجذبت هذه المفاجأة بالموضوع - وأنا فى منتصف الطريق - اتجاها لم يطف بخاطري من قبل ، وقبل البدء فى بيان ذلك ، يحسن بي أن أبرر وقوع « المفاجآت » فى البحث العلمى ، وضرورة الاغتراب بها متى وقعت :

يقتضى منهج البحث العلمى أن يبدأ الباحث موضوعه وهو على جهل به ، فإن لم يتبها له هذا الجهل وجب أن يصطنعه فيتجاهل موضوعه ، ويحاول أن ينسى كل ما يعرفه بشأنه ، فلا يضع فى مستهل دراسته رأيا ويعمل طوال بحثه على تأييده أو نقضه ، فإن ذلك من شأنه أن يلفت الباحث لكل ما يؤيد

وجهة نظره ، ويعميه عن كل ما ينقضها ، ويعت في عقله الشك في أمرها ...  
وقد كان هذا منهجى في بحث هذا الموضوع ... جعلت غاية البحث هي البحث  
نفسه ، أو هي معرفة المجهول من آفاق الموضوع والقناعة بهذه المعرفة ، وذلك  
متفق مع ما أسلفته في مستهل المقدمة حين قلت إنا نفكر لأن التفكير وظيفة  
طبيعية للعقل ، وأن الذى يفكر لأنه يريد تأييد حقيقة أو نقضها إنما يتكلم  
ما يفسد بحثه ويصطنع ما يشوه تفكيره ، ومضيت في بحثى على هذا الأساس ،  
فإذا بالنور الذى انبثق في آفاق الموضوع من وراء هذه الدراسة المتواضعة  
يهدى إلى اتجاهات لم تكن في خاطرى يوم بدأت الدراسة ، وكان أعظمها  
خطرا هذا الاتجاه الذى وجه البحث إلى هذه الوجهة الجديدة التى تناو لها  
الآن بشئ من الإيضاح :

حاول بعض علماء الاجتماع أن يفلسفوا التاريخ ، وأن يقدموا  
للمؤرخين تفسيراً جديداً لظواهره قائماً على أحدث النظريات التى اهتمت  
بها المحدثون من علماء النفس وغيرهم ، وأثارت محاولاتهم ضجة كبيرة عند  
قراءهم ، وهيات للنقاد منهم سبيل الهجوم على اتجاههم في تفسير التاريخ ،  
ولكنها كانت محاولة تمتة شائقة فوق أنها كانت خطوة لها خطرهما العظيم في  
تطور التاريخ عند أهله .

وكنى كلما طافت بخاطرى هذه المحاولة قلت إن مصر أحوج بلاد الأرض  
إلى هذا النوع من التاريخ ، إن تاريخها إلى اليوم قائم في الجملة على تاريخ ملوكها  
وحكامها ، أما شعبها فليس له حساب عند أكثر المؤرخين - حتى العدول  
منهم - والمؤرخ الذى يعرض لتفسير الحياة فيها لا يستطيع قط أن يفهمها  
على وجهها الصحيح قبل أن يتناول بالدراسة المفصلة كل ما مر بأهلها من  
حركات دينية وحضارة إسلامية ، فإن المصرى منذ عهد الفراعنة الأقدمين  
رجل شديد الدين ، وآثاره التى لا تزال قائمة إلى يومنا الحاضر تشهد بصحة  
ما نقول ، وتحول المصريين من الوثنية إلى المسيحية ومن المسيحية إلى الإسلام

لا ينقض ما نقول ، وليس هنا مجال الحديث عن أمسياته ، وإنما الذى يعنينا الآن أن نقوله ، هو أن الأفكار التى تفسر عند مثل هذا الشعب متصله بالدين تحول عنده إلى عقائد ، والعقيدة كما يقول المحدثون من علماء النفس - من شأنها أن تستبد بهوى أصحابها وتحملهم على جناحها وتوجههم فى تيارها ، ولهذا كانت كل محاولة يراد بها تفسير الحياة المصرية على غير فهم واضح لآثر الحركات الدينية فى نفوس المصريين ، إنما هى محاولة باطلة لا طائل تحتها ولا نفع من ورائها . . .

ومن هنا كان اغتيالى الشديد بالمفاجأة التى عرضت لى أثناء بحثى لهذا الموضوع ، لأنها أوضحت لى بأن البحث محاولة للمساهمة فى تحقيق الأمل الذى احتل خاطرى منذ زمان . . وهدتني هذه المفاجأة إلى أن أوجه بالبحث اتجاهها جديدا أحاول فيه أن أنسر الحياة المصرية - أو الكثير من ظواهرها - على ضوء التصوف . . . ففعلت ذلك . . . وأرجو أن أكون قد وفقت فيه . ولقد كان توفيقا من الله أن أختار التصوف وفى العصر العثماني وحده ، فإن التصوف كان فى اعتبار الناس زبدة الدين وخلاصته ، وقد شاع واستفحل أمره واستشرى دأؤه واستبد بمواطن المصريين ، وكان أكبر العوامل فى توجيه حياتهم فى هذا العهد وما بعده ، ولم يتبها لأهله هذا التفوذ الذى مكنتهم من السيطرة على الحياة المصرية إلا قبيل العصر العثماني - على ما سنعرف بعد - فكان اختيار العصر كذلك توفيقا فوق التوفيق الذى عرفنا بعض مظاهره فيما سلف .

واقدر لاحظت أن التصوف وإن كان يقدم حلولاً للكثير من العقيد فى ظواهر الحياة المصرية فإنه لا يقوى وحده على تفسير بعضها ، ولهذا فإن شباب الجامعة الذين يقومون بأعداد الرسائل العلمية لم تعاونوا على كشف الغامض فى الحركات الدينية التى مرت بالمصريين ، وحاولوا بيان ما كان لهذا من سلطان على نفوسهم ، وأثر فى توجيه حياتهم ، لاستطاع الباحث فى الحياة

المصرية أن يتخذ أبحاثهم نواة لبُحث قيم وفيلسوف ، به التاريخ المصري ،  
 «مفسرا ظواهره تفسيراً جديداً لا يقوم على تاريخ حياة الملوك ولا يستند إلى  
 تتابع الدول التي تولت الحكم في مصر ، وإنما يدرس الملوك والحكام من  
 خلال الشعب وما مر به من تيارات وشغل عواطفه من موجات ، ومن فعل  
 ذلك فقد حقق الأمل الجميل الذي كنت شديد الحنين إلى تحقيقه حتى اعتبرت  
 محاولة المساهمة فيه توفيقاً يبعث الرضا في نفسي ويشيع الاغتراب في كيائي .  
 وإنما لمحاولة شاقة حقاً ، ولعل أشق ما فيها أن سبل نقدنا ميسرة لكل  
 قارئ ، واتجاهات الذهن في مثل هذه الموضوعات كثيرة متشعبة ، ولكل  
 منها ما يؤيده ويبرر وجوده ، ولا أظن أن وجهة انجاء منها دليل على ضعف  
 الاتجاه المبين له ، فقد تنصب على الموضوع الواحد وجهات نظر مختلفة أكثرها  
 مقبول عقلاً دون أن يكون في ذلك تناقض ما . . . والعبرة بملاج الموضوع  
 ومنهج درسه وفهمه . . . وقد حاولت في كتابي أن أدس التصوف  
 في أرحب آفاقه ، مقيداً بالزمان والمكان اللذين يحملهما العنوان ، فدرست علاقة  
 تعاليمه بالناس في مختلف طبقاتهم وثنى هباتهم ، أثرياء وفقراء ، حكاما  
 ومحكومين ، جملة ومستثنين ، وإن كنت قد أهملت التوسع في دراسة علاقته  
 بالطوائف الأخرى من أقباط ويهود ، وذلك لأن التصوف الذي قام في مصر  
 إبان العصر العثماني لم يتأثر كثيراً بالمسيحية أو اليهودية التي عاصرتة ، وإن  
 وجدت وجوه شبه بينه وبين المسيحية في كثير من الوجوه ، إذ كان التعصب  
 شائعاً إبان هذا العصر بين المسلمين وغيرهم من سائر الطوائف ، وكان من  
 مظاهر هذا التعصب ما نراه في بعض وثائق للسادات الوفائية من كثرة  
 الشكاوى التي رفعها المسلمون للحكام يطلبون فيها منع اليهود من المرور  
 بمقابر المسلمين والصالحين إلى مدافنهم ، وتعبيرهم عن ذلك بقولهم ولهم  
 حفرة معدة لدفن المالكين منهم ، ثم قولهم ، إن الأرض الموقوفة  
 على المؤمنين لا يجوز سلوكها للكافرين بإجماع المسلمين (١) ثم ما سنعرفه

عن موقف الأزهريين وعامة الشعب من فتوى الشبراوى التى أباح فيها للمسيحيين أن يعرجوا إلى أَمَا كنهم المقدسة ، وما كان من رجم موكبهم بالطوب والحجارة وهدم كنائسهم والإعتداء عليهم جهاراً . . . وما ستراد من موقف الناس من ابراهيم عصفير وملامته لأنه كان يبيت عند الرهبان فى الكنائس . . . وتعبير الكتاب المستنيرين فى هذا العصر عن المسيح . . . عليه السلام — بقولهم « المسيح الدجال » . . . ثم النظر إلى هدم الكنائس على أنه مفخرة لصاحبه<sup>(١)</sup> . . . وإن كان ذلك لا يتمتع من قبول الرأى الذى أرتآه من قبل جمهور المستشرقين ، من أن التصوف الإسلامى قد تأثر بعوامل خارجية كانت المسيحية من بينها .

هذا ولم يكن فى وسمى أن أستخلص العناصر المصرية فى التصوف الذى قام أثناء هذا العصر ، فقد كانت القومية لفظاً مجهول المعنى والدلالة فى العصر العثمانى ، وكان الدين هو الوحدة التى تربط الشعوب الإسلامية على اختلاف جنسياتها ، وقد كانت الرحلات — التى اعتبرها العلماء مظهراً من مظاهر العبادة ، تساعد مع وحدة الدين واللغة على إيجاد التشابه بين التصوف فى مصر وفى غيرها من الشعوب الإسلامية — وما أكثر ما صادفنا فى كتب التراجم والتاريخ والمناقب من نصوص تشهد بصحة ما نقول ، حتى لقد كانت الإجازات فى التصوف والفقهاء تمتع بالمراسلة . . . بل لقد كانت مصر محط المتصوفة من أهل المغرب وتركيا وفارس والشام ، وحسبنا أن نذكر أن أبا القاسم المغربي + ٩٦٠ قد دخل مصر وفى صحبته خمسمائة فقير كما يقول من رجحو حياته<sup>(٢)</sup> .

ومن قرأ كتاب الأستاذ كوبرلانى<sup>(٣)</sup> ، لا يملك إلا الدهشة من وجوه التشابه بين التصوف فى المغرب والتصوف فى مصر ، وقد أقتنى هذا الكتاب الضخم بأن استخلص العناصر المصرية فى موضوعى أمر عسير بل إن

(١) فى السكوكب الدرية ج ٣ ص ١٢٩ مثال يؤيد ذلك .

(٢) السنا الباهر تكميل النور السائر ص ٥٧٣ (مخطوط)

Les Confréries Religieuses (٣)



التصوف في بدايته بمصر قد قام به الغرباء ، فإن الخوانق والربط والزوايا أنشئت في بداية أمرها للواردين من البلاد الشامية كما سنعرف ، والتصوف كان في هذا العصر تقاليد يرثها مشايخ الطرق جيلا بعد جيل حتى كان شيخ الطريق أو العالم إذا مات في مصر أقيمت له صلاة الغائب في الأقطار الإسلامية الثانية . (١) ولهذا دلالة ومفواه ، وذلك فوق أن مثل هذا البحث لا يقوى على الاضطلاع به إلا من تزود له بمعرفة التركية والفارسية وكان على علم واسع بالتصوف الذي قام عند الفرس والأتراك والمغاربة . . . وهذا عمل حسينا في الدلالة على مشقته وصموبته أن نذكر أن التصوف لم يؤرخ إلى يومنا الراهن .

ثم إن عنوان الموضوع لا يتطلب هذا الجهد ، أو على الأقل لا يحتمه ، وشتان بين التصوف في مصر والتصوف المصري ، ولقد كانت هذه الملاحظة تعينني عن هذا الدفاع كله ، ولكن تفصيلي في الدفاع مرده إلى نقد وجه إلى في هذا الصدد .

وهذا الكتاب محاولة جريئة تحفها الأخطار من كل جانب . ولهذا كان فراغى منها — أو توهمى الفراغ منها فإ يفرغ الانسان من بحث يحبه — بشيخ في نفسى روحا وطمأنينة — ولقد كانت محاولة شاقة مرهقة كما قلت ، فإن مصادرها التي قلت إنها كانت تحت يدي ، وأن كثرتها كانت تعملني على الشكوى ، لم تكن ميسورة كما يتصور الفارسي لأول وهلة ، فلقد كانت طرق العثور عليها ، ووسائل الاطلاع على ماضمتين دقيقتيها ، والعمل على ترك الغث منها وتخليص الطيب من مادتها ثم فهمه واستغلاله في إقامة كيان هذا البحث . . . كان هذا كله شاقا وعرا ، وحسبي الآن أن أقول إن دور الكتب عندنا مازالت إلى اليوم مخازن لمؤلفات الكتاب ، وأن القارئ عليها يجهلون من أمرها — في الأغلب والأعم — ما يجهله الراغبون في استعارتها ، وأكثرتهم قد انصلت

(١) الكواكب السائرة ٢ ص ١٦٠ (لأبي العباس الحريقي + ٥٩٤٥ هـ ، ص ١٩٢ لأحمد ابن عبد الحق السبكي + ٩٥٠ هـ ، ص ١٩٥ للفتوحى الخليل . . . الخ

مهمته بالكتب على غير رغبة منه أو منفعة تتطلبها صاحبة العمل ، وفارس هذه الدور لم تنظم على وجه ييسر البحث لأهله ، والإعارة الخارجية للخطوط التي اعتمدت عليها كل الاعتماد — متنوعة متعاً باتاً ، ووسائل الإعارة الداخلية ملتوية غير منظمة تستغرق وقتاً يضيق به أهل البحث ، وهذا فوق أن أظهر ما يميز المخطوطات خطها الردي . وكثرة الغث في مادتها والمبتذل في معانيها وغير ذلك ، وذلك كله فوق أن الموضوع بكر وعمر لم تيسره أبحاث الباحثين من قبل .

ثم شايخ الطرق الذين اتصلت بهم . كنت أجد مشقة كبيرة في الالتهام إلى حقيقة عن أجدادهم الذين تناولهم كتابي ، ولئن كنت لأملك إلا إعلان الشكر لهم على ما أمدوني به من عون وقدموه إلى من مصادر ، إلا أني مضطر إلى أن أشير إلى الصعوبة التي كانت تصادفتني في معرفة الحقائق عند هؤلاء الذين يرتفع إعجابهم بأجدادهم إلى مرتبة العبادة . . .

وقد هوّن على مناعب هذا البحث — إلى جانب ما أسلفت الإشارة إليه من عناية الأستاذ الجليل شفيق بك غربال — الملاحظات القيمة التي أمدني بها أساتذتي وزملائي ، وأخص بالذكر من حضراتهم معالي الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق والدكتور أبو العلا عفيفي ، والأستاذ محمد فريد أبو حديد والدكتور إبراهيم مذكور والأستاذ أمين الخولي وغيرهم .

وبعد فهذا هو كتابي الذي أرجو أن يساهم في وضع بحث وفيلسوف التاريخ المعصر ويتناول ظواهر الحياة فيه بتفسير جديد ، يقوم على فهم واسع بما مرّ بالمصريين من حركات الدين واستوعب نفوسهم من تياراته وشغل أذهانهم من أفكاره ، وقد اتّهب فيه إلى نتيجة لما خطرهما ، هي أن الحياة المصرية في جملتها ، منذ العصر العثماني حتى يومنا الراهن ، تدين لتعاليم الصوفية أكثر مما تدين للقواعد الدينية أو الحضارة الأوروبية ، وسنعرف في الفصل الختامي كيف اتسعت فرجة الخلاف بين قواعد الدين وتعاليم الصوفية في ذلك العصر ،

وكيف غلبت هذه التعاليم مبادئ الدين الخفيف . فأما عن الحضارة الغربية فقد أقبلت الى مصر في ركاب نابليون الذي أجهز على العصر العثماني عام ١٨٩٨ م ، واشتد بأسها في عهد محمد علي وإسماعيل ، وبدأ تأثيرها غلابا في المدن في عهدنا الحاضر ، ولكن نفوذها لا يزال كسيحا في الريف ، وهو يمثل أغلبية الشعب المصري ، بل إن آثار هذه الحضارة في أهل المدن ، لا تزال — في الأغلب والأعم — مجرد مظاهر ، نخفي وراءها تقاليد قديمة العمد ، بينها وبين تعاليم صوفية العصر العثماني صلوات رحم وقربى .

نوفيس الطويل

{ شعبان ١٣٦٥ هـ  
يولييه ١٩٤٦ م

الاسكندرية في

مقدمة تاريخية عن :

## العصر العثماني في مصر

٩٢٣ - ١٢١٢ هـ = ١٥١٧ - ١٧٩٨ م

عصر السلاطين — تطبع القوانين لأول مرة — مصر في عهدهم —  
حلتهم السياسية — جانب الاقتصاد — حالتها الاجتماعية — حالتها  
العلمية — تطور أحوالها في القرن الثامن عشر ( في السياسة والعلم ) :

عصر السلاطين : ١٢٥٠ - ١٥١٧ م ٦٢٨ - ٩٢٣ هـ

حطم التتار مدينة المشاركة في بغداد ، واستولوا على حاضرة الإسلام  
سنة ست وخمسين ومستمائة للهجرة ، وأزعجوا المسلمين في شتى بقاع العالم  
الإسلامي بما ارتكبوا من فظائع وما أذاعوا في الناس من أهوال — أعمالوا  
السيوف في رقاب الناس أينما نزلوا ، وألفوا في نهر الدجلة بآثار العلماء من  
كتب ومصنفات ، وجدوا في القضاء على مظاهر الحضارة في دول الإسلام .  
وكان حكم مصر يومئذ في يد طائفة من مهرة الفرسان المدربين على فنون  
القتال منذ أواسط القرن الثالث عشر للميلاد ، هم سلاطين المماليك ، وقد  
عاشوا في رخاء هيأته لهم أرباحهم من التجارة والزراعة والصناعة ، وكانت  
الحروب التي أثاروها بما أثر عنهم من نهامة وشجاعة ، تشغل بالهم وتملأ  
حياتهم وتسلم بمضهم إلى أعلى مراتب الحكم ، ولكنها كانت لا تشغلهم عن  
رعاية العلم والعناية بأهله ، فإلا بمصر العلماء في مختلف دول الإسلام فارين  
من وجه التتار ، ووجدوا في رحابها خير ملاذ يقيم أحداث الزمان ، ويمدهم  
بعطايا السلاطين وصلات الحكام ، ويحوظهم بمظاهر التقدير والاحترام ،  
وأضحت مصر في هذا العهد مقر خلافة الإسلام وعاصمة ملكه ، ومركز

مدنيته وأبعد دولة شهرة وعظمة ، وقد اتجه إليها العالم الإسلامي منذ ردت  
عن الإسلام غارات التتار وحملات الصليبيين .

### نظام العثمانيين لاستعمار مصر :

واستحوذت مصر على هذه المكانة الملحوظة بين دول الإسلام طوال  
عصر السلاطين على وجه التقريب ، ولكن حكمهم قد شاخ في أواخر عهدهم ،  
وبدأ الفساد يتمنى في أوصاله منذ أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، في  
وقت قامت فيه دولة بني عثمان فتية تنساب في كيانها حيوية الشباب وقوته ،  
وقد تمها لأهلها فتح أميا الصغرى وقوطيد سلطانهم في رحابها ، وغزو أملاك  
الدولة الرومانية الشرقية من الغرب ، والاستيلاء على أمارات السلاجقة من  
الشرق ، وجعل القسطنطينية عاصمة ملكهم سنة ١٤٥٣ م ، فكان طبيعياً بعد  
هذا أن يتطلع العثمانيون إلى زعامة العالم الإسلامي بالاستيلاء على مصر ،  
وإخضاع أهلها وأملأها لسلطانهم ، ونقل الخلافة الإسلامية إلى حاضرة  
ملكهم . . . وكان لهم ما أرادوا ، فتمكن سلطانهم ، سليم الأول ، من قهر  
المماليك بعد أن عجز عن ذلك أملافه ، ودخول مصر بعد موقعة الريدانية  
١٥١٧ م ( ٩٢٣ هـ ) ، وقد أقام بها نحو ثمانية شهور عاد بعدها إلى الأستانة  
وفي ركابة خليفة المسلمين ، . . . وأصبحت مصر بعد ذلك إيالة تابعة للدولة  
العثمانية ، بعد أن فقدت في هذا النضال استقلالها ، وخسرت زعامة الإسلام ،  
وزايلتها خلافة المسلمين وتلاشت شهرتها في شتى الدول ، واستمر الحكم  
للعثمانيين في مصر حتى أقبلت الحملة الفرنسية بقيادة نابليون بعد نحو ثلاثة  
قرون من الزمان ( ١٧٩٨ م - ١٢١٢ هـ ) ، وهذا البحث ينصب على دراسة  
التصوف أثناء هذا العصر ، ولهذا رأينا أن نمد هذه الدراسة بشرح بعض  
مظاهر الحياة في مصر إبانها ، عسى أن يساعد هذا على فهم الجو الذي اتفق  
وجود التصوف فيه ، والتعرف إلى نوع التفاعل الذي قام بينهما ، وحسبنا من  
هذه المظاهر أربعة :



## أولاً - أحوال مصر السياسية :

كان في مصر ثلاث قوى يراقب بعضها بعضاً ، ولكل منها حق الاتصال المباشر بالسلطان ، فأدى هذا النظام المفكك إلى قيام نزاع دائم بينها طوال هذا العصر ، فكان الوالى يحكم مصر باسم السلطان وأيسر له من رأى في حكمه ، إلا ما عليه عليه سيده المقيم في الآستانة ، ومراقبة تنفيذ ما يوحى إليه من أوامر . . . وكان يعين بمقد يمتد عاماً قابلاً للتجديد ، وإلى جانب الوالى تقوم سلطة الجنود ، وكانوا سبع فرق وكل إليها حفظ الأمن العام . ومن ضباطها يتألف الديوان ووظيفته مراقبة الوالى في شتى تصرفاته . . . ويمثل السلطة الثالثة المماليك الذين قدموا للسلطان التركي طاعتهم وأعلنوا له ولائهم ، إذ عينهم السلطان حكاماً إداريين للديريات لحفظ التوازن بين السلطين السابقين (١) . . .

بهذا النظام المفكك كانت تحكم مصر ، وهو يشبه - في كثير من الوجوه - نظام الحكم في غير مصر من دول الإسلام إبان هذا العصر وهكذا بقيت مصر من غير حاكم قوى تتجمع السلطة في يده ، وتخشاها سائر القوى المتنازعة ، فكان للمماليك أطماع أدت إلى وجود النزاع بينهم ، وقام بين الفرق بعضها مع البعض نزاع كان يبدو في بعض الأحيان في صورة حرب داخلية تستمر شهوراً ، وربما استعانت كل فرقة مقاتلة بطائفة من المماليك - كما كان الحال في الحرب التي قامت بين فرقتي العزب والانكشارية ، أو بين فرقتي القاشمية والغفارية ودامت ثمانين يوماً كما يروى الجبرتي ، والوالى من وراء هذا النزاع - الذى كاد يشغل مصر كله - يراقب حركات العداء ويشرف عليها ، ويرفع إلى السلطان التركي أمرها ، ولكنه لا يملك القضاء عليها لأن القوة تعوزه والسلطان ينقصه ، ولا شك أن هذا الاضطراب كان ذا أثر في حياة الشعب المصرى من نواح كثيرة .

## وثانيها — الحالة الاقتصادية :

أدركت الفاقة مصر في هذا العصر — كان المصريون في عهد السلاطين المماليك يعيشون في فيض من الرخاء ، ولكن أحداثاً جدت فغيرت من حالهم وبدلت من رخائهم وسلطت عليهم الضيق وأغرقت بهم العوز ، كان البحر الأبيض هو الطريق الوحيد بين الهند وأوروبا طوال عصر السلاطين ، فكانت التجارة الهندية ، تمر بأملأهم ( مصر والشام ) فيفرضون عليها باهظ المكوس ، حتى كانت الضرائب لا تنقل في عرف جهرة المؤرخين عن مدمس الثمن الأصلي للبضائع كما يقول الأستاذ كرون ، . . . وغازط أوروبا هذا الربح الذي كان يستحوذ عليه المصريون والبنادقة ، وساءها غلاء أسعار الحاجيات بعد نقلها وممداد مكوسها ، فأرادت الاهتداء إلى طريق أخرى توصل للهند ، وتكون أقل نفقات وأقصر مسافة وأخف متاعب ومشقات ، وقد تحقق هذا الأمل بعد بعثات كثيرة لاقت الإخفاق حيناً وصادت النجاح حيناً ، فوصل أخيراً ، فاسكودي بچاما ، إلى رأس الزوابع — الذي سماه على سبيل التفاؤل ، رأس الرجاء الحسن ، — سنة ١٤٩٦ م فتحوّلت التجارة الهندية إلى هذه الطريق ، ووفرت أوروبا على نفسها ثلث النفقات التي كانت تخسر ها من قبل ، فوق ما ربحته من راحة ووقت — واستولى العثمانيون على مصر بعد هذا الحادث الجلل بوضع سنوات ، وكثرت التلصص بعد ذلك في البحر الأبيض ، فضعفت الحركة التجارية من ناحية ، وخسرت مصر به مورداً فياضاً بالمال .

هذا ما أصاب مصر في تجارتها إبان هذا العصر ، فأما الصناعة فحسبنا أن نعلم أن السلطان التركي قد عماد بعد فتح مصر إلى الاستانة وفي صحبته نحو ألف وثمانمائة من البنائين والمهندسين والتجارين والحدادين والحجارين والمرخين والمبطلين والحراطين<sup>(١)</sup> . . . هذا فوق ماغنمه من أموال البلد حتى

(١) ابن أبياس ج ٢ ص ١٢٩ وروى في ص ١٢٢ أن عددهم ألف .

بلغ مائتيه فيما أشيع ألف جل جل يحمل بالذهب والفضة ، عدا ما حمله معه من تحف وأسلحة وأوان صينية ونحاسية ودواب من خيل وبغال . . . وذلك كله خلا ما غنمه وزراؤه وجنوده . . . حتى بطلت في مصر نخسون صناعة وتعطل منها أصحابها كما يقول ابن إياس <sup>(١)</sup> .

وأما من حيث الزراعة فقد أهمل عصرهم الأرض وإقامة الجسور وحفر الترع والخللجان وتطهير الجداول ، ولم يكن من عمل الحكومات في هذا العصر أن تهتم بالشعب وتعمل على توفير أسباب الرخاء له بإصلاح مرافق الحياة عنده <sup>(٢)</sup> . وكان نظام الملكية المقاربية غير قائم بالمعنى الصحيح . فان أراضي الفلاح كانت عرضة للاتزاع منه إذا عجز عن سداد ما يفرضه عليه الملتزمون من ضرائب ، كان بعضها يفرض حسب أهواء الملتزمين <sup>(٣)</sup> .

قلت موارد المال وكثرت وجوه الإنفاق في هذا العصر — كان سلاطين المماليك ينفقون كل ما يصل إلى أيديهم من أموال الشعب داخل البلاد ، يقيمون المباني الشاهقة والآثار النعيسة التي لاتزال إلى اليوم قائمة تشهد بمهارتهم في فن المعمار ، وينفقون كثيراً في حياتهم المفرقة التي حفلت بوصفها كتب الرحلات التي كتبها الأجانب في هذا العصر ، وكانوا يعطفون على الشعب فينصدهقون على نفقاته ، ويجرون الأرزاق على طلبية العلم من أبنائه ، ويجزلون العطاء للعلماء من شيوخه ، فانتفعت البلاد بما قدمته لهم من ضرائب ومكوس . أما في العصر العثماني فان موارد المال فيه قد قلت ، ووجوه الإنفاق قد كثرت ثم ! كان السلطان التركي في القسطنطينية ينتظر الخراج في كل عام ، وكان الوالي والفرق العسكرية التي صاحبت الفتح التركي في حاجة

(١) المصدر السابق ج ٢ ص ١٣٣ ، وأبو السرور البكري في التزعة المذكية في ولاية مصر والقاهرة ص ١١ (مخطوط) .

(٢) شفيق غريال : المختار يعقوب ص ٩٥ والرائسي ج ١ ص ٣٢ .

(٣) الرانسي ج ١ ص ٣٠ ، ٣١ .

إلى نفقة كبيرة لم تقم بها مصر فيما سلف من عصور<sup>(١)</sup> .  
وقد كثرت في هذا العصر مناسر اللصوص وعظم نفوذ الأولياء وأرباب  
الطريق ، وكان على الشعب أن يكلفهم ويقوم بحاجاتهم وينظم لهم الموالد  
والولاتم على نحو ما سنعرف بعد ، وفشت الأوبئة في هذا العهد الذي كانت  
فيه مصر لاتعرف الاهتمام بصحة الأفراد ، أو العمل على وقايتهم من  
الأمراض . . .

تضافرت العوامل كلها على إيجاد حالة من العوز والفاقة كان لها بالغ  
الأثر في نفوس المصريين .

### وثالثها — الحالة الاجتماعية :

كانت الحياة الاجتماعية صدى للفاقة التي نزلت بالشعب ، والجهل الذي  
أدركه وعشش في رأسه ، والاضطراب الذي لازمه من جراء النظام السياسي  
السالف الذكر ، فإن فرق الجنود التي وكلت إليها حراسة البلد وصيانة  
الحريات والحرمات ، كانت شر ما لقيت مصر في هذا العهد من ضروب  
العدوان والطغيان ، وقد بلغ من بغي الجنود في عهد الضعاف من الولاة  
— وما كان أكثرهم — أن كانوا يخطفون النساء والعلماء من الشوارع ليلا  
ونهارا ، ويفسقون بهم على قارعات الطرق . . . وكانوا يشاطرون التجار  
وأصحاب الحرف مكاسهم . . .<sup>(٢)</sup> وكان الفلاح معرضا لظلم جبهة الضرائب

(١) كان الوالي بيتاح ولايته خمس بقراوح بين أربعمائة ألف وخمسمائة ألف ريال ، ولا يوفق  
إلى تجديد مدة ولايته سنة أخرى إلا إذا أرسل للاستشارة هدايا تزيد على مائة ألف ريال ،  
وكان عليه أن يرسل إليها الخراج السنوي وقدره ستمائة ألف ريال ، وأن يبعث بهدايا أخرى  
من السكر والبن والأرز والتواب والحلوى والفلال لانتقل قيمتها عن ٦٠٠٠٠٠ ريال ،  
وذلك عدا نفقات الحج والجنود في مصر قيا يقول الراضي ج ١ ص ٢٣ — ٢٤ — وإن  
تشير هذا النظام أواخر هذا العصر . وكان الوالي وحكام المديرات من أمراء الممالك يجمعون  
لأنفسهم في قترات الظلم أموالا لا يقرها عدل ولا يقول بها عقل — كما روى الجبرتي وابن أبي  
غريما من مؤرخي مصر .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤

وتعذبهم إن قصر في إرضائهم ، والولاء وإن توفرت في الكثيرين منهم  
« نية الخير ، فقد كانوا لا يقرون على تحقيقها وإقرار الحق ونشر العدالة بين  
الناس ، إذ كان الوالى مطلوب السلطة على الجنود (١) ، فكان يردّ الظلم عن  
الشاكين ، بأن يطلب إليهم البعد عن الباغين والاختفاء عن أنظار المعتدين  
حتى لا يتعرضوا لما يزلون بهم من ظلم وبغى وعدوان ... »

فساعد هذا الفارق ما كان شائعا بين الناس من جهل وضنك وضيق ،  
وأدى بهم إلى الإيمان الساذج باقه وأهله ، وتشبث الجمهور برسوم الدين  
وطقوسه ، وأهملوا قواعده ولبائه ، وحلمهم الضيق الذى أخرج صدورهم على  
التهاون في انتشار الحشيش والخمر والبوزة بينهم ، وشيوع الشذوذ الجنسي  
والسعى وراء الزنا بالفساء والفسق بالغلمان على نحو ما سنعرف بعد .

ولقد عاقت الوحدة الدينية وجود رابطة وطنية تربط الناس وتوهم لهم  
أملا قوميا واحدا ، إذ جرى العرف من قديم الزمان على أن يتولى حكم مصر  
وردّ الغارات عنها وحفظ الأمن فيها ، فئة من مهرة الفرسان ليس فيهم  
مصرى واحد ، وقامت إلى هذه الطبقة العسكرية طبقة الشعب الذى انصرف  
إلى العمل في ميادين الزراعة والصناعة والتجارة على قدر ما تسمح ظروفه ،  
وسنعرف فيما يلي من فصول هذا الكتاب أثر هذا الجو الاجتماعى في  
التصوف الذى خصصنا هذه الرسالة لدراسة .

#### ورابعها — الحالة العلمية :

ولا بأس من أن نسهب في بيانها بعض الإسهاب ، لأنها أوثق مظاهر  
الحياة اتصالا بالتصوف :

اعتزلت مصر العالم الأوربي بعد كشف رأس الرجاء الحسن ، وكانت  
أوربا قد استيقظت من سباتها على نهضة أخذت تدب في كيائها ، وتتناول  
شئى مرافق الحياة عند أهلها ، فحرم مصر من الاتصال بهذه النهضة وتبع

(١) في ابن أبياس ج ٣ ص ٨٥ وغيرها أمثلة تؤيد ذلك .



حركاتها والإفادة من ثمراتها طوال العصر العثماني - الذي استغرق نحو قرون ثلاثة ، وكان للمصريين الذين عاشوا في العصر الوسيط كله - لا العثماني وحده - فهم للحياة العلمية بخالف فهمنا ، فكان المثل الأعلى للعلم في عرفهم قائما على الدين وما يبعين على فهمه من دراسات ، فالتجهد إلى علوم الدين عنايتهم . وكادوا يملون ما عداها من ضروب العلم وألوانه - وقد بلغ من إهمالهم لدراسة العلوم العقلية أن كان يحجلها صدور العلماء في الأزهر - أكبر مهاد في مصر يومذاك - لما جاء إلى مصر الوالي أحمد باشا خف لاستقباله أظهر العلماء في ذلك الوقت ، وهم الشبراوي شيخ الجامع الأزهر ، وسالم التفراوي ، وسليمان المنصوري ، فدارت بينهم مناقشات علمية ( أي دقيقة ) عذب عليها الوالي بالكلام في العلوم الرياضية ، فأحجم العلماء عن التباحث فيها معلنين جهلهم بها ، فعجب الوالي لذلك كثيرا ، ثم قال للشبراوي بعد ذلك : إن الشائع في بلادنا أن مصر منبع الفضائل والعلوم ، وقد شاقني الحجة إليها فلما جئت وجدتها كما قيل وتسمع بالمعدي خير من أن تراه . اهـ فقال الشبراوي : هي يا مولانا كما سمعتم معدن العلوم والمعارف فقال له : أين هي وأنتم تجهلون العلوم الرياضية مع أنكم أعظم علمائها ، وغاية نوصيكم الفقه والمقول والوسائل ، وقد انبذتم المقاصد وجهلتها - فقال الشبراوي : لسنا أعظم علمائها بل نحن المتصدرون لخدمة أهلها وقضا حوائجهم عند أبواب الدولة وأهل الحكم فيها ، وغالب أهل الأزهر لا يشتغلون بشيء من العلوم الرياضية إلا بقدر الحاجة الموصلة إلى علم الفرائض والمواريث أما غير ذلك فعرفته من فروض الكفاية إذا قام به البعض سقط عن الباقي ، ثم إن دراسة هذه العلوم تحتاج إلى لوازم وشروط وآلات وصناعات ... وغالب أهل الأزهر فقراء ، ويعوزهم الاستعداد لدراسة هذه العلوم ، ثم أشار على الوالي بأن يتصل بعالم فذ في معرفته بالرياضيات هو حسن الجرتي - والد عبد الرحمن المؤرخ المعروف - فاقبل به وأخذ يستقي عنه علومها

أهملوا دراسة العلوم الرياضية وكانت في عرفهم تشمل الهندسة والحساب والهيئة والربيع واعتبروا الفلك والميقات والزيرجة والأوقاف وما إليها من العلوم الغربية والخارجية وكانت لا تحتل المكان الأول من اهتمامهم ، وجهلوا التفرقة بين العلوم والفنون ، بل كان العلم في عرفهم معناه المعرفة — وهذا ورد معناه في القرآن الكريم ، وكانت العلوم الشائعة عندهم صنفين : العلوم العقلية ويراد بها الفقه والحديث والتفسير ونحوه ، والعلوم العقلية وهي ما نريد به العلوم اللسانية في وقتنا الحاضر ، ويراد بها النحو <sup>(١)</sup> والبيان واللغة ... وكانت تحتل المكان الثاني من عنايتهم ، وكانت دراساتهم في الجلمة تعوزها العناية بالمعنى ويشغاهم الاهتمام بالألفاظ ، وكان تأليفهم يدور حول شرح المنون والتعليق على الشروح مما يجوز لنا أن نسمي عصرهم ، عصر الشروح والحواشي <sup>(٢)</sup> .

وشاع الجهل بين الناس واستفحل أمره في الريف والحضر ، وعششت السذاجة في رؤوسهم وبدت في ضعف التعليل الذي نراه في شتى مؤلفات الأدباء ، ونصادفه عند الناس كلما عرضوا لتعليل ظاهرة من ظواهر الحياة ، فإذا أصاب البلد قحط رأينا جهود الساعين لرفعه . فتفتح بالاتجاه إلى الناس زواله عند الله بالأدعية والأوراد والصلوات ، وقد يقنع الحاكم بأن يطلب إلى العلماء والناس أن يسارعوا إلى أداء هذا الواجب إن تواتر أوقافه ، وياتمس من يرجو فيه الصلاح والخير أن يكون هو الداعي والناس من ورائه يستجيبون <sup>(٣)</sup> ، وإذا نزل بالبلد عدو يريد احتلاله ، يادر العلماء وأرباب الطريق إلى المساجد والزايا وأخذوا في تلاوة الأوراد والأدعية حتى ترايلهم هذه الشدة ، وقد فعلوا ذلك يوم زحفت عليهم الحملة الفرنسية التي

(١) استخلصنا ما أسلفناه في الحياة العلمية عن مصادر هذا العصر ولا سيما : البيهقي ج ١ ص ٢٧ ، ١٩٣ — ١٩٤ و ١٧ و ٢٦ و ج ٢ ص ١٧ و ٥٧ و ٧٥ و ١٠٠ وغيرها .

(٢) جرجي زيدان : آداب اللغة العربية ج ٣ ص ٢٧٢ .

(٣) الشعراي : لطائف المتن ج ١ ص ١٠٦ ، البيهقي ج ١ ص ٣٠ .

قضت على العصر العثماني في مصر . (١) بل كان السلطان في تركيا إذا اشتدت حروب أعدائه له ، لاذ بعلباء مصر وأجزل لهم العطاء ، واتمس إليهم أن يقرموا له البخارى بين الحين والحين حتى ينصرده الله على أعدائه (٢) كان يحملهم على هذا إغفالهم لسنن الكون ونواميس الطبيعة ، وإيمانهم بأن الله هو العلة المباشرة ، لكل ظواهر الحياة ، فاذا اتجهوا إليه بالدعاء رفع عنهم ما نزل بهم من شر وما أصابهم من ضيق ، وكفى الله المؤمنين شر القتال ... وهذا العجز عن تعليل الظواهر هو الذى ساق الناس إلى التسليم بدعاوى الدجالين وحيل المشعوذين من أدعياء التصوف وأهل التنجيم (٣) .

أما معاهد العلم في هذا العصر فقد كان أكبرها خطرا :

الأزهر : وقد كان طلابه من رواد الكتاتيب التى تشبه مدارس التعليم الأولى في وقتنا الحاضر ، وكان الطالب يصطنى لنفسه بين أعمدة الأزهر من شاء من شيوخه متدرجا من السهل إلى الصعب ، حتى تغزر مادته ويأنس في نفسه الكفاية للتدريس ، فيخلق حلقة ويمضى في تعليم الطلاب ، ونجاحه في ذلك رهن كفاءته ، إن أحسن في درسه سكنت عنه الشيوخ (٤) ورضى به الطلاب (٥) فواصل عمله . وإن أخفق انفض أتباعه من حوله ، وكان الإخفاق مصيره (٦) . والكثيرون من خريجي الأزهر أو ممن قضوا بين جدرانها شطرا من حياتهم ، ينطلقون إلى الأقاليم والقرى ويقيمون الكتاتيب السالفة الذكر ويتولون إرشاد الناس وهدايتهم إلى سبيل الرشاد في المساجد وزوايا أهل الطريق ، وكان الناس يقبلون على هذه المجالس للتعرف في شئون دينهم .

(١) الجبرتي ج ٣ ص ٦

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٧٢ ، ج ٢ ص ١٧١ و ١٩٠

(٣) أنظر في الجبرتي ج ١ ص ٣١٨ و ٣٣٧ — ٣٣٨ و ٣٨٤ أمثلة لذلك .

(٤) رقاغة الطبعات : خلاصة الأثر ج ٢ ص ٤١٢ في موقف العلماء من المناوى ،

والجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ — ٣٤٠ في موقفهم من البيهقي .

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ٤

(٦) في الجبرتي ج ١ ص ٢٥٧ ، ج ٢ ص ١٠٦ ما يذهب بما تقول .

وقد عالج بعضهم الوعظ بنوع من القصص الديني يجمع بين دراسة الدين وفهم المثل العليا في الحياة الدنيا<sup>(١)</sup> وكانت هذه المجالس تتجاوز المساجد والزوايا وتقام أحياناً في البيوت والدور ويتهافت عليها الناس وينصت إليها النساء من وراء ستار<sup>(٢)</sup>.

وكانت مجالس الأدب والعلم تقام أحياناً في منازل العلماء والخطاطين والأدباء، ويشهد أزرها الحكام، وأظهرها مجالس رضوان بك والزبيدي والجبرتي الكبير<sup>(٣)</sup>.

كما تخصص لدراسة العلوم الغربية — من هيئة وفلك وميقات وزايرجه وأوافق — نفر من علماء الأزهر، واهتم غيرهم بدراسة العلوم الرياضية، وكان هذا النوع من العلماء موصول الأسباب بالحياة العملية فيما لا علاقة له بالتهوى للآخرة، ويشهد بذلك موقف الشيخ حسن الجبرتي من اختلال الموازين واختلاف المقادير في عهده عام ١١٧٢<sup>(٤)</sup>.

وقد شاع في الريف — على الأخص — نوع من الأدب الشعبي تمثله لناقص أصبى زيد الحلال وسيف بن ذى يزن وعنترة وألف ليلة ونحوها، وقد شجعت على انتشاره ما أسلفناه من ظروف سياسية وأحوال اقتصادية واجتماعية.

وقد نهضت زوايا الصوفية بقشر العلوم الدينية، وإن انصرف اهتمام أهلها إلى مزاوله الشعائر الدينية وممارسة الحياة الصوفية — صادقين كانوا أو كاذبين.

(١) محمد فريد أبو حديد: سيرة السيد عمر مكرم ص ٢٣ — ٢٤.

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢١٢.

(٣) صورها عن الجبرتي الأستاذ محمد فريد أبو حديد في صورة طريقة نشرت بالرسالة في عديها (٨٣، ٨٤ الصادرين في ١، ١١ فبراير سنة ١٩٤٠) وانظر الجبرتي ج ٢ ص ٢١٢ وفي غيرها من صفحات.

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٤٠٣.

وينبغي أن نشير الآن إلى أن أهل العلم وحواريه كانوا حريصين على حيازة المكاتب وجمع الكتب النادرة منها والمتداول ، ينشأ عنها من سوق الكتبيين حيناً وعن الأفراد والبلاد النائية حيناً آخر ، وغلب عليهم الميل إلى التهاون في إعارتها وعدم التشديد في استعادتها ، رغبة منهم في نشر ما تنطوي عليه من ألوان العلم وضروبه ، فقامت مكانهم مقام دور الكتب العامة في عصرنا الراهن <sup>(١)</sup>.

على أن هذا كله كان ضعيف الأثر في تبيد الظلام الذي استوعب هذا العصر واحتوى أهله ، ومؤرخو الأدب المصري يقررون — والأسي ملء قلوبهم — أن الفتح التركي كان ويلا على العلم وأهله ، لأن المغول حين اكتسحوا فارس وخراسان والعراق وحطموا بغداد وعفوا على مدينة الإسلام ، انتقلت مراكز العلم من بغداد وبخارا ونيسابور وقرطبة وغيرها من مدائن العلم في العصر العباسي ، إلى القاهرة والإسكندرية والقيوم وحلب وغيرها من مدائن مصر والشام <sup>(٢)</sup> . وكان السلاطين الذين يملكون هذين القطرين يهجون على العلماء الأرزاق ويجزلون لهم العطاء ، فنشأت في مصر نهضة علمية ظهرت ثمارها في أواخر عصر السلاطين ، ونشأ فيها منذ القرن السابع للهجرة ميل نحو ، التعليم العام ، فترى لأول مرة في التاريخ الإسلامي مؤلفاً دكالنورى . سنة ١٣٣٢ يحاول أن يشرح شتى المعارف التي عرفت في عصره من أدبية وعلمية وتاريخية وجغرافية في موسوعة ذات عشرين ( أو ثلاثين ) مجلداً ، وأخذ هذا الميل يتقدم في مصر — لا في المعارف العامة وحدها — بل انجبه نحو التخصص في القرنين الثامن والتاسع للهجرة . فترى نوعاً من دائرة معارف جغرافية في كتاب دى انين وثلاثين مجلداً يضعه العمرى ( ١٣٠١ — ١٣٤٨ ) في الجغرافيا العامة ، وترى مؤلفاً آخر وضعه القلقشندى عن الأنظمة المختلفة

(١) في الجبرتي ج ١ ص ٢٠٨ — ٢٠٩ ( مكتبة الصرايى ) ، ص ٤٠١ مكتبة المهرقى الكبير .

(٢) جورجى زيدان ج ٢ ص ١١٢

في العالم الإسلامي يقع في ثلاثة عشر (١٤) مجلداً ، وترى ما يشبه هذا في غير هذين الكتابين (١)

فلما استولى الأتراك على مصر جعلوها إيلة عثمانية ، وفرضوا على أهلها أن تكون التركية لغة المحادثات والمحادثات الرسمية ، وقلت عنايتهم بالعلماء ، وساعد الجو السياسي والاجتماعي والاقتصادي في عصرهم على وقف هذا التيار العلمي السائر نحو التوضيح والكمال ، ولولا الأتراك لكان الذهن المصري متدشياً من تلقاء نفسه مع الأذهان الأوروبية في العصور الحديثة . ولا مستطاع أن ينال بل أن يقوم بنصيبه من الرقي العام للحضارة (٢)

وقد استجالت هذه الموسوعات في العصر العثماني إلى حواش وتعليقات وشروح .<sup>٣</sup> والراي عندنا أن العثمانيين قد أوقفوا الحركة العلمية في مصر نحو قرنين من الزمان ، فإن الفترة الأخيرة من عهدهم - فيما ياروح لي - قد دب فيها نوع من التطور شمل أكثر مرافق الحياة عند أهلها ، وإن قال المؤرخ الثقة : الأستاذ غربال ، أما ماليك مصر فكانوا في عام ١٧٩٨ م كما كانوا في عام ١٢٥٠ في الحرب والتفكير ، أو كانوا على حال أسوأ بفقدان استقلال دولتهم ، وما كانوا يجيرونه من مكوس مفروضة على تجارة الشرق المارة في أرضهم ، كذلك أهل مصر لم يصلهم عن انقلابات الغرب إلا أضعف الأنباء ، وظلوا في كل مقومات الحياة الوطنية حيث كان آباؤهم (٤) . ولا بأس من أن نحاول الآن تأييد ما نزعمه :

التطور في السياسة : أصاب الضعف تركيا في القرن الثامن عشر ، وتوالت عليها انتصارات النمسا ثم روسيا في ساحة الوغى ، واختلت شئون الدولة الداخلية وفسد نظام الحكم وساء حال الجيش وكثر تغيير الولاة على مصر ، واندحبت الفرق العسكرية في الشعب وأصبحت الأملاك يتولى أمرها الماليك ،

(١) طه حسين : ابن خلدون ص ٥٧

(٢) المصدر السابق ص ١٦٤ - ١٦٥

(٣) شفيق غربال : الخيال يعقوب ص ٥

فأضحى الجنود أتباعاً لهؤلاء الأمراء الذين كانوا جادين في تقوية أنفسهم باتباع الممالك والإكثار من الأتباع ، وقد حاولوا أن يوحّدوا كلمتهم باختيار زعيم لهم جماعه ، شيخاً تليد ، نافذ الرأي في كل شئونها ، حتى أصبح الوالي الذي ترسله تركيا سجيناً في القلعة لا يملك الخروج منها إلا بأذنه . . . ولو امتاز واحد من هؤلاء الأمراء بالنسب فوق عاتقياً له من شجاعة وفروسية ، لاستكان له زملاؤه وساروا في ركابه ، وعاونوه في الاستقلال بمصر وطرد الأتراك من أرضها . ولعل هذا هو السبب الذي أدى إلى فشل الدعوة للاستقلال الذي حققه على بك الكبير سنة ١٧٦٩ فترة من الزمان .

وكما نبهنا لأمراء الممالك هذا النفوذ تهيأ للشعب نوع من التضج بدا واضحاً في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر<sup>(١)</sup> فقد سمعنا في هذه الفترة سلسلة من الحوادث تقوم على دفع الظلم ومقاومة أهله ، ورأينا اهتمام الحكام بالرأي العام وزعامته ، وعرفنا موقف العلماء في فتنة الأزهر وفي فتنة الوقف<sup>(٢)</sup> ورأينا العالم الذي يقول للحاكم في وجهه : لعنك الله ولعن اليسرجي ، الذي جاء بك ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً . . . والعالم الذي يقول للعامة وهم يستنصرونه لدفع الظلم الذي يوقعه الحكام بهم : « في غد نجتمع أهالي الحارات والأطراف وبولاق ومصر القديمة ، وأركب معكم ونهب بيوتهم كما نهبوا بيوتنا ونموت شهداء أو ينصرنا الله عليهم ، »<sup>(٣)</sup> وغير هذه الحوادث كثير لم نكن نسمع به في القرنين الأولين من العصر العثماني .

وقد شبه بعض المؤرخين نفوذ العلماء في هذه الفترة بنفوذ البابوات في

(١) رأى الأستاذ المؤرخ محمد فريد أبو حديد أن هذا التضج السياسي قد ظهرت بوادره في مستهل القرن الثامن عشر وكان أول دليل عليه عام ١٧٠٣ م ( من ٣٧ من سيرة السيد عمر مكرم ) وقد ناقشت رأيه على صفحات مجلة الرسالة في العدد ٢١٧ الصادر في ٣٠ أغسطس سنة ١٩٣٧ .

(٢) الجيوق ج ٢ من ٥٦ و ١١٨ .

(٣) المصدر السابق من ١٩ و ١١٠ .



أوروبا إبان العصر الوسيط ، وهو تشبيه مقبول من حيث السلطان الذي توافر لهم عند حكام البلاد ، ولكنه يبدو على خطأ من حيث صلتهم بالشعب من بعض النواحي ، فإن اليقظة كانت قد دبت في نفوس الناس حتى كانوا إذا ثاروا تحركوا للثورة من غير قائد يتولى زعامتهم ، ثم يطالبون زعماءهم من العلماء بقيادتهم ، فإن قصروا نالهم من الشعب الأذى ، وما كان لأوروبا في العصر الوسيط مثل هذا الرأي العام الذي ظهر في مصر قبل القرن التاسع عشر على غير ما يرى بعض المؤرخين <sup>(١)</sup>

التطور في العلم : تطورت الحركة العلمية إلى الكمال في أواخر العصر العثماني ، وظهر هذا النضج في الزيدى الذى وضع ، تاج العروس ، في عشرة أجزاء كبار ، وشرح إحياء علوم الدين للغزالي في عشرة مجلدات كبار ، وفي الوالى راغب باشا سنة ١١٧٩ الذى وضع موسوعة في الأدب واللغة والعلم والطب والطب والحديث والرياضيات والمنطق ، سماها مسقى الراغب ودنية الطالب <sup>(٢)</sup> والجبرتي الذى لا خلاف بين المحدثين من المؤرخين في دقته ومهارته في استقصاء الحوادث وقدرته على فهم الظواهر وما جعل تاريخه عن القرن الثانى عشر للهجرة معدوم النظير في عرفهم ، والصبان ١٢٠٦ هـ صاحب الحاشية المعروفة إلى يومنا الحاضر <sup>(٣)</sup> . وظهرت مجالس الأدب والعلم عند الزيدى والجبرتي ورضوان بك ، وغير هؤلاء من كبار العلماء والذين كانت حلقات دروسهم تزدهم حتى تبلغ المئات عدداً ، فالحفناوى سنة ١١٨١ بلغ عدد الحاضرين في حلقة نحو الخسامة مستمع . وكان يوجد في حلقة محمد بن ابراهيم العوفى ١١٩١ أكثر من ثلاثمائة طالب رغم أنه كان ماجنا خليفاً <sup>(٤)</sup> - والأمثلة على ذلك كثيرة .

(١) كيمورجى زيدان في تاريخ آداب اللغة العربية ج ٢ ص ٧٦

(٢) طبع بمصر سنة ١٢٥٥ كما يقول جرجى زيدان في المصدر المذكور ج ٤ ص ٣٢٦ .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٢٤١

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٦

وقد كان طبيعياً أن يؤدي هذا التطور الذي أشرنا إلى ناحيتين من نواحيه ، إلى تغيير علاقات مصر بالدولة التركية وظهور هذا التغيير في ميادين الاقتصاد والاجتماع وغيرهما من مظاهر الحياة في مصر

وقد سار هذا التطور في مجراء حتى أقبلت الحملة الفرنسية فوجهت مصر في تيار جديد ، كان بداية العصر الحديث فيها ، ولا نريد أن نتعرض للحكم على مدى ما أفادته أو خسرت مصر من جراء هذا الاتجاه الجديد ، فإنه لا يزال موضع جدال بين المحدثين من المؤرخين .

هذه بعض مظاهر روح العصر العثماني في مصر عرضناها موجزين ، عسى أن تساعد على فهم التصوف الذي اتفق وجوده مع هذه المظاهر ، وكان بينه وبينها نوع من التفاعل سنعرض له في حينه ، والآن ما المراد بالتصوف في هذا العصر ؟.. ذلك ما نعرفه في الكتاب التالي .

# الكتاب الأول

---

في الطريق



## تمهيد في صفة الكتاب الأول بما جده

إذا كان التصوف في أصله ظاهرة وجدانية فردية ، فقد كان تصوف العصر العثماني ظاهرة اجتماعية تتطور مع الزمان وتتغير باختلاف المكان ، كغيرها من ظواهر الحياة الاجتماعية ، ولهذا آثرنا أن نتناول في الكتاب الأول عرض المعالم التي ميزت هذا التصوف ، فلم بما انتشر في أرض مصر من زوايا أرباب الطريق ، ومعيشة الذين أقاموا في رحابها ، وانقطعوا لعبادة الله بين جدرانها ، وحتى نعرف شيئاً عن الطرق الصوفية وميزاتها ، والسلطان الذي تهيأ لشيوخها ، والتجارب التي عاشها أتباعها . . . وغير ذلك مما تلزم معرفته في مستهل هذا البحث ، فإذا تهيأ لنا تأريخ هذا الجانب من تصوف ذلك العصر ، عقبنا عليه - في الكتاب الثاني - ببيان السلطان الذي تهيأ لأهله أحياء وأمواتاً ، لنبين - في الكتاب الثالث - عن أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في ذلك العصر وما تلاه من عصور

ولما كان تصوف العصر العثماني امتداداً طبعياً للتصوف الذي شاع أواخر عصر السلاطين ، كان من الخير أن نمهد لدراسته في العصر العثماني بفصل نتناول فيه نشأته بمصر وتطوره إلى هذا العهد ، وتأريخ التصوف في مصر على هذا النحو مجازفة غير مأمونة الزلل ، لأسباب أكبرها خطراً فئة المصادر التي تيسر البحث في هذا الميدان ، بيد أن هذه المجازفة ضرورية لفهم التصوف في العصر العثماني على أكمل الوجوه ، فلنأخذ حيطتنا على قدر ما تسع طاقتنا ، ونلجس إلى اقتحامها مستسلمين بعد ذلك لأخطارها :

# الفصل الأول

## أظهر معالم التصوف في مصر

### قبل العصر العثماني

التصوف في مصر قبل العصر العثماني — أنواع العابد في مصر — الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا في مصر — نشأة التصوف في مصر وتطوره حتى مطلع العصر العثماني — بعض مظاهر نفوذهم قبل العصر العثماني .

### التصوف قبل العصر العثماني :

عرفت مصر الزهد والتسك من قديم الزمان ، فشاعت فيها الدعوة إلى عبادة الآلهة والاستخفاف بمباهج الحياة والحرص على نعيم الآخرة منذ عهد الفراعنة الأقدمين ، وأكثر الصور التي خلفوها متقوشة على معابدهم وآثارهم تنطق بصديق ما نقول ، وقد كثر وجود الزهدة والعباد في مصر حتى أقبل الإسلام على أهلها يحمل الدعوة إلى الدنيا والآخرة معا ، ولكن حديثه عن الآخرة كان مثار الافتتان عند معتقيه ، فاستمر التيار القديم في جريانه ، وعكف البعض على العبادة واقطعوا إلى الله وأعرضوا عن زخرف الدنيا وزينتها ، وزهدوا فيما يقبل عليه الجهور من لذة ومال وجاه ، وانفردوا عن الخلق في الخلوة للمادة . وقد كان هذا هو أصل التصوف — فيما يقول ابن خلدون — وقد كان هذا عاما في الصحابة والسلف ، فلما نشأ الإقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده ، اختص المقلوبون على العبادة باسم الصوفية والمنصوفة (١) .

وقد اتجه التصوف بعد هذا إلى العناية بالأبحاث العقلية ، وأخذت تظهر عند أهل النظريات الفلسفية في المعرفة والوجود . فتشكر لها أهل السلف وتصدى الأشاعرة لدحضها ، واتتصر لهم الغزالي وطالب بحمل الإيمان . . لا التفلسف . . طريقاً إلى الله ، وصرعان مارجحت كفة العمل على كفة النظر ، وتقلب التعب على التأمل ، وبدأ الاهتمام بالسلوك وما يقتضيه من وجوه الطاعة وتربية النفس والزهد والتقشف والحرمان والوفى إلى الله ، وكاد ينطفئ الجانب النظرى في التصوف الإسلامى قبل مجئ العصر العثمانى بنحو ثلاثة قرون . . . وبهذا عاد التصوف في مرحلته الأخيرة ، إلى ما كان عليه في مرحلته الأولى (١) ، ولستأ نريد أن ندرج هذا النوع من التصوف ، بل ينبغي أن نعزض لبيان ظاهراً كانت أكبر ما يميز التصوف في العصر العثمانى ، ذلك أن المتصوفة كانوا يقيمون جماعات تحت إدارة شيوخهم ، في معابد أطلقوا عليها اسم الزوايا ، طاعين كاسمين على نفقة المحسنين من الأثرياء والأمراء ، متجردين لعبادة الله منقطعون لذكره ، زاهدين في طلب الدنيا ، معرضين عن لذاتها ، قاندين في بعض الأحيان بادعاء هذا السلوك ، مهملين السعى في طلب القوت ، محتقرين العمل على اكتساب العلم والدين — وهذا التصوف الجمعى لم ينشأ في مصر قبل النصف الثانى من القرن السادس الهجرى . وقد سجل المقرئى تاريخ نشأته بعام ٥٦٩ للهجرة (٢) وذكر على باشا مبارك أنه نشأ بهذا المعنى ، في زمن صلاح الدين يوسف بن أيوب في سنة تسع وخمسين وستائة (٣) ورأى المقرئى أدنى إلى الصواب فيما نسبتم ، فإن صلاح الدين قد مات سنة تسع وثمانين وخمسمائة للهجرة (١١٩٣ م) . وقد عرفت مصر منذ هذا التاريخ ثلاثة أنواع من المعابد شاعت فيها أيام الأيوبيين وسلاطين المماليك ، وكانت نواة للزوايا التى حصل بها العصر العثمانى ،

(١) أنظر كتابنا : الثمراتى لإمام تصوف في مصره من ٢ — ٨ و ١٠٧ — ١٠٨ طبعة أولى ( سلسلة أعلام الإسلام )

(٢) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٧٢ .

(٣) على باشا مبارك : المخطوطات التوفيقية ج ١ ص ٩٠ .



ومعنى هذا أن التصوف الذى يبدو فى أصله ظاهرة نفسية فردية ، قد تحول فى مصر إلى ظاهرة اجتماعية ، وأصبح الصوفى الذى يعتكف فى عزلة عن الناس ، تستفرقه رياضاته ومجاهداته ، وتستوعبه مشاهداته ومكاشفاته ، ويحتويه العمل على تصفية نفسه وتجريدها من علائق الجسم ، قد تحول هذا الصوفى إلى رجل شديد الحرص على الاجتماع بمريديه وأتباعه ، والاتصال بسائر الناس - فقراء كانوا أو أغنياء ، ورعايا أو حكاما ، يتفاعل مع البيئة التى يعيش فيها ، يتأثر بها حيناً ويؤثر فيها أحياناً . كان التصوف ظاهرة فردية فتحول إلى ظاهرة اجتماعية . فاهذه المعابد التى استقر فيها هؤلاء الشيوخ مع المريدين والأتباع . ؟

### أنواع المعابد فى مصر :

هى الخوانق والربط والزوايا - ويؤكد الباحث أن يفضل سبيل الاهتمام إلى وجوه التفرقة بينها . قال على مبارك : إن الخانقاة كلمة فارسية معناها بيت العبادة ، وقد اندثر هذا الاسم بمرور الزمن وأطلق عليها اسم ، التكية ، والتكابا أما كن لإقامة الدراويش من الأعاجم<sup>(١)</sup> ، ولا يكاد يخرج هذا عما قاله المقرئ الذى يقرر أنها حدثت فى الإسلام فى حدود الأربعمائة للهجرة<sup>(٢)</sup> وجعلت ليختل الصوفية فيها لعبادة الله تعالى<sup>(٣)</sup> .

أما الربط فهى فيها يرى المقرئ وعلى مبارك دور أعدت لإقامة الصوفية ، وخصص بعضها للنساء المنقطعات أو المهجورات أو المطلقات أو العجائز الأرامل من العابدات ، وكان لها الجرايات والمقامات المشهورة من مجالس الوعظ - وقد انقطع ذلك منذ زمان مديد<sup>(٤)</sup> . وقد كان رباط البغدادية الذى

(١) المخطوط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ ، ٩٠ .

(٢) يروى نشأتها سنة ١٥٠ أو سنة ٢٠٠ .

(٣) مخطوط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٩ ، قطف الأزهار ١٨٤ .

(٤) المخطوط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ . ومخطوط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٢ - ٢٩٣ .

أبو السرور البكرى قطف الأزهار من المخطوط والآثار (مخطوط) ١٨٤ .

كان موفوفاً على النساء الحشرات بيتاً للصوفية من النساء ، وكانت شيختهن فقيهة وافرة العلم زاهدة قانعة باليسير عابدة واعظت حريصة على النفع والتذكير ، وكان النساء المقييات بهذا الرباط مقييات على وظائف العبادات حريصات على التفقه في شئون الدين<sup>(١)</sup> ولا تظن أن التصوف في هذا العصر كان يعدو هذه المظاهر الثلاثة : الفقه والزهد والعبادة .

أما الروايات فقد كانت تعد من قديم الزمان لإقامة بعض الصالحين للتمجد بين جدرانها ، ولم تكن تقام فيها الجمعة ، أول أمرها ، ثم تغير الحال وأقيمت الجمعة في أكثرها<sup>(٢)</sup> . وبشير المقرئ في حديثه عن الروايات إلى أنها كانت دوراً لعبادة الصالحين من الصوفية<sup>(٣)</sup> وفقراء العجم<sup>(٤)</sup> والخدام من الحبش والأتباء<sup>(٥)</sup> وغيرهم من أهل الصلاح والورع<sup>(٦)</sup> .

### الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا :

ومن دلائل الصعوبة في التفرقة بين هذه الأنواع من المعابد ، اشتراك الخوانق والربط في سبعة أمور وعدم انفراد أحد النوعين بخاصة تميزه عن النوع الآخر ، أما وجوه الشبه بينهما فهي :

- ( ١ ) أن الخوانق كالربط كانت بيوتاً يشيدها الأمراء والملوك والأثرياء ليقيم فيها أهل التصوف ليلاً ونهاراً متفرغين إلى عبادة الله<sup>(٧)</sup> .
- ( ٢ ) أنها كانت معاهد ثقافة يدرس فيها العلم الشائع يومذاك ، فكان

(١) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٢) المخطط التوفيقية ج ١ ص ٨٩ .

(٣) خطط المقرئ ج ٤ ص ٢٩٩ ، ٣٠١ ، ٣٠٢ .

(٤) ج ٤ ص ٣٠٠ ، ٣٠٢ .

(٥) ج ٤ ص ٣٠٠ (٦) ج ٤ ص ٢٠٣

(٧) اعتمدنا في تصوير الحياة في رحاب الخوانق والربط والزوايا في هذه الفترة على خطط المقرئ ( ج ٤ ) في الصفحات الآتية يانها مرتبة حسب ترتيب الخوانق في صلب الكلام :

في رباط الآثار مثلاً درس لفقهائ الشافعية يتولاه مدرس بطلية يعيشون لطلب العلم في هذا الرباط كما ضم بين جدرانهم خزانة كتب تعين على دراسة العلم<sup>(١)</sup>، وكان في الرباط العلائق قراء وعشرة من الفقهاء عليهم أن يحضروا يوماً في كل أسبوع<sup>(٢)</sup>، وقد أشرنا إلى دراسة الدين في رباط البغدادية المعد للنساء، وأما الخوانق فحسبنا أن نسوق المثال بثلاث منها: خانقاه شيخو التي رتبت فيها مدة من الزمان دروس منها أربعة اطوائف الأئمة الأربعة، ودرس للحديث النبوي وآخر لإقراء القرآن بالروايات السبع، وكان لكل درس مدرس يتولاه وطلبة اشترط فيهم ألا يتغيبوا عن حضوره وحضور وظيفة التصوف، وخانقاه الجينا المظفرى التي اشترط في قرائها أن يحضروا وظيفة التصوف، وكان بجانبها كتاب يقرأ فيه الأيتام من أطفال المسلمين كتاب الله ويتعلمون فيه الخط<sup>(٣)</sup>، وخانقاه ركن الدين ببرس وقد نظم فيها درس للحديث النبوي له مدرس يتولى تدريسه، وعندة عدة من المحدثين، وضمت قراءاً يتناوبون القراءة ليلاً ونهاراً حتى اكتفى أهلها بالعلم الذي توفر بين جدرانها، فحرموا على الفقهاء أن ينزلوا مساحتها<sup>(٤)</sup> . . .

(٢) إن الجمعة كانت لاتقام في أكثر هذه الخوانق والربط، روى المقرئ في حديثه عن خانقاه سعيد السعداء - وهي من أكبر الخوانق التي عرفتها مصر - أن الصوفية بها كانوا يتوجهون إلى الجامع الحاكم كل أسبوع لصلاة الجمعة في موكب جميل كان الناصر يقبلون لرؤيته من مصر إلى القاهرة يميناً بركة أهله<sup>(٥)</sup> وأن خانقاه سرياقوس التي انطوت على مائة خلوة لمائة صوفي كان بجانبها مسجد تقام فيه الجمعة<sup>(٦)</sup>، ولكن المقرئ يقول عن خانقاه البندقدارية إنها كانت خانقاه ومسجداً لله<sup>(٧)</sup>.

(٢) من ٢٨٣

(٢) من ٢٩٧

(١) من ٢٩٦

(٦) من ٢٨٥

(٥) من ٢٧٤

(٤) من ٢٧٦ - ٢٧٧

(٧) من ٢٨٣

وكذلك الحال في الربط ، لم يرد ذكر لإقامة الجمعة في غير اثنين منها ( مع أن عددها عند المقرئ قد بلغ السبعة عشر رباطاً ) وهما رباط الست كلية الذي كان رباطاً ومسجداً لله <sup>(١)</sup> ورباط الأزم الذي ضم صوفية وشيخاً وإماماً ومنيراً يخطب عليه للجمعة والعديد <sup>(٢)</sup> .

( ٤ ) أن نشئها كانوا يحبسون عليها الأوقاف ويحرون على أهلها الأرزاق ويجزئون لهم العطاء ، كان لصوفية سعيد السعداء في كل يوم طعام ولحم وخبز <sup>(٣)</sup> ، وكان في خانقاه ركن الدين يبرس أربعائة صوفي وفي الرباط المجاور له مائة من الجنيد وأبناء العجزة ، فكان فيها مطبخ يوزع منه على المجاورين اللحم والطعام وثلاثة أرغفة من خبز البر ، وتفرق الحلوى على كل فقير من فقرائها ، وإن كان هذا المقرر يتناسب مع حال النبل ورخاء العيش في مصر <sup>(٤)</sup> وكان هذا هو الحال في خانقاه بشتك <sup>(٥)</sup> ، ورتب للطباة في خانقاه شيخوخة طعام ولحم وخبز في كل يوم وحلوى وزيت وصابون في كل شهر وكان لها أوقاف جليلة <sup>(٦)</sup> ، وكان لفقراء خانقاه سم ياقوص ثمن كسوة كل سنة وتوسعة في كل رمضان والعديد والمواسم ، فوق ما كان لهم من طعام شهى وخبز نقي ، وما كان يوزع عليهم من الحلوى وزيت الزيتون والصابون وثمن الفواكه عند ظهورها ، وفوق ما كانت تضم الخانقاه من السكر وألوان الشراب وأنواع الأدوية <sup>(٧)</sup> وهكذا نرى الأرزاق والمعالي والأوقاف في خوافق بكتمر <sup>(٨)</sup> وقوصون <sup>(٩)</sup> وأم أتوك <sup>(١٠)</sup> والخروية وطبرس <sup>(١١)</sup> .

وكذلك الحال في الربط وإن كانت الأوقاف التي حبست عليها والمعالي التي كانت توزع على سكانها والأرزاق التي كانت تصيب أهلها ، أقل بكثير

---

(١) من ٢٩٤	(٢) من ٢٩٧	
(٣) من ٢٨٣	(٤) من ٢٧٦ — ٢٧٧	(٥) من ٢٧٩
(٦) من ٢٨٣	(٧) من ٢٨٥ — ٢٨٦	(٨) من ٢٩٧
(٩) من ٢٨٩	(١٠) من ٢٩٠	(١١) من ٢٩٢

عنها في الخوانق — كما نرى في رباط الآثار ورباط الأقرم<sup>(١)</sup> والرباط العلائق<sup>(٢)</sup>. وأكثر الربط لم يذكر شيء بشأن أرزاقه وأوقافه.

(٥) ولما كان الغرض من هذه الأرزاق والأجاس تهيئة الجو الصالح لتفرغ المجاردين لعبادة الله ، فقد زودت بعض الخوانق والربط بالخدمات والمطابخ والمدافن ، ومدت بالفرش وآلات النحاس والكتب والقناديل من النحاس المسكفت أو الزجاج المذهب وغير ذلك من الأمتعة والنفائس التي لا ترى في غير قصور الملوك والأثرياء كما نرى في خانقاه بكتسر وطغاي النجفي والرباط العلائق<sup>(٣)</sup> وإن لم يتوفر هذا التعميم في الكثير من الخوانق والربط

(٦) والظاهر أن بعض الخوانق قد ضم نساء ، فقد نص المقرئ على أن خانقاه سرياقوس كان بها حمام للرجال وآخر للنساء ، وأما في الربط فقد عرفنا أن النساء كان لهن رباط خاص بهن هو رباط البغدادية .

(٧) كان بأكثر الخوانق والربط قراء وأئمة ومؤذنون وبوابون ... فوق من ضمت من فقراء وشيوخ<sup>(٤)</sup>.

أما الروايات فنراجع أنها كانت في عصرى الأيوبيين وسلطين المماليك صغيرة الحجم قليلة الخطر ، يقيم فيها نفر ضئيل من العباد قد يبلغ العشرة كما نرى في زاوية الحصى<sup>(٥)</sup> وقد تكون مكانا يتعبد فيه رجل واحد كما يتضح من كلام المقرئ عن ميرس إذ يقول إنه بنى للشيخ خضر زاوية في جبل المزنة وأخرى بظاهر بعلبك وثلاثة بحماه ورابعة بحمص وخامسة خارج القاهرة<sup>(٦)</sup> وأوضح من هذا قوله إن الأمير سيف الدين طغاي قد عمر زاوية

(١) من ٢٩٥ — ٢٩٧ (٢) من ٢٨٧

(٣) من ٢٨٩ — ٢٩٠ و ٢٩٧ و ٢٨٦ .

(٤) من ٢٧٧ ، ٢٨٢ — ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٢٨٩ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣٠٢ وغيرها

من الصلحات .

(٥) من ٢٩٨

(٦) من ٣٠٣

ابراهيم الصائغ وأنزل فيها فقيراً عجباً من فقراء الشيخ تقي الدين<sup>(١)</sup> وقوله في زاوية أبي السعود إن الشيخ أيوب السعدي قد انقطع بها وتبرك الناس به... ولعل هذا الظن غير بعيد الاحتمال، فإن الزاوية كان يراد بها في العالم الإسلامي المكان الذي يختل في العابد، قال ابن العربي: من شرط الشيخ أن تكون له زاوية تخصه لا يمكن أحداً من أولاده من دخولها إلا من كان خصيصاً عنده، وزاوية تخصه ينفرد بها وزاوية لاجتماعه بأصحابه، ومن شرطه أن يجعل لكل مرید زاوية تخصه ينفرد بها وحده، ولا يدخل فيها أحد غيره أبداً، ويتبع للشيخ إذا قصد المرید في زاويته أي خلوته أن يدخلها الشيخ قبله و...<sup>(٢)</sup>.

وقال السهروردي إن الصوفية قد آثروا الاجتماع على العزلة لقوة عملهم وصحة حالهم فرأوا الاجتماع في بيوت الجماعة على السجادة فسجادة كل واحد زاويته<sup>(٣)</sup>.

والظاهر أن الزوايا في هذين العصرين (الأيوبيين والمماليك) كانت لا تعنى بدراسة العلم (أي الدين) ولم يقيم بها نساء ولم تجر العادة بأن تقام فيها جمعة، وقد أدت بساطتها وصغر حجمها وقلة مجاوريها إلى ضآلة الأجاس والأرزاق، وأغناها هذا عن وجود المطابخ والطواحين والحمامات والمدافن بها كما كان الحال في الربط والخوانق.

نشأة التصوف في مصر وتطوره من مطلع العصر الفاطمي :

والآن نعود إلى ما بدأنا الكلام فيه، متى نشأ التصوف في مصر بهذا المعنى ؟ ثم كيف تطور حتى صار إلى ما كان عليه أيام العثمانيين ؟ قال المقرئ عند الكلام على خائفاه سعيد السعداء... لما استبد الناصر

(١) ص ٣٠٢ .

(٢) محمد السيادي : البهجة السنية في آداب الطريقة العلية النفشندية ص ٣٦ .

(٣) عوارف المعارف ص ٦١ (على هامش الإحياء ج ٢) .

صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي بملك مصر بعد موت الخليفة العاضد وغير رسوم الدولة الفاطمية ووضع من قصر الخلافة وأسكن فيه أسرا دولة الأكراد، عمل هذه الدار (سعيد السعداء) برسم الفقراء الصوفية الواردين من البلاد الشامية ووقعها عليهم في سنة تسع وستين وخمسة . . فكانت أول خانقاه عملت بديار مصر وعرفت بدورية الصوفية . .<sup>(١)</sup> وقد أشرنا من قبل إلى خطأ علي مبارك في تحديد هذا التاريخ .

ثم نشأت بعد ذلك خانق ورط وزوايا أخرى عاش في أكثرها مولا المتصوفة . . وقل من هذه المعابد بأنواعها الثلاثة ما لم يثأ بين النصف الثاني من القرن السابع والنصف الأول من القرن الثامن للهجرة . . والظاهر أنها بدأت تتلاشى في أواخر هذا القرن عندما دب الضعف . . حكم سلاطين المماليك البحرية ، خصوصاً إذا لاحظنا انحطاط النيل سنة ٧٧٦ ثم سنة ٧٩٦ . . وأمر ذلك في بعض الخوانق كخانقاه ركن الدين . . يرمس<sup>(٢)</sup> ويسجل المقرئ في سنة ست وثمانمائة للهجرة بداية لتاريخ المحن التي أصابت شتى مرافق الحياة في مصر ، وهو العام الذي انتهت فيه دولة المماليك البحرية وتولت دولة المماليك الشراكسة . . فنجد هذا التاريخ أخذ يتلاشى الكثير من الخوانق والربط والزوايا ، فمن ذلك خانقاه شيخو التي أخذت أحوالها في التناقص بعد هذا التاريخ ، حتى صار المعلوم بتأخر صرفه لأرباب الوظائف فيها عدة أشهر<sup>(٣)</sup> وكذلك نقول في خانقاه بكنمر التي بطل الطعام والحطب فيها بعد هذا التاريخ ، وانتقل سكانها إلى القاهرة وامتد التخريب إلى حمامها وبستانها وصار يصرف لأرباب وظائفها مبلغ ضئيل من المال ، وأقام بها حارس يتولى حراستها وتمزق ما كان فيها من الفرش والكتب وضاعت آلات النحاس والقناديل . .

(١) خطاط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٣ ، قطف الأزهار ص ٢٨٤ .

(٢) خطاط المقرئ ج ٤ ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ .

(٣) خطاط المقرئ ج ٤ ص ٢٨٣ .



وغير ذلك مما أسلفنا الإشارة إليه<sup>(١)</sup> وذلك ما أصاب خانقاه قوصون  
وخانقاه سرياقوس<sup>(٢)</sup>.

ونقول مثل هذا في بعض الربط ، فرباط الآثار قد قلّ تردد الناس إليه  
بعد تاريخ المحن ورباط البغدادية ثلاثت أموره بعد هذا التاريخ<sup>(٣)</sup> ويقال  
مثل هذا في زوايا الظاهري والطرطرية والمغربيل<sup>(٤)</sup>.

ومما يشهد بصحة هذا الفرض الذي رجحناه وقوعه ، أن مصر لم ينشأ فيها  
بعد هذا التاريخ من الخوانق والربط والزوايا التي ذكرها المقرئ سوى  
خانقاه الخروية التي أنشأها السلطان المؤيد سنة ٨٢٣ للهجرة ، وثوى فيها  
عشرة من الفقراء<sup>(٥)</sup> ، ولهذا كله دلالة ومغزاه .

وما حانت نهاية القرن التاسع واقتربت بداية العاشر حتى كان هذا  
النصوف انجلى قدشاع وانتشر ، اعتنقه العوام والدجالون واتخذوه وسيلة للعيش  
وأداة لتضليل الناس وخداعهم ، وكانت الأسباب التي مهدت لذلك قريبة الشبه  
ببعض الأسباب التي منبسطها في الباب الثاني لنشرح بها انتشار التصوف في  
العصر العثماني ، لأن حكم السلاطين عندما دب فيه الفساد وأدركه الاضمحلال  
( في أواخر أيامه ) كان قريب الشبه بحكم العثمانيين في مصر ، والنتائج  
التي ترتبت على هذا الفساد في الحالين تو شك أن تكون واحدة فيما يتصل  
بالتصوف .

وقد استجالت الخوانق إلى تكايا يقيم فيها دراويش الاعاجم - كما أشرنا  
من قبل - لم تطور الحال بالتكايا حتى أصبحت أخيراً ملاجئ لإيواء  
المرضى ومن قعدت بهم الشيخوخة عن اكتساب القوت ... بقيت الربط  
والزوايا ، فأما الأولى فيظهر أنها لبثت قائمة في مصر حتى نهاية عصر السلاطين .

(١) خطب المقرئ - ١ من ٢٧٧ .

(٢) من ٢٨٩ و ٢٨٦ . (٣) من ٢٩٥ - ٢٩٦ و ٢٩٤ .

(٤) من ٢٩٩ و ٣٠١ . (٥) من ٢٩٢ .

فالنارى يقول إن رباط بركات الخياط قائم في الدرب الأحمر<sup>(١)</sup>. وبركات هذا قد توفي في العام الذي دخل فيه العثمانيون مصر ( ١٥١٣ هـ )<sup>(٢)</sup> . ولكننا لانعثر على اسم الروابط في مثل هذا الوقت إلا لماماً ، مما يرجح الظن عندنا بأن اسمها قد أخذ بثلاثي في فترة الاضمحلال التي سبقت العصر العثماني .

أما الزوايا فلا يبعد أن يكون الكثير منها قد ظل قائماً لأنها أقدر على البقاء في مثل هذه الظروف من الربط والخواتق ، إذ أنها صغيرة لا تحتاج إلى مال طائل ، ولا يبعد كذلك أن يكون اسم الزوايا قد أطلق على كثير من الربط لأن الرباط في أصله لا يكاد يختلف عن الزاوية التي عرفت في العصر العثماني ، قال السهروردي والمقريزي إن المقيم في الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد<sup>(٣)</sup> وشرائط سكان الرباط قطع المعاملة مع الخلق وفتح المعاملة مع الحق ، وترك الاكتساب اكتفاء بكفالة مسبب الأسباب ، وحبس النفس عن المخالطات واجتناب التبعات ، ومواصلة الليل والنهار بالعبادة متعرضاً بها عن كل عادة ، والاشتغال بحفظ الأوقات وملازمة الأوراد وانتظار الصلوات واجتناب الغفلات<sup>(٤)</sup> . ولعل هذا أظهر ما في دعوة المتصوفة الذين عاشوا في العصر العثماني كما سنعرف بعد — وترجع تحول الربط إلى زوايا غير بعيد ، فقد بلغ من أمر التشابه بينهما أن اختلط الحال على مؤرخ حديث عهد بها ، فلم يستطع أن يميز بين الربط والزوايا<sup>(٥)</sup> . ومثل هذا يمكن أن يقال في بعض الخواتق ، فكثيراً ما يصادفنا في مصادرنا النص على أن زاوية . . ( المهمندار مثلاً ) كانت في الأصل خانقاه ثم تحولت إلى زاوية . . . ولما قُسمت الدروشة في العصر العثماني ، واقتن بها الناس ، علا

(١) المخطوط التوفيقية ج ٢ ص ٧ .

(٢) الشرائع : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٣) عوارق المعارف ص ٥٤ ، خطط المقريزي ج ٤ ص ٢٩٢ .

(٤) عوارق المعارف ص ٥٧ — ٥٨ ، خطط المقريزي ج ٤ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

(٥) هو صاحب المخطوط التوفيقية ( أظهر ج ١ ص ٨٩ ) .

شأن الزوايا، فانتسح نطاقها وكثر المجاورون بها حتى بلغ عديدهم المئات . ولانت حياتهم حتى أصبحت رفاهية عيشهم في رحابها ماثراً فستان الناس بها<sup>(١)</sup>. ولئن كان التصوف في مصر قد أخذ في الاضمحلال منذ أوائل القرن التاسع الهجري ( أو قبل ذلك بقليل ) فإن من الراجح أن يكون قد عظم خطره وتمشى الفساد في أوصاله . ونهياً لأهله سلطان واسع النطاق محدود الرحاب في أواخر هذا القرن وبداية القرن العاشر ، عند اضمحلال دولة السلاطين وبداية عصر العثمانيين ، لأسباب سنعرض لها بعد ، ولا بأس من أن نبسط في إيجار شيتا عن نفوذ الصوفية في هذه الفترة — أى قبل مطلع العصر العثماني في مصر .

#### نفوذ المتصوفة قبيل العصر العثماني :

لعل ما أسلفناه يبرر القول بأن التصوف في مصر كان في مجته — إلى هذا العهد — مقترناً بمعرفة الدين والعمل بأوامره ونواهيه ، واتصف أهله بالصلاح والورع وسعة العلم يشنون الدين ، وكانت لهم مكانة ممتازة يفضل انقطاعهم لعبادة الله ويحرمهم لذكره ، وبفضل هذا آمن الناس بهم واعتقد الكثيرون في كراماتهم وأحسن بعض الحكام الظن بولايتهم ، وكان الاعوجاج في سلوكهم أو التفاهت على طلب الدنيا عندهم يصادف عند جمهرة الناس استنكاراً واستياء ، ولكن الحال قد تطور في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر الهجري ، فانساق التصوف تحت تأثير الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية إلى التدهور والاضمحلال ، ودخله العوام واعتقه الوصوليون والأدعياء ، وظهر في كبار رجاله الجبهة الأميون حتى تلبذ الشعرائى — وهو عملاق عصره — على سبعين شيخاً لا يعرف أحدهم علم النحو .<sup>(٢)</sup> بل كان

(١) أنظر وصف الزوايا وبيان العيش الرقييد فيها وموازنة هذا بحياة الفئك عند الفلاحين والتجار ومن إليهم خارجياً في كتابنا : الشعرائى إمام التصوف في عصره ص ١١١ .

— ١٤ و ٢٦ — ٢٦ .

(٢) الشعرائى : البحر المورود ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

بعضهم أميين لا يقرؤون ولا يكتبون . . . ولم يستعينوا بدراسة العلوم الشائعة في عصرهم وحدها ، بل أهمل بعضهم التمسك بأعظم مظاهر التصوف خطراً وهو الزهد ، فتهاقت هؤلاء البعض على الدنيا وتسابقوا إلى الظفر منها بأوفى نصيب ، وأهملوا القيام بفروض الدين ، وتوخوا التمرد على أوامره ، وثاروا على أبسط نواحيه على ملأ من الناس . واطمأنوا بعد هذا إلى سمعتهم عند الشعب — حكاهم وعلانيته على السواء . ١ .

وكان كبار منصوفة هذا العهد لا يقيمون الصلاة أبداً . . . مدعين أنهم يقومون بأدائها في الأماكن المقدسة . . . وكان في طليعة هؤلاء عبيد القادر الدشظوطي وإبراهيم المتبولي وعلى الخواص<sup>(١)</sup> وغيرهم من أصحاب الضرائب والمزارات ممن يوليهم العامة في مصر أبلغ آيات التقدير وأسمى مظاهر التقدير . وقد بلغ من نفوذ هؤلاء أن كانوا آثر عند الحكام وطبقات الشعب من كبار الفقهاء والعلماء المعاصرين ، فقد روى المؤرخون أن العثمانيين عندما ملكوا الشام وهموا بالزحف على مصر كان الأمراء المصريون قد تحففوا موت السلطان الغوري فاختاروا من بينهم طومان باي ، ليخلفه في السلطنة . فامتنع امتناعاً شديداً لأن خزان بيت المسلمين كانت خاوية ولا ينتظر أن يمثل الأمراء رأيه في مقاتلة العثمانيين . فذهب إلى أبي السعود الجارحي واستعانوا به فأحضر مصحفاً وطلب إلى الأمراء مجتمعين أن يقسموا عليه بطاعة طومان باي ، ففعلوا جميعاً بهذا تولى السلطنة طومان باي<sup>(٢)</sup> . ولهذا الحادث دلالة من حيث إظهار الجارحي على شيخ الإسلام ومفتي الديار وفقهاء المذاهب وسائر العلماء . . . وكثيراً ما كانت الشكاوى ترفع إليه في هذا العهد وكان الأمراء يقفون بين يديه فلا يأذن لهم

(١) الدرراني: الميوافيت والجواهر ص ١٢٥ و ١٦٠ درو القواس ص ٥٥ — ٥٦ ، الطيحات السكيري ج ٢ ص ١٢٥ وفيها أن الدشظوطي سافر للحج ولسكنه لم يدخل الحرم . . .  
(٢) ابن أبياس ج ٣ ص ٦٩ .

بالجلوس ، وقد حملوا الطوب والتراب في بناء زاويته (١) . . .

وقد ضاق السلطان النورى بشمس الدين الديروطنى ٩٢١ هـ لأنه يتهمه بالتقصير في شأن الجهاد ، وتسامع الديروطنى بذلك فمضى إليه حتى إذا حياه ، استقبل السلطان تحيته بالصمت . فقال الشيخ إن لم ترد السلام فسقت وعزئت فقال السلطان وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته . ثم قال علام تحط علينا بين الناس في ترك الجهاد ، وليس لنا مراكب نجاهد فيها ، فقال الشيخ عندك المال الذى تملوها به . ثم طال بينهما الجدل فقال الشيخ للسلطان قد نسبت نهم الله عليك وقاباتها بالعصيان ، أما تذكر حين كنت نصرانيا ثم أسروك وباعوك من يد إلى يد ، ثم من الله عليك بالحرية والإسلام . ورفاك إلى أن صرت سلطانا على الخلق ، عما قريب يصيبك المرض الذى لا ينجع منه طب ، ثم تموت وتكفن ويحفرون لك قبرا مظلما ثم يدسون أنفك هذا في التراب . ثم تبعث عاريا عطشانا جائعا ثم تقف بين يدي الحكم العدل الذى لا يظلم مثقال ذرة ، ثم ينادى المادى من كان له حق أو مظلة على النورى قليحضرة ، فيحضر خلائق لا يعلم حصرها إلى الله . . .

وأرسل السلطان في طلب الشيخ يرضاه ويتألف قلبه ويستميله بالمال والشيخ يمرض عن ماله ويحقر من شأنه ، فارقى أعز من الشيخ ولا أذل من السلطان في ذلك المجلس (٢) .

ومثل هذا يقال في موقف شمس الدين الحنفى ٨٤٧ هـ مع السلطان فرج ابن برقوق (٣) . ومع غيره من الملوك والأمراء (٤) وهذا شبيه بما كان يقع لغيره من رجال الطريق مع هؤلاء الأكاير . . .

(١) مناقب العلماء والصوفية ٢٠٦ (مخطوط شمراوى) والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٣ . الكواكب الدرية ص ٤٧٨ .

(٢) الشمراوى : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٥٧ .

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٦ ، بيت الصديق ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٢ ، بيت الصديق ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

فلتصور ما كان هؤلاء القوم من نفوذ على الأنبياء والمرئدين بعد أن  
 نبأ لهم هذا السلطان كله عند حكام البلاد من سلاطين وأمرأه - وكم ألف  
 خضعوا لكل ولي من هؤلاء واستكانوا له وآمنوا بدجلته، واستسلموا لسلطانه  
 واستحالوا أداة في يده . يعوزها العقل وينقصها الحس ... كان الشيخ على  
 وحيش ٩١٧٠ كل ما رأى رجلا يركب حمارة ، أزاله من فوقها ، وقال له امسك  
 رأسها حتى أفعل فيها الفاحشة ... ! فان أي الرجل تسمر في مكانه لا يستطيع  
 حراكا - أو هكذا خبل إليه من فرط اعتقاده في ولاية الشيخ ... وان استجاب  
 لطلبه أدركه الحياء من سوء ما يفعل الشيخ على قارة الطريق ... (١) بل لقد  
 سخر الشيوخ أتباعهم حتى في الانتقام ممن يتدنسهم ويتعرض بالنقد لنصراتهم  
 فيطابق عليه أتباعهم يومسونه ضربا ويشخونه طعنا ويردونه إلى السكرت عن  
 تقديم كارها . كان السيوطي شيخ خاتناه سعيد السعداء ، فرأى أهلها يتممون  
 في أوقافها ولا يهتمون بتكاليفها ، فوق أنهم غير معوزين ، لأنهم يقتنون البغال  
 والسوارى ويحرمون الأموال ، فقال لهم إن شرط الأوقف ألا يمنح خبز  
 الخاتناه وجامكتنا لغير الفقراء المحتاجين الذين توفرت فيهم شروط الصوفية  
 المذكورة في رسالة القشيري وغيرها ، فثاروا عليه وأوسعوه ضربا وألقوه  
 في الميضاة بئابه وفاخر بعضهم بأنه ضربه ، بالقيطاب ، على كتفيه ... (٢)

وذلك فوق ما كان لهم من نفوذ روحى عند العلماء ، وقد كان بركات الحياط  
 ٩٢٣ هـ موفور الثقة عند علماء الأزهر وحكام البلاد معا . وقد طلب إليه مفتى  
 الجامع مع فئة من العلماء أن يصحبهم إلى صلاة الجمعة ، فاعتذر بأنه لم يتعود  
 إقامتها . ثم استجاب لالحاقهم وتحرى أن يظهر بجماعة نجس ، فلما ضاقوا به  
 انهمال عليهم سبا وطعنا ... ، وضاق به الوالى مرة فضربه بعصاه ، فغضب الشيخ  
 لهذا وأقام ببابه وهو يقول : والله يا زربون ما أفارق هذه العتبة حتى أعزلك ...

(١) الطليقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٢) الشمراني : المهود المحمدية ١٨٠ - ١٨١ .

وتقول الرواية وسرعان ما أقبل الفرمان من قبل السلطان يحمل نبأ عزله. <sup>(١)</sup> واستطارت شهرته من جراء هذا المول الذي كان وقوعه في مثل هذا العصر القلق المضطرب أمراً طبيعياً مألوفاً ..

ومثل هذا يقال في موت علماء الأزهر على إبراهيم المواهي المتوفي سنة نيف وعشرين وتسعمائة ، لأنه كان يقرر قوله تعالى « وهو معكم أينما كنتم » بحجة أنه يتحدث في الماهية .. ولما أقبل على مجلسهم أحد آخر أنه في الطريق ، محمد المغربي ، أمسكوا عن الكلام عند ما رأوه . فقال لهم : تكلموا حتى أنكم معكم ، فلم يجرؤ أحد منهم على الكلام .. فقال لهم : نحن أحق بتنزيه الحق منكم معاشر الفقهاء ، ومن طلب أيضاً ذلك فليقدم إلى أنكم معه ، فسكتوا جميعاً .. فأخذ بيد إبراهيم ومضيا فلم يتبعهما أحد من العلماء .. ثم عادوا فلحقوا بالمغربي وأخذوا يترضونه . وهو ينهرهم غاضباً قائلاً لهم إن الطريق ليست مجرد كلام كطريقكم ، إنما هي طريق ذوق فمن أراد منكم الذوق فليأت أخيه وأجوعه حتى أقطع قلبه ، وأرقبه حتى يذوق . وإلا فليكيف عن هذه الطائفة فان لحومهم سم قاتل <sup>(٢)</sup> وفي ذلك ما يشير إلى مدى نجاحهم في النزاع الذي كان يقوم بينهم وبين الفقهاء .

أشرفت مصر على العصر العثماني وهي على هذه الحال ، فإذا كان أمر المتصوفة فيها إبانته .. ؟ ذلك ما نعرفه في الفصل التالي :

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٥ .

(٢) المصدر السالف ج ٢ ص ١٠١ .



## الفصل الثاني

### أظهر معالم الطريق في مصر إبان العصر العثماني

انصال العصريين : المملوكي والعثماني — حقيقة التصوف في هذا العصر  
مواقب انصرافه من دراسة تعلم ( الدين ) — موقفهم من العمل  
مبلغ إخلاصهم في دعاوهم — وسائل اكتساب الشبهة — وصف  
الزوايا — احصائية بأهم الزوايا — المبادئ في رحاب الزوايا — الذكر  
مستند في ذكر الله — قيمة الذكر في عرفهم — طريقة الذكر  
آداب الذكر — الخلوة — التزامات الخلوة — ثمرات الخلوة —  
آية الخلوة الصادقة — أركان الطريق — التوفيق المذكر — ادخال  
الخلوة — الرضاء العبدية — اليأس المرفقة .

• • •

#### تمهيد : انصال العصريين

يكاد يتعقد الإجماع بين المؤرخين على أن المالك كانوا على عكس العثمانيين  
إذا وفدوا إلى مصر وتأقلموا ، واستعاروا من أهلها ما كان لهم من عادات  
وتقاليد ونحوها ، مما أدى إلى وجود الفوارق البينة بين حكمهم وحكم العثمانيين  
ويرى المخضرمون من أهل التصوف أن بين هذين العصرين هوة سحيقة القرار  
فالتصوف في العصر المملوكي يتسم بالصدق في عبادة الله والتجرد لذكره والزهد  
في طلب الدنيا والإعراض عن مباهجها ، أما نصوف العصر العثماني فإنه يتصف  
بالدجل والخداع والشعوذة ، ويكاد شيخ هؤلاء الكتاب المخضرمين — وهو  
الشعراني ٩٩٨ — ٩٧٣ هـ — أن يحدد الساعة بل الدقيقة التي انحل فيها الطريق  
ودب فيه الفساد وأعوزه الصدق والإخلاص ، وقد بدا ذلك في رأيه عندما

مات أستاذه ( المرحوم ) ٩٣١ هـ <sup>(١)</sup> بقية الخلف الصالح من أهل العصر المملوكي - وإن كان قد عاد - على عادته من مناقضة نفسه إلى تحديد هذا التاريخ بموت أبي العباس الحارثي ١٩٤٥ هـ مرة وبموت طائفة من المتصوفة الصادقين من أهل القرن العاشر مرة أخرى .

والرأى عندنا أن التصوف في حكم العثمانيين ، كان امتدادا للتصوف الذي عرف في أواخر عصر السلاطين وإن اختلفت تياراته في المهدين قوة وضعفا ومردا الخطأ في حكم الثمراني ومن جرى مجراه ، إلى أن طبيعة الزهد من شأنها أن تجعل أهلها على احتقار الحياة والانصراف عن مناعها والنظر إلى مباحها بمنظار أسود . ومن شأن هذا كله أن يؤدي بصاحبه إلى تقديس الماضي على حساب الحاضر - أما غير الزهدة من الكتاب المخضرمين الذين ذهبوا إلى هذا الرأي فقد كانوا يعيشون في جو يعمل على التبرم بالحاضر ويدفع إلى الحنين للماضي وبهذا زعم هؤلاء الكتاب أن بين التصوف في حاضرم والتصوف في ماضيم فرقا جوهريا كما قلنا من قبل ، فإذا أردنا أن نتق الزلل ونأمن وجه الشطط في أحكامنا ، وجب أن نكتفي بأخذ البيانات ومعرفة الحوادث من كتب هؤلاء الكتاب دون أن نعمل على أحكامهم عليها كثيرا ولا قليلا ، فإذا التزمنا هذا المذهب في دراستنا عرفنا أن تصوف العصر المملوكي لا يختلف عن العصر العثماني في نوعه وأن ظهر فارق قليل الخطر في قوة التيار أو ضعفه ، ولا بأس من أن نسوق شاهدا واحدا ندلل به على منشأ الخطأ عند هؤلاء الكتاب المخضرمين :

يمرضون إلى المتصوفة الذين تحرروا من أوامر الدين ونواهيه في العصرين ، فيقولون في عصر المماليك إن الخواص والمتبولى والدشروطى كانوا لا يقيمون الصلاة أبدا وأن غيرهم كان يفعل الفاحشة على

(١) كما ورد في تكميل النور السافر ص ٢٩٦ وذكر الثمراني وفاته في عام ليف وثلاثين وثمانمائة ( الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٣ )

ملا من الناس .. ثم يقولون في عصر العثمانيين إن فرق الأحمدية والبرهانية والقادرية وما إليها كانت لا تلتزم أوامر الدين ونواحيه ، قهمل الصلاة وترتكب الفاحشة .. الخ فتصوير موقف الفريقين من الدين في العصرين يوشك أن يكون واحداً ، فإذا تركنا رواية هذه الظاهرة إلى الحكم عليها عند هؤلاء الكتاب ، لاحظنا أنهم يقولون إن متصوفة العصر المملوك كانوا يقومون بالصلاة في خفاء عن الناس في الأماكن المقدسة البعيدة ، وأن طلي الأرض في لمح البصر كان جزءاً من كراماتهم وأنهم كانوا يوهمون الناس بأنهم يرتكبون الفاحشة دون أن يقدموا على فعلها .. إيان عرضوا للحكم على فرق العصر العثماني وسموها بالدجل والشعوذة ، وقالوا إن طريق الله لا يبيح لأهله الخروج على كتابه والتمرد على سنة رسوله .. وهذا كانت طريقتهم في التأويل منشأ الخطأ في أحكامهم . ومثل هذا يقال في تأويل الخلاف في أحكامهم مع الاتفاق في موضوعها

### مفيدة التصوف في العصر العثماني :

كان التصوف في العصر العثماني لا يكاد يمدو الأغراض العملية التي أدت إلى وجوده ، وهي المكوف على العبادة والانقطاع إلى الله والتجرد لذكره ، والزهد في طلب الدنيا ومجاهدة النفس ورياضتها ونحو هذا مما أشرنا إليه من قبل ، فهو سلوك عملي لا نظري عقلي ، وقبلنا كان هذا السلوك ينتهي بحال من أحوال الجذب والمحو والسكر والفناء ونحوه مما تحرى الكلام فيها أهل التصوف من قبل ، ومن هنا كان الطريق في هذا العصر أقرب إلى الدروشة منه إلى التصوف الصحيح ، لأن التصوف نزعة فلسفية والدروشة أساليب خاصة في الذكر والعبادة ، ولم يكن روح العصر الذي عاشوا فيه ليلائم وجود مفكرين يحسنون النظر ويحميدون الفهم بالخدم والفنوق ، وقد كان عصراً تستعبده الجهالة ويسيطر الاضمحلال على شتى نواحي الحياة فيه ، ولئن كانت عصور

الاضمحلال عند الشعوب لا تخلو من أفذاذ يسبقون زمانهم ، فإن متصوفة العصر العثماني قد وضعوا آداباً ألزموا بها كل من سلك على يدهم ، وكان بعضها يقضى بمحبة الجهل وعدم التعلم على يد مدرس أو كتاب وتجنب التفكير فيما يعرض له من ظواهر أو يساور رأسه من خواطر وآراء ، فقصوا بذلك على الحياة العلمية عند أهل الطريق وقتلوا حيوية التفكير في أذهانهم ، وادعوا بأن الزهد في طلب الدنيا والاستهانة بملاذها والإعراض عن شهواتها ، إذا صحبه الانقطاع للعبادة والتجرد للذكر والتهجد والعمل بما يرضى الله ، تكفل بأن يسلم صاحبه إلى حضرته ، ومتى اتصل الفقير بربه ، أخذ عنه العلم والحكمة والدين والثراء وكافة ما يشاء من مطالب الدنيا رأساً من غير وساطة ، واستمد منه — تعالى — القوة التي ترعاه عن كافة البشر وتجعل في مقدوره إتيان الخوارق والكرامات ، ولما كان ادعاء هذا النوع من التصوف أمراً ميسوراً لكل إنسان . وكان روح العصر يكفل لمدعى التدين والتصوف وأفراد الاحترام وبالغ التقدير ويقبل بفضل ما انتشر فيه من مدقع الجهل كل مظاهر الدجل والسعودة ، فقد كثر مدعوا الطريق في هذا العصر ، وتهاى لهم سلطان واسع النطاق ، وتغلغل نفوذهم في شتى الطيفات ومختلف الهيئات ، وأضحى لهم من المريدين والأتباع كثرة يستعبدونها سلطان الشيوخ استعباداً فادحاً وكلهم يدعون القدرة على فعل الكرامات وإتيان خوارق العادات ، والناس يستسلمون لهذه الظواهر سراعاً ، ويقبلون على أهلها خفافاً ، فإن عاجلوا تعليلها اشتغلوا في أمرها ، وعزوها إلى قدرة مستعدة من قوة الله في سمائه وقد كان إيمان الحكام الأنبياء بهؤلاء الدجالين يحملهم على مساعدتهم بالمال الذي يكفل لهم العيش المترف ، ويحيطهم بالعطف الذي يهيئ لهم أسباب الاطمئنان في الحياة الدنيا ، ووجد هؤلاء الأدعياء أن مذاجة الناس قد اغنتهم عن التزود بدراسة العلوم والتبحر في شئون الدين والسعي لاكتساب القوت وتحمل المشاق في ميادين العمل ، بل اغنتهم عن التزام الصدق في عبادة الله والزهد

في طلب الدنيا (١)

وبهذا كاد الدجل أن يطمس آية التصوف الصادق وبطفيه نوره . .

وقد كان من أظهر مميزات التصوف في هذا العصر ، تحوله من ظاهرة وجدانية فردية إلى ظاهرة اجتماعية تمثل في حياة أتباعه في رحاب الزوايا تحت إرشاد شيوخهم ممن مكنتهم شخصيتهم من اجتذاب المريدين ، ويسرت لهم ثقة المحسنين من الأمراء والأثرياء ، الذين تسكفوا بكل ما تتطلبه حياة هؤلاء المجاورين المنقطعين لعبادة الله في زواياهم . إذ كانوا يعيشون مع زوجانهم من فيض الأوقاف التي تحبس عليهم والأرزاق التي تجري من أجلهم ، وكانت هذه العطايا من الكثرة بحيث أحالت زهدهم رخاء وتقشفهم زفا ، وأبدت حياة الشعب — من الفلاحين والتجار — حرمانا بالقياس إلى الذميمة الذي عاش فيه هؤلاء المجاورون . وقد ملأوا حياتهم بذكر الله وواصلوا عبادته أفرادا وجماعات ليلا ونهارا وشغلوا وقتهم بالتهجد وقراءة الأوراد وتلاوة القرآن وإقامة الصلاة ونحوها من شعائر الدين — وإن كثرت بينهم من كان يعمره الأخلاص في مزاوله هذه العبادات . والكثير من هذه الزوايا كان حريصا على طلب العلم بقواعد التصوف وعقائد الدين في أمهات الكتب المعروفة (٢)

أما اتجاهات هذا التصوف ومذاهب أهله في مجال الحياة العلمية والعقلية والعملية والخلقية والسياسية فقد أبنا عنها في كتابنا عن الشعرائي — مثل هذا العصر — وسنشير إلى أعظمها أثرا في توجيه الحياة المصرية ، عند ما نعرض لبيان هذا بعد .

وقد حفلت مصر بزوايا هؤلاء الشيوخ ، وكانت تمتشي في نموها ومعتها

(١) توضح هذه الفكرة الأساليب التي يتبعها أهل الطريق في النظر بالمشيخة وقد شرحنا هذا في كتابنا عن الصغراء من ٧٠ — ٧١

(٢) انظر في وصف الزوايا وتفصيل حياة المجاورين بها كتابنا عن « الشعرائي » من

ووفرة الرزق بها ، طرديا مع نفوذ أصحابها وقدرتهم على إغراء المريدين بالانقياد لهم واجتذاب أهل البسار إليهم . وقد كادت هذه الظاهرة أن تنقرض في مصر — بل في العالم الإسلامي كله — ولهذا آثرنا أن نسجل أسماء أظهر الزوايا التي عرضت لذكرها مصادر هذا العصر ، عسى أن يساعدنا هذا على تفهم الجو الصوفي الذي استغرق المصريين في ذلك الحين ، وييسر لنا تقدير الأثر الذي ينتظر أن يكون له في حياتهم .

### أهم الزوايا في هذا العصر :

زاوية ابن النقيب ( وتعرف بزاوية بدر الدين المقدس ) أنشأها السيد علي ثم حولها أخوه بدر الدين ابن النقيب إلى جامع سنة ١٢٠٥ وكانت قائمة في شارع القصاصين حارة البير قدار -- زاوية أبي الحمايل ( محمد السرو ) سنة ٩٣٣ بين الصورين -- زاوية أبي خوده ( علي ) بالحسينية بالقرب من جامع الأمير شرف الدين الكردي -- زاوية أبي السعود الجارحي المتوفى سنة نيف وثلاثين وتسعمائة بالكوم الخارج بقرب جامع عمرو -- زاوية الست آمنه زوجة البيومي سنة ١١٨٣ بحارة زوجها وبها معبد وضريحها -- زاوية إبراهيم ( أخى الدمرداش في الطريق ) سنة ٩٤٠ خارج باب زويلة -- زاوية البكتاشية خارج القاهرة -- زاوية البكرية : الأولى ببركة الرطبي والأخرى بجوار الإمام الشافعي -- زاوية البيومي سنة ١٨٨٣ بالحسينية وقد شادها مصطفى باشا -- زاوية تفكشان بحارة قنطرة عمر شاه جهة درب الحمامين أنشأها الأمير محمد تفكشان سنة ١١٤٢ وكما يؤخذ من الآيات المنقوشة على بابها ، كان فوقها مكتب لتعليم الأطفال -- زاوية جلال الدين البكري سنة ١٠١٨ هـ أنشأها سنة ٩٩٦ بشارع الأزهر على مقربة من الجامع وقد كانت صغيرة ليس لها مضاء ولا بئر ، بها حوض يملأ بالقرب بجوارها صبريج -- زاوية الحبيبي جدها محمد الحبيبي شيخ طريقة الحبيبية سنة ١٢٤٧ هـ تقابل زاوية عز الدين الدمياطي التي ذكرها

المقریزی بشارع السبدة زينب وليست هي كما يتصور العامة — زاوية الحريش  
 أنشأها عبدالرحمن الحريش سنة ١١٨٧ — زاوية الحلوجي أسسها الشيخ مبارك  
 سنة ٦٨٨ كما قال المقریزی ودفن فيها عبيد البلقيني سنة ٩٣٠ والحلوجي، وكانت  
 تعرف به، بين المشهد الحسيني والجامع الأزهر ( انظر زاوية عبيد البلقيني )  
 — زاوية الحنفى بكوم الخارج بالقرب من جامع عمرو، زارها عبد الغنى  
 النابلسي سنة ١١٠٠ — زاوية الخضيرى سنة ٩٦٥ ( خلف مسجد طولون  
 بشارع الخضيرى ) — زاوية الخلوقى ( محمد كريم الدين سنة ٩٨٦ ) بشارع  
 الجدرية سارة الجدرية — زاوية الخواص ( على ) بالحسينية — زاوية خوند  
 على كئب من ضريح الشعرائى بياب الشعرية على بابها إلى اليوم حجر منقوش  
 عليه اسم فاطمة خوند تعبد فيها الشعرائى فترة من الزمن — زاوية الدردير  
 ( العدوى ) بخط الكمكيين بجوار ضريح يحيى بن عقب وبها عدة ضرائح —  
 زاوية الدمرداش المحمدى سنة ٩٣٩ وقد دفن بها محمد بن عثمان دمرداش سنة  
 ١١٩٤ هـ — زاوية الديروطى بدمياط وقد دفن بها أبو العباس الحريش ٩٤٥ هـ —  
 زاوية الذاکر ( تاج الدين ) سنة نيف وعشرين وتسعمائة بجوار حمام الدود  
 خارج باب زويلة شارع السيوفية — زوايا رضوان : اثنان من إنشاءها، أنشأها  
 ١٠٦٠ إحداهما بشارع القرية والأخرى بشارع قصبة رضوان والحليمية  
 والمغربلين جدها عبدالرحمن كتخدا والثالثة بها لوح من الرخام منقوش عليه  
 أن الأمير رضوان أحياها بعد الاندثار سنة ١٢٠٦ بشارع سويقة اللالا  
 ( يبدأ عند انتهاء شارع الحنفى وينتهى بشارع الدرب الجديد ) — زاوية الزاهد  
 ( أحمد ) بجوار زاوية المناوى بخط المقسم — زاوية السحيمي ( أحمد ) بقلعة  
 الجبل — زاوية السقايف ( على العربى القامى ) سنة ١١٨٣ على كئب من الفحاميين  
 وتسمى أيضا زاوية ابن العربى — زاوية الصفيحة ( أحمد ) سنة ٩٤٢ بشبرا قبالة  
 القرية — زاوية سعودى المجذوب سنة ٩٤١ بسويقة العزى بقرب مدرسة السلطان  
 حسن وبها قبره — زاوية السادات ( الوفاية ) بها عدة ضرائح كمحمد سنة  
 ١١٧٦ وعبد الرحمن العريشى والزيات بحارة السادات الوفاية بجوار مرأى

المرحوم مصطفى باشا أخى الخديوى اسماعيل باشا عن يمين السالك من رأس  
الحجارة إلى بركة الفيل — زاوية شاهين (الخلوتى) — بسفح المفطم شارع دبر النحاس  
مصر العتيقة — زاوية الشامية أنشأتها الست الشامية سنة ٩٩٤ هـ بشارع الجدرية  
بقرب الفخامين — زاوية الشريفي (عبد الوهاب) سنة ١١٨١ — زاوية الشناوى  
(محمد) سنة ٩٣٢ بمحلة روح وله زاوية أخرى بخط بين الصوريين وقد دفن بالأولى —  
زاوية الشعراوى (عبد الوهاب) سنة ٩٧٣ بباب الشعرية — زاوية الشمعة (أو الصارم  
أو عاتوس) أنشأها الأمير شمعة أول القرن الثالث عشر الهجرى بشارع البيومى  
تجاه عطفة الخوامس — زاوية الشفكي (أحمد) أنشئت سنة ٩٣٣ شارع بين  
الحارات جهة باب الشعرية — زاوية عابدين أنشأها الأمير عابدين سنة ١٠٨٤  
بشارع جامع أصلان بالثانية — زاوية عبدالرحمن المجذوب سنة ٩٤٤ بالحسنية  
قرب جامع الملك الظاهر — زاوية عبيد البلقين ، مات سنة نيف وثلاثين وتسعمائة  
بقرب الجامع الأزهر بالخلاوية (هى زاوية الخلو جى) — زاوية عصفور (ابراهيم  
عصيفير) سنة ٩٤٢ بخط بين الصوريين تجاه زاوية أبى الحبايل — زاوية العجمى (بسفع  
الجيل) — الزاوية القادرية فى السكة الجديدة دفن فيها أحمد الجوهري سنة ١١٨٧  
وهى بدرب شمس الدولة شارع الوراقين — زاوية الكليانى (أبى الخير) أنشئت  
سنة ٩٢٧ — زاوية الكاشنية — زاوية المقبولى (ابراهيم) شارع درب السماكين  
شارع كلوت بك وبها ضريحه وله زاوية أخرى بالحسنية على يسار الخارج  
منها إلى جنيته الشاهرسجى المعروفة بجنيته السبع والضبع ولا صحة لزعم الناس  
القاتل بأن فيها ضريحه ، فأن قبره بآسدود بأرض الشام — زاوية مدين الأشمونى  
كانت موجودة سنة ٩٥٢ كما قال المناوى بحوار زاوية الزاهد والمناوى — زاوية  
مرشد + ٩٤٠ شارع جامع أصلان — زاوية المرصنى (على) سنة نيف وثلاثين  
وتسعمائة بقنطرة الأمير حسن بمصر — زاوية مصطفى أغا وكيل دار السعادة بشارع  
درب الجاميز سنة ١٢٠٧ — زاوية المناوى (عبد الرؤف) سنة ١٠٣١ بخط المقسم  
زاويتا أحمد الزاهد ومدين الأشمونى — زاوية المنزلاوى (محمد ابن داود) بالسمية



قرية في بلاد المنزلة - زاوية المنزلاوى (عبد الحليم) مات سنة نيف وثلاثين  
وتسعمائة - زاوية المنير (أحمد) المعروف بأبي طغية سنة ٩٣١ بخطط المقسم بجوار  
زاوية الشيخ مدين - زاوية المنير أنشأها محمد بن حسن السنودى المعروف  
بالمنير آخر القرن الثانى عشر بداخلها ضريح منشئها شارع اللبودية حارة مكسر  
الحطوب بالقرب من قطرة الموسكى على يسار الذهاب من السكة الجديدة إلى  
الحزاوى - زاوية المجذوب (على المصرى) سنة ٩٦١ داخل باب الشعربة -  
زاوية المهندار أنشئت كما يقول المقرئى مدرسة وخانقاه سنة ٧٢٥ ثم جددتها  
سليمان أفا الفاروقى وجعل بها منارة ومنبراً بخطط البرادعية من الدرب الآخر -  
زاوية الموائى السندونى ودفن بها ابن أخيه سنة ١١٤٠ كانت في مؤخر الجامع  
الكبير بالمنصورة - زاوية النشلى (شهاب الطويل) مات سنة نيف وأربعين  
وتسعمائة بمصر العتيقة - زاوية نور الدين بن العظمة المجذوب عمرت له بشارع  
سويقة السباعين - زاوية يوسف بك شارع الخوض المرصود بجوار مدرسة  
السلاح وأنشأها الأمير يوسف بك وأقام بجوارها سيلاً وحوضاً لشرب  
الدواب سنة ١٠٤٤

هذا بعض ما صادفنا من أسماء الزوايا إبان هذا العصر ، أما عن حياة  
المجاورين في ظلها ، فقد نشأبت في أصولها وإن تفاوتت في مظاهرها وسعتها  
وعدد مجاوريها وألوان العيش بها ، وما من شك في أن الثبوت الذى عرضناه  
بأسمائها ناقص ، وليس أدل على هذا من أن جميع الطرق التى هدتنا المصادفة  
إلى أسمائها قد تجاوزت الثمانين .. !

فلنعرض موجزين طرفاً من العبادات التى زاولوها في رحاب هذه الزوايا :

### العبادة في رحاب الزوايا :

وقد كان أكبر ما يشغلهم من أمر هذه العبادات ، الانقطاع للتجود وذكر  
الله وإقامة الصلاة ، وقراءة الأوراد ، وتلاوة القرآن . وبلى هذا الاطلاع على

كتب التصوف والعلوم الدينية إجمالاً ، فلتعرض طرفاً من رأيهم في ذكر الله ، وهو أكبر هذه العبادات خطراً ، ملتزمين في هذا العرض تصوير الجو الروحي الذي عاشوا فيه كانوا همومهم ، لا بالقياس إلى هذا الجو في غير عصرهم :

الذكر :

كلمة تطلق على جميع العبادات التي يقوم بها المرء بلسانه بل بأفعاله<sup>(١)</sup> ، وذكر الله المندوب اليه في الكتاب والسنة هو التوجه لله تعالى بكلية سواء نطق باسمه الكريم أو لم ينطق ، واذكر ربك في نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولا تكن من الغافلين ، وسواء كان في ذلك قائماً أو جالساً أو نائماً فاذا قضيت الصلاة فاذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبكم<sup>(٢)</sup> ، ولا يراد بالذكر تنزيه الله فإن الله الكمال المطلق . وما ثم شيء ينبغي أن ينزه عنه ، ومعنى قصد الذكر تنزيهه فقد ألحق به القبح بوجهه — تعالى الله عن ذلك — وليس يراد به طلب الحق فأنه موجود أبداً والمفقود هو الذي يطلب ، هو معكم أينما كنتم<sup>(٣)</sup> ، وإنما يراد بذكر الله أن يشهد الذكر ليلاً ونهاراً أنه بين يديه ، وأنه يرانا ويطلع على أعمالنا وأقوالنا وخواطرنا<sup>(٤)</sup> ، وكل ما خلا ذلك من أطماع الذكرين فهو سوء أدب<sup>(٥)</sup> ، ولهذا أريد بالإكثار من الذكر حصول الأنس للريد حتى لا يغفل قلبه ويشهد الله دواماً فيراه بقلبه أو يرى نفسه في حضرته تعالى وكلا الخائنين إذا دام منع صاحبه من الوقوع في المعاصي

(١) الرسالة التصوفية ١٤٨ والفرائد يقتصره على العبادات باللسان .

(٢) التعليم والارشاد ص ٦٤ وبيت الصديق ص ٢٩

(٣) الشرائع : ردع الفقهاء عن دعوة الولاية الكبرى ص ٢٩

(٤) اليهود المحمدية ص ٣١٤

(٥) ردع الفقهاء ص ٢٧

وكفاه مواطن الزلل (١) والذكر عمدة الطريق كما سنعرف — والغرض من الطريق هو القرب من حضرة الله الخالصة وبجاليته فيها من غير حجاب (٢) لأن المتصوف يحب الله لذاته لا لإحسانه (٣) ولهذا وجب على الذكر أن يجعل ذكره للتعبد لا لطلب المقام (٤).

### سندهم في ذكر الله :

مرد سندهم في هذا إلى رسول الله ، الذي قيل إنه لقن صحابته ذكر الله جماعات وأفراداً ، وقد حفلت المصادر ببيان هذا وتفصيل الطريقة التي اتبعها في الحالين (٥).

### فيمز الذكر عندهم :

كان الذكر آثر العبادات عند أهل التصوف جميعاً إبان هذا العصر — وإذا كان الغزالي يقول إن تلاوة كتاب الله ليس بعدها عبادة تؤدي باللسان أفضل من ذكر الله ، ورفع الحاجات بالأدعية الخالصة إياه تعالى (٦) فقد قام النزاع في العصر العثماني بين أهل التصوف بسبب المفاضلة بين ذكر الله وتلاوة كتابه العزيز فقال قائلهم إن الذكر آثر للمريد ، أما تلاوة القرآن فأفضل للكمال الذي عرف عظمته ربه (٧) ولا عبرة بما يراه البعض من إشار تلاوة القرآن لأهل التصوف جميعاً ، وانفقوا جميعاً على أن ذكر الله والاشتغال

(١) الشعرائ : المهورد المحمدية ص ١١٣

(٢) : قواعد الصوفية ص ١١٤

(٣) : : الجواهر والدرر ص ٢١٠

(٤) : : درر القواص ص ٨٢

(٥) قواعد الصوفية ص ٨ و ٩ وآداب النفقندية ص ١١ ودلالة السائرين للمحمود ص ٤٠

(٦) الأحياء للغزالي ج ١ ص ٦٤

(٧) قواعد الصوفية ص ٢٥

بريضة النفس أفضل من الاشتغال بالعلم ( بالدين )<sup>(١)</sup> . على أن عمدة الطريق  
الإكثار من ذكر الله حتى لا يكون للمريد شغل إلا بربه . وقالوا إن الذكر  
منشور الولاية أى أنه مرسوم يصدره الله لعبده بالولاية كما تصدر ملوك  
الدنيا مرسومات . بالحق كبار الموظفين في الوظائف الشاغرة ، ومصادر  
التصرف في هذا العصر حافلة ببيان قيمته واللحاجة في تقديره ونقدسه<sup>(٢)</sup> .

ولم تكن هذه اللحاجة غريبة على من يرون أن إذا كر جليس الله وليس  
يصلح لمجالسة الله غير أكابر أهل الحضرة وحدهم ، وإذا كان ملوك الدنيا  
لا يأذنون لكل إنسان بالمشول بين يديهم ، وإن اشتهى ذلك ، فأحر بالخالق  
أن يكون جلساؤه من صنف ممتاز يقف حياته لذكر الله .

ومن هنا اشتدوا في حساب من يتغيب عن مجالس الذكر . ولو اعتذر  
بالانصراف إلى دراسة الدين ، ومن ارتكب ذلك وجب أن يؤنب نفسه  
أمام إخوانه ، وترك الاعتذار استهانة بمجالس الله<sup>(٣)</sup> .

### طريقة الذكر :

كان ميل السواد الأعظم إلى الجهر ما وسع الذاكر ذلك ، حتى لقد حدد  
البعض طريقة الاهتزاز أثناء الذكر ، والجهة التي يميل فيها عند نطق كل كلمة<sup>(٤)</sup> .  
وإن صرح البعض بأن هزة الرأس والذقن في الذكر ليست كل شيء فأهم منها  
احتراس القلب من الاسترسال في خواطره ومزيد مراقبته للحق في باطنه

(١) المعهود المحمدية ص ١١١ والبحر المورود ص ١٠٣

(٢) أنظر ثلاث قواعد الصوفية ص ١٤ — ١٥ والبحر المورود ص ٢٧٤ — ٢٧٥  
وردع القراء ص ٢٧ وقواعد الصوفية ص ٢٠٦

(٣) قواعد الصوفية ص ١٦٤ — ١٦٥ — ١٦٦

(٤) قواعد الصوفية ص ١٧ ودلالة السائر ص ٢٨ والسير إلى الله لمحمد البكري  
ص ٥١٩ وفي دلالة السائر ص ١٤٤ شرح آخر لطريقة الذكر والنطق .

وظاهره<sup>(١)</sup> وكلامه لا ينفي اهتمامهم بعنف الحركات وجمهوريّة الصوت . وقد شاعت الدعوة إلى هذا واستجاب لها الذاكرون كما سنعرف بعد قليل ، وكانت حجّتهم في رفع الصوت جمع شتات القلب وتجنب الحياء من الناس في ذكر الله<sup>(٢)</sup> .

ويلاحظ أن الجهر بالذكر كان غير محبب إلى الكثيرين من العلماء وحملّة الشريعة ، فاستنكروه ورموا أهله بالكفر والزندقه والعبث باسم الله ، ولهذا كثرت الرسائل التي وضعها العلماء في ذلك — وسنعرف شيئاً منها فيما بعد — وغنى بعض المتصوفة باستثناء الفقهاء الذين يبيحون الجهر بالذكر ومهلوا إلى الناس فتاويهم يرددون بها طريقته<sup>(٣)</sup> . ولدينا الكثير من الفتاوى بهذا الصدد وقد تار العلماء يوماً على البيومي وجماعته لأسباب منها رفع أصواتهم في الذكر . وانصلوا ببعض الأمراء وكادوا أن ينعنوا الشيخ وجماعته من إقامة الذكر بالمشهد الحسيني كما اعتاد ذلك كل ثلاثاء ، ولولا أن الشيخ الشبراوي تدخل لنصرته<sup>(٤)</sup> ورفع البيومي عند الباشا لثم لخصومه ما أرادوا<sup>(٥)</sup> .

ولم يكن العلماء وحدهم الذين يكرهون الجهر بالذكر في المساجد ، فقد وجد بين المتصوفة من لا يبيحونه إذا نشأ منه تشريش على الذين يقيمون الصلاة أو يستمعون إلى حديث الوعاظ . بل حرموه إن كان فيه إفلاق لراحة نائم<sup>(٦)</sup> . وقد صرح بهذا ( الشعرائي ) وإن كان قد حتم على من أراد منع الجهر بالذكر التزام الحكمة في طلبه ، وسياسة الذاكرين بالحنكة وحسن المعاملة ، واستشهاد

(١) الرسالة المتصوفية ص ١٤٨

(٢) قواعد الصوفية ص ١١٢

(٣) عبد الغني النابلسي : رحلة النابلسي ١٢٣ إلى سنة ١٣٧

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩

(٥) البحر المورود ص ٢٢٧ — ٢٢٨

بالجنيد حين وقع له مع الإمام أحمد بن صريح جدال بهذا الصدد انتهى  
بانتصار شيخ الطريقة (١) والظاهر أن الشعرائي قد انشاق إلى هذا التحذير  
من فرط ما ناله من الوعاظ الذين ساءم جهره بالذكر مع جماعته كما سنعرف  
بعد (٢).

على أن الجهر بالذكر كان في الجلة أحب إلى أهل التصوف وفاء بحق الملائكة  
الكاتبين، فأنهم رسل الله إلينا يكتبون أقوالنا وأفعالنا فنجهر بذكر الله رغبة في  
إشاعة السرور في قلوبهم ، لأن الملائكة تتفاخر بأعمال أصحابها كما يقول  
الشعرائي (٣) ثم إن الذكر سرأ قد يؤذى صاحبه ويشوي كبده ويحرق بطنه ..  
وقد وقع ذلك لجماعة الشيخ عمر ببلاد المعجم — وهو شيخ الشيخ دمرdash  
بمصر — حرم كبير المفتين على جماعته الجهر بالذكر وكانوا يبلغون الخمسة  
آلاف عدا ، فلما فرغوا من مجلس الذكر الذي التزموا فيه السرية حملوا منه في  
ذلك اليوم نحو نصف ألف أدركهم المارض واحترقوا أكباد نحو أربعة عشر  
نفساً وخرجت من جنوبهم .. وقد زعم راوى الحكاية للشعرائي أنه حسس  
بيده على أكبادهم فتبين أنها مشوية محروقة كالسكين المشوى على الجمر .. (٤)  
وقد سارت البكرية على الجهر بالذكر من قديم الزمان فهي اليوم تبيح للفرق ،  
وقديما كان الحنفى + ٨٤٧ يأمر أصحابه برفع أصواتهم بالذكر في الأسواق  
والشوارع والمواضع الخربة المهجورة حتى تشهد للذاكرين يوم الدين (٥).

وقد كانت مجالس الذكر إذا أقيمت في هذا العصر ، بدأ المنشدون يفسدون  
الاشعار ليلهبوا بها حماسة الذاكرين وإن كان بعض الصوفية الذين زاروا

(١) المهود المعبدية ص ١١٢

(٢) المناقب الكبرى ص ١٤١ انظر كتابنا عن الشعرائي

(٣) البحر المورود ص ٢٣٣

(٤) المهود المعبدية ص ١١٢

(٥) الشعرائي : الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٢

مصر في العصر العثماني وكانت لهم مكانة ملحوظة عند أهل التصوف، يرون أن إنشاد أشعار العارفين — من ابن العربي والتلساني وغيرهما من السادة الصوفية — لا يجوز لغير القادرين على فهمها الذين لا تلهيهم بالطرب النفساني وإلا كانت مجرد لهو وبطالة<sup>(١)</sup> ويقول (عبد القتي النابلسي) إن الصق والزرق والصياح والاضطراب والتواجد عند سماع المغنين في مجالس الذكر جمل من أصحابها، إلا إذا قام الذاكر للتواجد قومة المضطر الذي استقرت له المهاني الإلهية الواردة على قلبه وخاطرته في ذلك الوقت — والكمال دوما في السكون<sup>(٢)</sup> والظاهر أن هذا الرأي لم يكن شائعا بين الذاكرين في مصر، فقد وصف النابلسي في كتاب آخر مجالس الذكر في جامع عمرو بن الفارض فذكر الصق والوجد والبكاء والتعجب وإلقاء العائتم ونزع الثياب والزحام ونحو ذلك<sup>(٣)</sup>.

وكان يعلل الكثير من هذه المجالس الطبول والنايات والأعلام والرايات، وقد رأى النابلسي أنها لهو وجهل وبطالة لا ينبغي للشيخ المرشد أن يقر عليها أصحابه<sup>(٤)</sup>.

### آداب الذكر :

وخصموا للذكر كثيرا من الآداب يسبق بعضها الذكر ويصحبه بعضها ويعقبه بعضها الآخر، فأولها التوبة والتطهر والصلاة ونحوها، وثانيها يحدد طريقة الجلوس والجلوس الذي يختار لذلك، وحالة القلب والخيال واختيار صيغة الذكر ونحو ذلك، وثالثها التهيؤ لاستقبال الوارد مع العزوف عنه، وشرب الماء البارد<sup>(٥)</sup>... الخ

(١) النابلسي : كشف النور ص ٩٢ (٢) كشف النور ص ٩١

(٣) رحلة النابلسي ص ١٤٠ — ١٤١ (٤) كشف النور ص ٩١

(٥) قواعد الصوفية ص ١٥ ( وكل نص لم يذكر مصدره في آداب الذكر فهو مأخوذ من هذا الكتاب ص ١٥ — ١٨ وقد نقل صاحب كتابه (آداب النفسانية) هذه الآداب ص ٤٩ وما بعدها وكذلك نقل صاحب دلالة السالكين ص ٢٤ وما بعدها السير إلى الله ص ١٩ ونخبة المالك ٤٥٩ والريجة المقابل لصفحة ٤٥٩ ( في المخطوط )

## ممرات الذكر :

يؤدي الذكر إلى الغرام الطاعات وتجنب المعاصي، بل يسلم الذكر إلى حضرة الله، فيضحى الحق سمعه وبصره وكل قواه، فيبثق العلم في نفسه، ويزيله الشك في أمره، ويصبح باتصاله بالله قويا بعد ضعف آمنا بعد خوف، بل تتسع قدرته حتى تتجاوز قوانين الكون ونواميس الطبيعة ومنطق العقل ١٠٠

هذه أوهام تمثلت في خواطر هؤلاء العجزة، الذين أعوزهم العيش على ما يحبون، ورجلوا والاتصال العلي الذي يربط بين المعلومات وعملها، فصوروا نواميس الكون على الوجه الذي يشتهون ١

## الخلوة :

كان المراد بالخلوة اعتزال المريد للناس للتفرغ لذكر الله والانقطاع لعبادته، ولهذا كثرت الخلوات بين جدران الزوايا وخارج جدرانها. روى النابلسي في رحلته إلى مصر أنه لما زار زاوية الدمرداش رأى خارج ضريحه، نحو خمسة-سبعين أو ستين خلوة ذات أسوار وأنوار، وهي التي تسمى مساجد الأنوار يحتل بها المريدون، وصعد إلى سطح هذا القصر العالي (الزاوية) فوجد هناك رواقا كبيرا يتلألأ نوره وفيه كذلك كثير من الخلوات (١).

ولعل انتشار الزوايا في أرض مصر يساعد على تصور كثرة الخلوات التي عرفها أهل التصوف أيام العثمانيين، بل لم تكن الزوايا وحدها مقر الخلوات، فقد وجد بين المتصوفة من أخلص العبادة لله أو لمنفعة نفسه دون أن تكون له زاوية يقيم فيها مع مريديه. وقد أقام بعض هؤلاء مغاور، يختلون بها للتعبد والذكر. وكان بعض هذه المغاور رحياً ملحوظ التماق. فكانت مغارة الشريف أبي عبد الله المغاوري، منقوشة في الجبل مستوية مهندمة طولها داخل الجبل نحو خمسة وستين ومائة قدم وعرضها



أكثر من عشرة أذرع<sup>(١)</sup> وكانت الخطوات تقام أحيانا في المنازل وتزدان جدرانها بالكلمات الماثورة . وقد كانت خلوة جلال الدين البكري بداره قاعة صغيرة جدا بأبوابين متقابلين وهي لطيفة البناء طريفة التناء بها النور الساطع والسر اللامع القاطع ، وعلى جدرانها اثنان وعشرون بيتا من الشعر نظمت بتاريخ عام ٩٧٩ هـ<sup>(٢)</sup> .

### التزامات الخلوة :

والخلوة التزامات لا تستقيم بدونها ، كأن يعود المرید نفسه قبل دخولها ندرة الكلام وقلة الأكل حتى يتيسر له بعد ذلك أن يصوم في خلوته ، لأن الجوع يحلل من جسمه الأجزاء الترايبية والمائية . أما الشبع والارتواء فيجلبان النوم ويصرفان عن ذكر الله . ومن الأدب تبقي القلب في حضرة الله ومن لم يلتزم ذلك الشرط فقد أساء الأدب . يقول عمر بن الفارض :

إذا ما بدت ليلى فكللى أعين وإن هي ناجتني فكللى مسامع<sup>(٣)</sup>  
ومن آدابها صفاء النية والرغبة في المكف عن أذى الناس وإراحتهم من شره<sup>(٤)</sup> وانقطاع المرید عن زوجته وولده وعشيرته وسائر الناس<sup>(٥)</sup> ، وإدامة تفكيره في شيخه ، مع الاعتقاد بأن خلوته مقبرته التي لن يبرحها إلى يوم الدين كما يقول الشعرائي والمثير<sup>(٦)</sup> وإن تفاوت أهل التصوف في ذلك<sup>(٧)</sup> ،

(١) رحلة النابلسي ص ١٤٠

(٢) رحلة النابلسي ص ١٣٠ وبيت الصديق السيد توفيق البكري ص ٦٢ — ٦٣

(٣) المهود المحمدية ص ٢٧٩ — ٢٨٠

(٤) على البيهقي : خواص سورة الفاتحة ص ١٣ و ١٤ ودلالة السائرين ص ٦٠

(٥) على البيهقي : خواص سورة الفاتحة ص ١٤ (مخطوط)

(٦) دلالة السائرين ص ٧٠

(٧) انظر خواص سورة الفاتحة ص ١٣ والطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٧

و ص ٧٩ والكواكب الدرية ودلالة السائرين ص ٦٩

هذا بالإضافة إلى آداب المريد نحو الصور والأشباح التي تتراعى له، وعلى المريد ألا يكتم عن شيخه ما يراه في أثناء خلوته<sup>(١)</sup> مما ينشأ عن الجو المعنوي الذي يحيط به نفسه، وهذا فوق شروط الخلوة<sup>(٢)</sup> ونحوها.

### ثمرات الخلوة:

إذا صحت الخلوة أفلحت الرياضة وأنت من الثمرات فوق ما يتصوره العقل، منها أن يكشف المريد عالم الغيب المحجب، ويدرك أسرار الحيوانات والحشرات ويعطى القدرة على فعل الكرامات وإتيان الخوارق والتصرف في الكون بالهمة فيمشي على الماء ويطير في الهواء ويقتحم الزيران بفعل كل مالا يقوى عليه سائر البشر<sup>(٣)</sup> أقام المزلأوى في خلوته نحو عام يقرأ في الليل ختما وفي النهار ختما ثم خرج بنفسه من الغيب ويسد نفقات المريدين الذين كانوا يقيمون في زاويته وقد بلغوا المائة عدداً ويتمهد بالانفاق رجوه البر والخير من تعمير المساجد وبناء المدارس ومد الأسبلة وغير ذلك<sup>(٤)</sup> وغير هذا من ثمرات توهمها هؤلاء العجزة الذين أعوزتهم القدوة على الضرب في زحمة الحياة، والظفر من الدنيا بأوفى نصيب، فالتمسوا في عالم الخيال تحقيق ما يشتهون..!

### أركان الطريق:

قالوا إن العصر العثماني قد أقبل للطريق في مصر أركان أربعة لا يستقيم بغيرها، ولا يتولى المشيخة واحد من أهلها إلا إذا توفرت فيه خصائص هذه الأركان — التي نهبأت لأرباب الطريق قبل العصر العثماني في عرف الداعين إليها — وهذه الأركان هي: تلقين الذكر، إدخال الخلوة، إرخاء العدة<sup>(٥)</sup>

(١) أنظر عبد القادر العبدروسي: تكوين النور السافر ص ٢٣٨ والجبرتي ج ١ ص ٣٤٠

(٢) دلالة السائرين ص ٦٢

(٣) كتب الطبقات والمناقب حافلة بهذا النوع من الكرامات.

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٧

(٥) الشعرائي: الجوهر المصون ص ٩ (مخطوط)

— وهي الزيادة المدلاة من العامة — وإلباس الخرقه . وهي عرقية ورجية ورداء<sup>(١)</sup> ، أو طاقية من القطن<sup>(٢)</sup> ، أو هي الأثر قبضا أو رداء أو جبة أو عمامة . . . ! ! ! ولاشيخ الذي يقوم بهذه المهام الأربعة شروط تخرجه في عرف المنطق عن نطاق البشر<sup>(٣)</sup> . . . ! ! !

• • •

هذه هي الأركان الأربعة التي هيأها الوهم لأرباب الطريق ، وفي الحق لقد كان لهذا الوهم ما يبرره ، فقد فنى الدجل واستشرى داؤه وكثر أدعياء التصوف واستفحل أمرهم ، وقد بلغ عديد الطوائف التي هدتنا المصادفة الى معرفة أسمائها نحو الثمانين طائفة . ! لكل منها معسكرات في القرى والأقاليم . وهذا خلا الذين ادعوا التصوف مستقلين عن الفرق وشيوخها . . ! ومن الخير الآن أن نبسط الحديث في هذه الطوائف وليكن ذلك في الفصل التالي :

---

(١) انظر تراجم الصوفية ص ٢٠ و ٢٣٩ — ٧ والجوهر المصون ص ٣ و ٤ ودرر

النواس ص ٧٢

(٢) المناقب السكبري لمحمد الملبس ص ٢٧

(٣) المناقب السكبري ص ٦٥ — ٦٦

## الفصل الثالث

### في الطرق الصوفية

نشأة الطرق الصوفية — حال الطرق في وقتنا الحاضر —  
الطرق أيام العثمانيين — احصائية ببعض أسمائها —  
سميات الفرق — ثلاثى التفروق بين الطوائف

#### نشأة الطرق الصوفية :

يرى الأستاذ ماكدونالد أن المسلمين قد أنقلهم الجزع من الله الذى تخيلوه فى صورة المستقم الجبار ، وضاقوا بالحياة لأن الفناء يدركها والشر يملأها ، وتصوروا الخير الأبدى فى الآخرة وحدها فالتوا إلى الزهد فى طلب الدنيا والإعراض عن مباهجها ، مخافة أن ينزل بهم غضب الله ، وانطلق بعضهم هاتما على وجهه لا يعرف لنفسه مقصدا ولا لحياته غاية ، وكان هذا أظهر آيات الصوفى الصالح يومذاك . ثم استسلم الصغار لقيادة من يكبرونهم منا وخبرة ، فتألفت جماعات صغيرة تضم تلامذة يلتفتون حول شيخهم الموقر ، وبذلك ظهر نظام الإخوان فى الإسلام وأنشئت الخواصق — فى غير مصر — منذ القرن الثانى للهجرة (١) . وكان كبار الناسك والاولياء يجمعون حولهم طوائف من الاتباع (الدرأويش) يحملون اسمهم ، ومن أقدم هذه الفرق : القادرية التى أسسها عبد القادر الجيلانى سنة ٥٦١ والرفاعية التى أنشأها أحمد

---

(١) وقيل فى النصف الثانى من القرن الثالث للهجرة (انظر ص ١٠٨ فى كتاب الحياة الروحية فى الاسلام لزميلنا الدكتور محمد مصطفى حلى )

الرفاعي + ٥٧٦ والشاذلية التي نسبت إلى الشاذلي + ٦٥٦ والأحمدية التي أنشأها أحمد البدوي + ٦٧٥ والنقشبندية التي أنشأها محمد النقشبندی + ٧٩١ والمولوية التي أسسها الشاعر الفارسي المعروف جلال الدين الرومي + ٦٧٣ هـ. ولا تزال هذه الطوائف وغيرها من الفرق التي نشأت بعدها قائمة إلى يومنا الحاضر. وثمة فرق اندثرت بعد أن قامت بفترة من الزمن، فابن سبعين كان له أتباع يحملون اسمه بعد مماته ولكن الزمان قد عفى عليهم فيما يلوح.

وكما ادعى المتصوفة أنهم يتحدرون من سلالة أنبياء المسلمين — ولاسيما العشرة الذين بشرهم النبي بدخول الجنة — فقد وجد من يدعون أنهم ينتسبون إلى الخلفاء الأول، وفي مصر من هؤلاء سلالة أبي بكر الصديق ولها نفوذ على سنى الطرق الأخرى كما أشار ما كدونالد<sup>(١)</sup>.

وقال علي مبارك إن أغلب الطرق منسوب إلى أربعة من كبار الأولياء: عبدالقادر الجيلاني وأحمد الرفاعي وأحمد البدوي وإبراهيم الدسوقي، فإن لكل منهم طريقة واحدة خاصة ثم تعددت الطرق بتعدد من أخذها عنهم مباشرة أو بالوساطة وتسميت إلى الآخزين عنهم لتفرعها عن الأصل — أحد السادة الأقطاب الأربعة — وتعددت الفروع حتى بلغت الأحمدية ستة عشر فرعاً وفي البرهانية فرعين. ووقامت طرق أخرى مستقلة عن الأقطاب الأربعة كالسعدية والنقشبندية والشاذلية التي تفرعت إلى أربعة عشر فرعاً تفرع أحدها مرة أخرى (الخلوتية) إلى أربعة فروع<sup>(٢)</sup> ولكن الأستاذ لين، يذكر السعدية على أنها فرع من فروع الرفاعية<sup>(٣)</sup>.

وفي طبقات الشرنوبلي + ٩٩٤ أحد متصوفة العصر العثماني قصة خيالية لطيفة أوضح فيها كيف اقسام هؤلاء الأقطاب الأربعة الأرض فيما بينهم فكان لكل قطب ربعها، وقد صور في القصة النزاع الذي قام بينهم عند اقسام الأرض

(١) I. D. B. Macdonald · Muslim Theology (1903) page 177

(٢) المخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٩ — ١٣٠ (٣) لين Lane ص ٢٤٨

وتدخل الله وملائكته ورسوله وأوليائه المفصل في قضيتهم ، ثم كيف ارتدوا جميعا بعد النزاع أصدقاء وأخوانا (١).

ولعل ما أسلفناه في هذا الفصل وما قبله يبرر الظن بأن تأسيس الطرق كان أمراً مردّه إلى شخصية الشيوخ ومهارتهم ، فقد ينتسب الشيخ إلى إحدى الطرق الأربعة أو غيرها فيجذب إليه كثرة من الاتباع والمريدين يحملون اسمه في حياته ، فإذا مات خلفه ابنه أو أحد مريديه أو أقاربه كما عرفنا من قبل ، وتسلست الخلافة واستقلت طريقته ، وحل أهلها اسمه بعد مماته ، وقد تنفر عن طريقته فيما بعد طرق أخرى بأسماء جديدة - كما أشار على مبارك وكما سنعرف بعد قليل .

ولسنا نعرف التاريخ الذي قامت فيه الطرق الصوفية في مصر على وجه التحقيق ، والراجع عندنا أنها نشأت بعد قيام الخوانق والربط والزوايا التي أسلفنا الحديث عنها في الفصل الأول ، ويؤيد هذا ما عرفناه الآن من أن نشأة الفرق في الإسلام كانت في النصف الثاني من القرن السادس الهجري ، وفي هذا التاريخ نشأت الخوانق في مصر كما عرفنا من قبل ، وأكبر الظن عندنا أن مصر لم تسكد تشرف على العصر العثماني ، حتى كانت تضم كثرة من الطوائف الصوفية نرى أسماءها تتردد كثيرا في كتب المخضرمين من كتاب العصر ، وفي طليعتهم الشعرائي .

### مال الطرق في وقتنا الحاضر :

والآن نحاول تأريخ بعض الجوانب في الطرق الصوفية التي كانت قائمة في مصر إبان العصر العثماني فنحصى أسماءها ونحددميزانها ونكشف عن علاقة شيوخها بالبلاد النائية عن مقرهم ، ولما كان ميدان هذا الحديث مظلما حالك الظلام ، وكان الكثير من الأمور تراثا يرثه الخلف عن السلف ،

(١) طبقات الصوفى لعبد اليلقى من ص ٣٩ إلى ٤٧

فقد أثرت الاستعانة على توضيحه بذكر تمهيد موجز يبين حال الطريق في يومنا الحاضر :

الطرق الصوفية القائمة اليوم في مصر خمس وأربعون طريقة<sup>(١)</sup> لكل منها شيخ له نواب في المراكز التي يستحوذ فيها على كثرة من المريدين والأتباع ، ثم خلفاء في البلدان والقرى<sup>(٢)</sup> لكل منهم مريدون يسلكون على طريقة الشيخ ، ويدبر الشيخ أمر الخلفاء والنواب ويعينهم وفق ما يقتضيه هواه ، كما يدبر الخلفاء أمر المريدين من حيث العمل على إرشادهم ومراقبة تربيتهم على أكمل وجه يقتضيه الشرع<sup>(٣)</sup>.

قد هداني انصالي ببعض كبار شيوخ الطرق في وقتنا الحاضر إلى أن الفوارق التي تميز الفرق بعضها عن بعض غير واضحة المعالم عندهم ، فهم يرون أن الطرق كلها واحدة وأن أعظم الفوارق بينها قائم في أشخاص شيوخها . سألت صاحب السباحة السيد عبد الحيد البكري شيخ مشايخ الطرق السالفة في مصر : لماذا كثرت الطرق ولم يقتصر شيوخها على طريقة واحدة ؟ .. فقال ولماذا كثرت في الدين المذاهب ولم يقتصر شيوخه على مذهب واحد ؟ .. قلت إن الفقهاء في كثير من المسائل على خلاف جوهرى أدى إلى وجود المذاهب المختلفة ، قال لعل أكبر الفوارق بين الطرق أن بعض شيوخها قد أثر العزلة عن الناس والابتعاد عن مشاغلهم محتليا بنفسه لينصرف إلى العبادة ويتفرغ إلى ذكر الله — وهؤلاء هم الخلوتية ومن سار سيرتهم . وأثر البعض الآخر ألا يقطع عبادة الله بل يتصل بالناس ليتولاهم بالنصح والإرشاد

(١) من احصائية أمدني بها صاحب السباحة المرحوم السيد عبد الحيد البكري شيخ الشايخ السابق .

(٢) المادة التاسعة من الباب الثاني من لائحة الاجراءات الداخلية ص ١٣

(٣) وضع سباحة السيد توطيق البكري شيخ الشايخ السابق مع فريق من رجال التصوف كتابا دينا أسماه « التلميح والإرشاد » ليستبين به مشايخ الطرق وخلفائهم على إرشاد المريدين .

ويرفع عنهم ما هم فيه من غي وضلال ، وأولئك هم الشاذلية ومن صار  
سيرتهم .

وإني لأذكر عند كتابة هذا شيخ الطريقة الحفزية ( الحفناوى ) + ١٨٨١  
وأذكر ما رواه عنه الجبرتي من أنه أخذ الطريقة الخلوتية عن السيد مصطفى  
البكري ومع ذلك فقد كان قطب رضى الديار المصرية ولا يتم شيء في السولة  
إلا بأذنه . (١)

والمطلع على لائحة الطرق الصوفية في وقتنا الحاضر يقين من موادها  
أنها ألفت أكثر الفروق التي كانت تميز الفرق بعضها عن بعض منذ القدم كما  
نعرف بعد قليل . هذا حال الطرق في وقتنا الحاضر فإذا كان حالها أيام  
العثمانيين ؟

### احصائية بالطرق أيام العثمانيين (٢) :

هذه المصادفة إلى العثوري على أسماء طرق كادت تبلغ الثمانين عدداً ، فقد روى  
صاحب المناقب في معرض الحديث عن الشمراني أنه أخذ الطرق ، كلها ، عن  
مشيخته وهي ست وعشرون طريقة هي طرق الرفاعية والقادرية والاحمدية  
والبرهانية والشاذلية والسهروردية والنقشبندية والحسينية والوفائية والكثيرية  
والمدينية والفردوسية والخلوتية والحمدانية والطبغورية والشاطرية والحضرية  
والاحمدية والعزيزية والسعودية والمصاغة والطيلسان والرداء والمزور  
وإرخاء العدة (٣) .

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٠٥

(٢) وأزن بين هذه الاحصائية وما يذكره الأستاذ هـ لين H Lane في كتابه السالف  
الذكر من طرق صوفية في مصر ، وما يورده الأستاذ ماسينيون في مادة Tarika في دائرة  
معارف الدين والأخلاق Encyclopedia of Religion & Ethics عن الطرق الصوفية  
في الاسلام .

(٣) النائب الكبرى ص ٦٦



والظاهر أن هذه الطرق لم تكن كل ما قام في مصر إبان العصر الذي عاش فيه الشعراء ، فإن في الكثير من كتبه ذكر طرق أخرى لم تذكر في هذا الثبت ، نذكر منها الآن ما لم يذكر في ثبت المناقب السالف . ذكر الشعراء في أكثر من موضع في لطائف المنن فرقامنها : المطاوعة بالشرقية والصعيد (١) وفي قواعد التصوف يذكر طوائف الباطنية والأدعية والمسلمية والدسوقية (٢) ولعلماء البرهانية (٣) والملاحمية والحيدرية .. (٤)

وفي العصر العثماني وجدت فرق تعادفنا اسمائها في غير كتب الشعراء منها ما رواه الجبرتي عن أصحاب البدع كجماعات العفيفي والسيان والعربي والعبسوية (٥) وأخرى رواها في مواضع أخرى مع بعض ما أسلفناه منها فرقة السعيدية (٦) والشيعية (٧) ثم الشناوية (٨) والشعرانية (٩) والمولوية (١٠) ثم البراهمية والقدرية (١١) ، وذكر عبد الغني النابلسي في رحلته إلى مصر فرقاً

(١) الشعراء : لطائف المنن ج ١ ص ١٢ و ٢٣٤

(٢) : قواعد التصوف ص ١٧٥ — ١٧٦

(٣) الجبرتي ج ٣ ص ٤١

(٤) الجبرتي ج ٣ ص ٦

(٥) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت المؤنسية فمسيد توبقي الكبرى ص ١٩

(٦) الجبرتي ج ١ ص ٢٨٩ والنابلسي في رحلته ١٢٣ و « دين » ص ٢٤٩

(٧) الجبرتي ج ٢ ص ٢٢٦ ( ترجمة لشيخ سجادتها الشيخ عبد الرحمن الشعراء سنة

١٣٠٠ هـ وذكرها لأستاذنا ص ٢٤٩

(٨) الجبرتي ج ١ ص ٢٦٦

(٩) ( والراجع أن المراد بالأولى البرهانية ، وقد كثر تحريفها واختلف المؤرخون

في اسمها فالسيد توبقي الكبرى ( ٢٧٣ من بيت الصديق ) والسيد عبد الحميد ( في الإحصائية

السابقة الذكر ) والشعراء أحياناً ( ١٢ و ٢٣٤ ج ١ لطائف ) يذكرونها البرهانية ،

وساحب المناقب الكبرى يذكرونها البرهانية ( ص ١٦ ) . أما الجبرتي ( ج ٣ ص ٦ )

وعلى مبارك ( المخطوط ج ٣ ص ١٤٠ ) والشعراء ( الفهود المعمدية ص ٢٨١ ) يذكرونها

البراهمية والأصح فيما نعلم البرهانية ، والراجع أن الجبرتي يريد بالقدرية طائفة

القادرية المعروفة .

أسلفنا بعضها ويضيف فرقة الدمرداشية<sup>(١)</sup> والبكناشية<sup>(٢)</sup> والكشنية<sup>(٣)</sup> وتشير طبقات الشاذلية إلى طوائف أخرى منها العفيفية<sup>(٤)</sup> (واعلمها جماعة العففي التي ذكرها الجبرقي من قبل).

وذكر على مبارك أن الفرقة الأحمدية قد تفرعت إلى ست عشرة طريقة هي : المرازقة والكناسية والانباية والمنايقة والحدودية والسلامية والحلبية والزاهدية والعشيبية (وقد ذكرناها من قبل) واليومية والتسفيانية والشناوية والعربية (ولعلمها جماعة العربي السالفة الذكر) والسطوحية والبندارية والمسلمية ويذكر الأستاذ ، لين ، طائفة أولاد نوح من فروع الأحمدية<sup>(٥)</sup>.

وقال إن الرفاعية لا فروع لها وإن كان لها ثلاث بيوت هي البازية والملكية والحلبية والفرق بين الفروع والبيوت أن لكل فرع شيعا أما البيوت فيجمعها شيخ واحد ، وأما القادرية فلا فروع لها ولا بيوت<sup>(٦)</sup>. وأما البراهمة (أي البرهامية) فلها فرعان هما الشهاوية والشرائية (ولعلمه يريد الشرنوبية المنسوبة إلى أحمد عثمان الشرنوبي صاحب الطبقات المعروفة والمتوفى سنة ٩٩٤ هـ) وقال إن الشاذلية قد تفرع عنها أربع عشرة طريقة هي الجوهريه والقاسمية والمدنية (ولعلمها المدنية التي رواها صاحب المناقب) والمككية والهاشمية والفروسية والتهامية والهندوشية والإدرسية والقاروقجية ، ثم طرق أخرى سلف ذكرها (هي

(١) رحلة النابلسي ١٢٣ و ٢ لين ٢ من ١٤٩ (٢) رحلة النابلسي من ١٠٣

(٣) رحلة النابلسي ١٠٦ ويرى على مبارك (في خطه ج ٢ من ١٢٠) أنها تنسب إلى إبراهيم سنة ٩٤٠ هـ

(٤) طبقات الشاذلية من ١٥٨ (٥) الأستاذ ٢ لين ٢ من ٢٤٩

(٦) الخطط التوفيقية ج ٣ من ١٣٠ . وقد ذكر السيد تونقي في ٢ بيت الصديق ٢ من ٣٧٣ فرعين لهذه الطائفة هما القارونية والقاسمية وذكر الأستاذ ٢ لين ٢ أن السطوحية فرع من فروع الرفاعية كما قلنا منذ حين .

السبائية والعقيفية والعيسوية والخلوتية المنسوبة إلى السيد مصطفى البكري<sup>(١)</sup> وقد تفرغ عنها أربع طرق هي الخيفية ( المنسوبة إلى الخفناوى + ١١٨١ هـ ) والسباعية والصاوية والضييفية<sup>(٢)</sup> .

والظاهر أن الدر داشية قد تفرعت كذلك عن الخلوتية ( المنفرعة عن الشاذلية ) فان عبد الغنى النابلسي يقول إن الشيخ شاهين قد اتهم بمخالفته السكيمياء فنصر عنه أكثر أتباعه ومريديه وانتقلت شهرته العظيمة للشيخ دمر داش حتى استقر شيخا للخلوتية في الدبار المصرية<sup>(٣)</sup> . وينصر صاحب تكميل النور السافر على أن محمد كريم الدين الخلوتي قد تلقى الخلوتية عن دمر داش المحمدي - ٩٣٣ هـ<sup>(٤)</sup> . ولا ينبغي أن ننسى البكرية التي تزعمت الطريق فيما بعد .

وقد حاول السيد توفيق البكري أن يؤرخ الطرق الصوفية القائمة في العالم الإسلامي كله ، ولكن صعوبة الاهتداء إلى أصلها وتسلسلها ومعرفة تاريخ نشأتها كانت تجعله على الاكتفاء في تاريخ أكثرها بأن يقول : منسوبة إلى فلان ، أو من جردة بمصر الآن<sup>(٥)</sup> . وقد صادفتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا الاهتداء إلى نشأة هذه الفروع التي نحدث عنها على مبارك وإن كان الراجح على الظن أن أكثرها كان قائما في العصر العثماني . فقد كتبت الخطوط التوفيقية بعد هذا العصر بأقل من قرن كان سلطان الصوفية فيه قد أخذ يضمحل . وإن كان ذلك لا يبرر القول بأن الطوائف قد قل عديدها باضمحلال السلطان

(١) هذا رأي علي مبارك والراجح أنه غير صحيح فالطريقة الخلوتية كانت قائمة في مصر قبل مصطفى البكري وكان زعيمها في مشهور العصر العثماني دمر داش المحمدي وتلاميذه محمد كريم الدين الخلوتي .

(٢) الخطوط التوفيقية ج ٣ من ١٢٩ - ١٣٠

(٣) رحلة النابلسي من ١٣٩

(٤) تكميل النور السافر من ٧٥٣ ( ويروى صاحب طبقات الشاذلية من ١٣٩ أنه مات سنة ٩٣٩ هـ ) ولعل الأول أصح .

(٥) بيت الصديق من ٢٧٤ - ٣٨٩

الذى كان لأهلها فإن عددها في السنوات الأخيرة يزداد كما يبدو من احصائيتين  
نراها في مكتبة مشيخة المشايخ مع أن سطوة أهل الطريق آخذة في الزوال  
بمرور الزمان.

### سميات الفرق :

الخصائص التي تميز هذه الفرق بعضها عن بعض قليلة لانكاد نذكر، وأولها  
ما يختص بالزى وثانيها ما يتعلق بطريقة الذكر والعبادة ، فأما عن الأول فقد  
عرفت الأحمدية بالزى الأحمر والبرهامية بالزى الأخضر والرفاعية بالزى  
الأسمر كما يقول على مبارك ، والأستاذ لير ،<sup>(١)</sup> أو الأسمر والأبيض كما  
يقول السيد توفيق ، وعرفت القادرية بالزى الأخضر وإن قال الأستاذ لين  
أن يبارقهم وعماثم بيضاء<sup>(٢)</sup> وعرفت بالزى الأخضر كذلك السعدية<sup>(٣)</sup>  
ويقول على مبارك إن اعلام الشاذلية مختلفة الألوان وليس للخلوتية علم  
وزيهم الذى يميزهم هو الفاروق ، كما أن الأولياء الذين تنسب إليهم الأحزاب  
المعتاد قراءتها ليس لها علم وزيهم الخاص هو التاج<sup>(٤)</sup> وكان التاج من مميزات  
الخلوتية كما يشير صاحب السنا الباهر<sup>(٥)</sup>

ومن هذا نرى أن الزى وحده غير كفىل بتمييزهم ، فإن الزى الأخضر  
مثلا تتفق فيه القادرية والسعدية والبرهامية - بفرعيها وكذلك نقول في  
الأحمدية والشاذلية وغيرها من الطوائف المتعددة الفروع وكان أولاد

(١) \* لين في كتابه ص ٣٤٨ يقول أن رايات الرفاعية حمراء وعمامتها حمراء أو  
اللون الأزرق القائم

(٢) \* لين ص ٢٤٩

(٣) بيت الصديق ٣٧٤ و ٣٧٥ و ٣٧٦ و ٣٧٧ - النسخة التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠

والين ص ٢٤٨ - ٢٤٩ .

(٤) النسخة التوفيقية ج ٣ ص ١٣٠ .

(٥) تكميل النور المسافر ص ٧٥٣ .

نوح صفارا يرتدون جميعا طرايطير نزيها من القمة خصل من الخرق ذات  
الالوان المختلفة ، ويتقلدون سيوفا من الخشب ويمسكون سوطا يسمونه  
«فرقة» (١)

فأما وجه الخلاف بينها في طريقة العبادة والذكر فنذكر ما عثرنا عليه بين  
ثنائا السطور بما ذهب أشتاتا في بطون كتبهم ، إذ لم نهند إلى مصدر عرض  
لوجه الخلاف بينها بإسماب ولا إيجاز .

والظاهر أن أكبر ما يميز الطوائف وردها - كما يقول ، ابن ، فلكل طائفة  
ورد أو حزب أنشأ شيخها وحرص عليه أتباعه في حياته وبعد مماته ، يرددونه  
في الأوقات التي حددها لهم ويتلون به جماعة دون أن يتغيب عن تلاوته أحد  
منهم ، لأن مدد الشيخ في ورده كما يقول الشعراقي ، ولهذا كان من أعظم ما  
يقع فيه المريد من سوء الأدب مع شيخه تغيبه عن تلاوة الورد الذي رتبته  
صباحا ومساء ، وقد حتموا على المريد إذا اضطره للتغيب ظرف قاهر أن ينهي  
شيخه ليناقشه فيه الحساب ، فإن كان تغيبه من غير عذر وجب أن يؤنب نفسه  
أمام إخوانه والاشتغال بالعلم ودراسة الدين لا يصلح قط أن يكون عذرا  
يحتجى به من قصر في حضور مجالس الورد (٢) بل لقد اعتبر بعضهم التغيب  
عن مثل هذه المجالس ميبا يبرر طرد الشيخ للمريد الذي يقدم عليه (٣) ، وقد  
جرت العادة بأن يعتر الشيخ بورده ، فلا يأذن لأحد ممن يسلكون على يده  
أن يقرأ ورد غيره ، فمن ذلك أن الشيخ محمود الكردى قد سلك على طريقة  
القصيرى ولكنته رأى الحفناوى + ١١٨١ هـ في رؤيا وقيل له هذا شيخك ،  
فعلق به قلبه وأخذ عنه طريق الخلوتية ، وسلك على يديه وإن أقام على قراءة

(١) «لين» ص ٢٤٩ .

(٢) قواعد الصوفية ص ١٦٤ - ١٦٦ .

(٣) دلالة السارين ص ١٢٦ .

أوراد شيخه، القصيرى، فمات به في هذا شيخ شيخه، السيد مصطفى البكرى، وكان الكردي قد كبر وعظم شأنه وأجيز وأذن له بإرشاد المريدين وتريتهم، فاعتذر عن مسلكه بالخوف من شيخه القصيرى، فطلب إليه البكرى أن يستخير الله، ولما استجاب لطلبه رأى في منامه رسول الله وقد وقف القصيرى عن يمينه والبكرى عن يساره، وقال القصيرى للرسول: أليست طريقتى على طريقتك، وأليست أورادى مقتبسة من أنوارك. ؟ فلماذا يأمر السيد البكرى بترك أورادى. ؟ فقال البكرى: يا رسول الله، رجل سلك على أيدينا وتوليننا تريته، أيجوز له أن يهجر أورادنا ويقرأ أوراد غيرنا. ؟ ويقول الراوى إن رسول الله قد أبى أن يفصل في أمرهم وأشار عليهم بعمل القرعة. ١١ ورأى الكردي في رؤيا وقعت له في الليلة التالية، أن أبا بكر الصديق يشير عليه باتباع السيد البكرى، ورأى بين السماء والأرض ورده وقد كتب بحروف بحسمة من النور، فأنشرح صدره وهجر القصيرى بعد ذلك. (١)

على أن الأحزاب فيما نرى لا يميزها إلا اختلاف واضعيم لأنها أدعية يتوجهون فيها إلى الله، وصيغ مختلفة للصلاة على نبيه، وهى في الجملة حافلة بآيات من القرآن الكريم، والكثير من فقراتها يتكرر مرات يختلف عددها حتى ليلايخ الثمانين - كما في نرى حزب الشناوى (٢) أو الثلاثين كما نرى في حزب الشعرائى (٣) أو الثلاث مرات كما في حزب الجارحى وغيره (٤) بل لقد هدتنا المصادفة إلى أن حزب أبى السعود الجارحى مأخوذ كله - ماعدا خاتمته - من حزب الخصوصية للسادة الوفاية (٥) أو لعل الجزء الأول من الحزب الثانى هو المأخوذ من حزب الجارحى، فما ندرى التاريخ الذى وضع فيه حزب

(١) الجبلتى ج ٢ ص ٦٥ - ٦٦ ومن الواضح أن القصة مردها إلى حالة الكردي الشقية أثناء بقلته، في إعجابه بالخفاوى ومخاوفه من القصيرى واعتقاده في البكرية ... الخ

(٢) مجموعة الأحزاب ص ٢٤ (مخطوط)

(٣) مجموعة الأحزاب ص ٢٨

(٤) مجموعة الأحزاب ص ٣٣

(٥) مجموعة الأحزاب ص ٢٣ ثم ص ١٧٨ - ١٨٠

الوفائية هذا — وتلاحظ كذلك أن لبعض المتصوفة حزينين أو ثلاثة كما نرى عند زين العابدين البكري<sup>(١)</sup> ومحمد أبي الحسن البكري<sup>(٢)</sup> وغيرهما وقد يضع شيوخ البيت الواحد عدة أحزاب تتلى جيلا عن جيل كما نرى في بيت السادات البكرية والوفائية<sup>(٣)</sup> ووجوه التمايز بين الأحزاب لا تكاد تظهر في غير الصياغة اللفظية . ولهذا فإن أظهر الفروقات الأحزاب فيما يابح لنا هو اختلاف منشئها .

وبلى هذا في وجوه التفرقة بعض مظاهر أخرى هدتنا المصادفة إلى العثور على بعضها في بطون كتبهم ، منها ما رواه الجبرق عند الكلام على أهل البدع كجماعة العفيفي والسائي والعربي والميدوية إذ قال إن لهم طريقة خاصة بهم في ذكر الله ، فبهم من يتخلق ويذكر الجلالة ويحرفها وينشد له المانشدون القصائد والموالات ، ومنهم من يقول أيانا من بردة المديح للبوصيري ، ويجاوبهم آخرون مقابلون لهم بصيغة صلاة على النبي . وأما الميسوية فهم جماعة من المغاربة وما دخل فيهم من أهل الأهواء ينسبون إلى شيخ من أهل المغرب يقال له سيدي محمد بن عيسى وطريقتهم أنهم يجلسون قبال بعضهم صقن ويقولون كلاما معوجا بلغتهم بنغم وطريقة مشوا عليها وبين أيديهم طبول ودفوف يضربون عليها على النغم ضربا شديدا مع ارتفاع أصواتهم ، وتقف جماعة أخرى قبالة الذين يضربون بالدفوف فيضعون أكتافهم في أكتاف بعض لا يخرج واحد عن الآخر ويتلوون ويتصبون ويرتفعون وينخفضون ويضربون الأرض بأرجلهم كل ذلك مع الحركة العنيفة والقوة الزائدة بحيث لا يقوم هذا المقام إلا كل من عرف بالقوة وهذه الحركات والإيقاعات على نمط الضرب بالدفوف فيقع بالمسجد دورى عظيم

(١) مجموعة الأحزاب من + ١٢٠ ، ١٢٥ ، ١٥٣

(٢) مجموعة الأحزاب من + ١٨٢ ، ١٩٨ ، ٢٠٠ ، ٢١٣ ، ٢٥٣

(٣) تنظر مجموعة الأحزاب السالفة الذكر ، (فهرس رقم ١ المطبوع بدار الكشف في التصوف والعلوم الجبئية) .

وضجات من هؤلاء ومن غيرهم من جماعة الفقراء كل أحد له طريقة تبين الأخرى، (١).

ويمتاز فقراء الخلوتية في ذكرهم وأورادهم بكثرة الاستغفار والتسبيح والصلاة على النبي، ولهم في ذلك صيغ يرددونها فصلها الذين أرخوا هذه الطريقة (٢) أما طريقة تلقينهم للذكر فخير ما يميزها تردد الأسماء السبعة على نمط مخصوص وفي فترات متقطعة والأسماء الستة الأولى في الأذن اليسرى وهي: لا إله إلا الله وقد عرفنا كيف تردد ثلاث مرات مع إغماض العينين ثم: الله - هو - حق - - حتى قيام يوم - ثم الاسم السابع في الأذن اليمنى وهو قهار - وقد أبان الترديد الطريقة التي تلقنها بها من الحفناوى المعروف (٣).

ولقد كان للسادات الدرناشية والخلوتية والساوية طريقة في ذكر الله، فمقدرونها عن عبد القى النابلسي وقلنا إنهم كانوا يقدمون للذكر محلقين ثم يدورون وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض، وذكروا الله في رقصة يسمونها المهرية قائلين هو هو هو هو (٤) وكان بعضهم يركبون أيديهم إلى الوراء أمام رؤوسهم ويحركونها بالتصعيد والتسفييل والتلوى على هيئة لعبة يسميها النصارى ركض الديك. كما يقول محمد بن صفى الدين الحنفى (٥).

وكان أظهر ما يميز الفقراء السعدية إكثارهم من ذكر الله، حتى إذا طالب لهم الذكر تواجدا واضطربوا واستأفطوا على الأرض كالخشب المسندة لا يقوون على النهوض بل لا يستطيعون حراكا حتى يقوم نقيب الشيخ بكبس أيديهم وأرجلهم وإنهاضهم على بركة شيخهم، ومن كرامات بعضهم في هذه الحال

(١) الجبرتي ج ٣ ص ١١

(٢) الطريقة الصاوية ص ١٦ وما بعدها

(٣) الطريقة الصاوية ص ٣١ وما بعدها

(٤) رحلة النابلسي من ص ١٣٤ إلى ١٣٥

(٥) الساعة المحرقة ص ٢



إخراج سائل ملون بالأحمر والأبيض أو الأصفر من أيديهم ومواضع أخرى في أجسامهم دون أن يصيبهم جرح أو يكون فيهم منفذ لذلك .. (١)  
ولعل العرق الناشئ عن الجهد، قد لوّثه قدرة البشرة أو الدم الذي ينبثق من جروح تنشأ عن عتف الحركات ..

والظاهر أن البرهامية كانت تتميز في عبادتها بذكر الله بصيغة يادائم، فقد قال الشعراؤ في ترجمة عبد العال المجذوب: «ورأيت مرة وهو صاعد كوم بلده فقات في سري ياترى هل هو أحمدى أم برهامى فصاح: يادائم يادائم يشير إلى أنه برهامى» (٢).

ويرجع الدكتور عفيفي القول بأن الملامية لم يكن لهم طريقة منظمة وقواعد ثابتة مقررّة وأتباع ينتمون إلى المشايخ إتهاء أهل الطرق المتأخرين، واسكن كانت لهم صفاب وآداب تكتفي في التمييز بينهم وبين طوائف الصوفية الأخرى من عاصروهم أو عاشوا بعدهم» (٣).

وفي السهروردي (٤) والمقريزي (٥) تفرقة بين الملامية والقلندرية جاء فيها: «أن الملامتي يعمل في كتم العبادات والقلندري يعمل في تخريب العادات واللامتي يتعمك بكل أبواب البر والخير ويرى الفضل فيه إلا أنه يخفى أحواله وأعماله ويوقف نفسه مرقف العوام في هيئته وملبوسه استرا للعال حتى لا يفتن له وهو مع ذلك متطلع إلى المزيد من العبادات، والقلندري لا يتقيد بهيئة ولا يبالي بما يعرف من حاله وما لا يعرف ولا يتعطف إلا على طيب القلوب وهو رأس ماله، والظاهر أن حال الملامية لم يتغير كثيرا في العصر العثماني عما كان عليه أيام المقريزي، فالشعراؤ يقولون إنهم يقللون النوافل مخافة الغرور (٦) وإن كان قد ذكرهم في كتاب آخر بين الفرق التي لا تتقيد بمظاهر الكتاب

(١) النصرة الالهية للطائفة السعدية

(٢) الطبايع الكبرى ج ٢ ص ١٦١

(٣) أبو الملائق: الملامية والصوفية وأهل الفتوة ص ١١

(٤) عوارف المعارف ص ٤٣ (على هامش ج ٢ من الأحياء)

(٥) مخطط المقريزي ج ٤ ص ٣٠١

(٦) البحر المورود ص ٢٨١

والسنة<sup>(١)</sup> وإن كان ابن عربي « يرفعهم — في فتوحاته — إلى مقام في الولاية لا يدانيهم فيه أحد » فيما يقول الدكتور عقيقي .

وكان فقراء المطاوعة يجتمعون في حلقات الذكر ويتخذون لهم مغنين من الرجال ومساعدين يدقون الطبول ويضربون الكؤوس وأولاداً يجلسونهم وراء الذاكرين حتى إذا اشتدت حماسة الذكر هجم عليهم الأولاد واحتضنوه من الخلف يميناً وبركة ، وكانوا إذا ساروا وضعوا فوق رؤسهم أو على جنوبهم « ملاحف وسراويل » ، فإذا انطلق الفقراء في الطرقات نشروا راياتهم ودقوا طبولهم وضربوا على كؤوسهم وكان لموكلهم صنعة عظيمة ، وقد كانوا يتخذون « أباريق » يملأونها بالماء ويحملونها في أيديهم كلما ساروا ليتطهروا منها بين الحين والحين ، وسبعا كبيرة من الخشب أو العظام أو نحو ذلك ، وسيوفا من الخشب ومزاريق من الحديد وطواق من السعف وطراظير يضعون عليها الودع والريش والخرق الحمراء وغيرها<sup>(٢)</sup>.

ويعبر الجبرقي عن الأحمدية والرفاعية والقادرية والبرهامية بأنهم من أصحاب الأَشَاير<sup>(٣)</sup> والمراد بالأشَاير كما يقول على مبارك جموع كثيرة من أهل الطرق يسировن من منازلهم ليلاً وبأيديهم الشموع وهم رانعوا الأصوات بالذكر والتهليل والصلاة والسلام على سيد المرسلين (ص) ولا يزالون كذلك حتى يصلوا إلى الشريح أو محل الاحتفال بالمولد ، وبعضهم طادات من الخلو أو الشموع توزع عليهم حين وصولهم بعضها مقرر من الأوقاف وبعضها من مشايخ خدمة الأضرحة<sup>(٤)</sup>.

واشتهر فقراء السعدية والرفاعية بحوادثهم مع الثعابين ، ولعل الرفاعية كانت أشهر الطرق بالكرامات التي تقوم على طعن النفس بالمدى في حالة الغيوبة وأكل الزجاج والقبض على الحديد المحمى ودخول النار وازدراء

(١) قواعد الصوفية ص ١٧٥ (مخطوط)

(٢) فتوى الشيخ على الصيدي (مخطوط)

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٨٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٤) المخطوط التوفيقية ج ٣ ص ١٣١

الآفაცი وغير ذلك مما لا نزال نرى الكثير منه <sup>(١)</sup> وإن كانت لائحة الطرق الحالية قد حرمتها على فاعليه .

ومن أظهر مميزاتهم : البيعة وتلقين الذكر ، وكانت طريقتهم في الأولى أن الطالب إذا وفد على شيخهم أمره هذا بأن يتوضأ ويصلي ركعتين بنية التوبة والإجابة ثم يجلس المرشد ( الشيخ ) مستقبلاً القبلة جاثياً على ركبتيه بالأدب والخشوع ويجلس الطالب أمامه لاصفاً ركبتيه ، ثم يقرأ الفاتحة ثلاث مرات ويأخذ المريد بعده ويقرأ قوله تعالى إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله ، يد الله فوق أيديهم فمن نكث فأنما ينكث على نفسه ... ثم يأمر المريد بأن يقول : أستغفر الله — أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأتوب إليه ، ثبت إلى الله ورجعت إلى الله ونهيت نفسي عما نهى الله ، ورضيتك شيخنا لي ومرشداً لطريقة الرفاعي — فيقول له المرشد : وأما أفتك مريداً بهذه الطريقة العلية وعلى هذا العهد المبارك ثم يقول له : قم مريداً في هذه الطريقة . أما طريقتهم في تلقين الذكر فلا تكاد تختلف عما أسلفناه من حيث تردد لا إله إلا الله ثلاث مرات مغمض العينين ، وإن رأوا مد الصوت في أول الكلمة من الكتف اليمنى إلى جهة الروح — تحت الثدي اليمنى . الحق يقره هاء لفظة الجلالة في القلب الكائن تحت الثدي اليسرى باصبعين فإذا أتمها المرشد وضع يده على جبهة الطالب ويده على صدره ودعا له بالتوفيق والإخلاص والبركة . ثم ... إلى آخر ما كتبه مؤرخو الطريقة بهذا الصدد مع ذكر أورادهم الخاصة بهم والأدعية التي ألفوا تلاوتها <sup>(٢)</sup> .

أما الطريقة النفشبندية فإن طريقة أخذ العهد عند أهلها أن يجلس المريد بين يدي شيخه متوركا عكس تورك الصلاة فيبين له الشيخ محل القلب

(١) الأستاذ ابن عس ٢٤٨ — ٢٤٩ ، الغارة الإلهية في الانتصار للسادة الرفاعية ص ٣٦٣ والكتاب كله متعب على متكرري هذا النوع من الكرامات .  
(٢) القواعد المرجعية في أصول الطريقة الرفاعية .

الصنوبري الشكل الكائن تحت التمدى اليسرى بأصبعين ثم يستغفر الشيخ ربه والمرید يتابعه خمسا وعشرين مرة ثم يقرأ الشيخ الفاتحة مرة وسورة الاخلاص ثلاث مرات ويهدي مثل ثوابهما إلى صحيفة النبي وصحيفة إمام الطريقة محمد الادريسي المعروف بشاه نقشبند ثم يأمر المرید أن يغمض عينيه وينظر بخياله إلى قلبه ويتوجه إليه على النحو المعروف عندهم ، ثم يلقنه ما يناسب استعدادة من أذكار نراها منشورة في الكتب التي تناولت آداب هذه الطريقة (١) ومن هذا ترى أن الفوارق في هذا الصدد شكلية تافهة .

وفي كتاب الأستاذ لين ، وصف ظريف لما كانت تفعله بعض الطوائف كالسعدية والشناوية في المولد النبوي وغيره من موالد كبار الأولياء .

والواقع أن الفوارق بين الطرق لم تكن جوهرية في هذا العصر ، فقد كان الشائع بينهم أن يجمع الفقير بين عدة طرق ، وإن كره الأشياخ لمريديهم أن يأخذوا على شيخين مهما كان السبب الذي يبررون به هذا المسلك . فقد جمع عبد الحى زين العابدين الحسيني + ١١٨١ بين الطرق الشاذلية والأحمدية والشناوية (٢) وجمع على البيومي + ١١٨٣ بين الخلوتية والشاذلية والدمرداشية والأحمدية (٣) وجمع الشعرائي + ٩٧٣ بين ست وعشرين طريقة بسطنا أسماءها فيها سلف ، وجمع الدردير + ١٢٠١ بين الخلوتية والشاذلية والنقشبندية (٤) .

### تلاشي الفروق بين الطوائف :

وعما يشهد بأن مميزات الطرق ليست شرطا في وجودها ما نراه من التطور الذي آلت إليه طريقة الذكر عند الطرق جميعها ، فإن لائحة الطرق الصوفية في وقتنا الحاضر تقضى بأن يكون الذكر تمجيدا لله ، صريحا قياما أو قودا مع

(١) آداب النقشبندية ص ٤٠ — ٤١

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٢٨٩

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٣٢٩ وطبقات الشاذلية ١٤٢

(٤) طبقات الشاذلية ص ١٥٥ — ١٥٦

الخشوع والوقار<sup>(١)</sup> وهذا التحديد قد أفقد العيسوية وأخواتها من الفرق المشابهة أكبر ميز لها كما روينا عن الجبرقي وغيره الآن، والفرق كلها مضطرة الى الخضوع لهذا التحديد وإلا أعلن المجلس الصوفي فصلها وقضى بذلك على وجودها كما تنص لائحة الاجراءات الداخلية<sup>(٢)</sup> وكذلك نقول في الرفاعية التي عرفنا الآن أعظم خصائصها، فإن اللائحة السالفة الذكر تقول: يبعد عن الطرق الصوفية كل من اتصف بأعمال مناقضة للأعمال والآداب الشرعية كضرب الجسم بالسلاح وأكل الحشرات والحوام ودرس الأنام بالأنعام ونحوها والذكر بجثة الرقص والنخبط وعدم استكمال الحروف فيه وإنشاد الأغاني المخنة بالآداب عليه، وإقامة الزار في الأضرحة ونحو ذلك<sup>(٣)</sup> وفي ذلك ما يسلب الخلوتية والدمرداشية والشناوية وغيرهم ميزا خاصا بهم في طريقة الذكر وهو الرقص كما روينا عن عبد الغنى النابلسي وغيره من قبل.

وأهل شعور أهل التصوف بمسألة الفارق بين طريقة وطريقة، هو الذي حملهم على أن يضعوا في لائحة الاجراءات الداخلية هذه المادة، يجوز زيادة طريقة جديدة متى كانت الطريقة المستجدة لانتساب طريقة من الطرق الموجودة في اسمها واصطلاحها<sup>(٤)</sup> فكان الخلاف الوحيد الذي يبرر استقلال طريقة أو قيامها هو الاسم والاصطلاح. بل إن وجود لائحة تدير عليها جميع الطرق وتحديد طرق العبادة على النحو الذي أسلفنا بعضه، كفيل بالقضاء على أكثر مميزات الفرق بعضها عن بعض. وقد أسلفت رأى صاحب السماحة شيخ مشايخ الطرق السابق في هذا الصدد.

بل لماذا نقول إن الفوارق بين الفرق اليوم قد تلاشت ولا نقول إن اللائحة التي وضعها أهل التصوف قد ألغت الفروق بين الصوفية والفقهاء...؟

(١) لائحة الاجراءات الداخلية المادة الثالثة من الباب الخامس من ١٨

(٢) المادة الرابعة من الباب الثاني من ١٢

(٣) المادة الثانية من الباب الخامس من ١٢

(٤) ١ - الخامسة ٢ - الباب الثاني من ١٢

أليست تقول إن التصوف لا مقصد له غير العلم بالشرع والعمل به <sup>(١)</sup> . قساً  
هي دعوى رجال الفقه إن لم تكن كذلك ؟ وإذا كانت الفوارق بين الطرق  
التي تعيش اليوم بين ظهرانينا مجهولة حتى عند أهلها ، فكيف لا يصعب البحث  
عن المميزات التي كانت للطوائف عند مئات السنين ... ؟ وأي طوائف ... ؟  
هي التي هدتنا المصادفة إلى العثور على نحو ثمانين من أسمائها ، فكيف لا يتعذر  
على الباحث معرفة الفروق التي تميز كلا منها .. ؟

والآن نتساءل : ألم يكن لهذه الفرق التي بلغت هذا العدد الرهيب رئيس  
عام يوحد كلمتها وينظم علاقتها ويفصل في مشاكلها ... ؟ ذلك ما نتناول الحديث  
عنه في الفصل التالي :

---

(١) المادة الأولى من الباب الخامس من لائحة الإجراءات من ١٧

## الفصل الرابع

### مشيخه مشايخ الطرق الصوفية

#### بالديار المصرية

رأى جرجى زيدان في نشأتها بمصر وبلغ الخطأ في مزاعمه —  
رأى السيد توفيق البكري ومدى الخطأ فيه — نشأة هذا القلق في مصر  
قبل العصر الممالي — فلاشئ القلق في العصر الممالي .

تمهيد

عرفنا كيف كثرت الطرق الصوفية في مصر حتى بلغ عديد أسمائها التي  
هدتنا المصادفة إلى العثور عليها نحو الثمانين فرقة، كان لكل منها معسكرات قائمة  
في القرى والأقاليم ، واستبد نفوذها بهوى الآلاف من الأنباغ والمريدين ،  
وامتد سلطان كبار شيوخها حتى ارتفعوا فوق قواعد الدين ومقتضيات التقاليد  
ونظم الدولة . . . ١١٠ ودان بالولاء لهم حكام البلاد وعلماء الدين وعامة الشعب  
جميعا ، فكان طبيعيا بعد هذا أن تفكر الدولة في توحيد الزعامة التي تخضع لها  
هذه الطرق ، حتى تأمن شرها وتنتفى عصيانها وتضمن سيادتها على أرض  
البلاد . . . ١٠ ولم يكن بعيد الاحتمال أن يخضعوا جميعا من تلقاء أنفسهم لرئيس  
واحد يتخيرونه ، ليتكلم باسمهم ويفصل في مشاكلهم وينظم علاقتهم .

ومشيخه مشايخ الطرق في وقتنا الحاضر يشغلها بأمر ملكي ، شيخ السجادة  
البكرية ( والوفائية منذ جمع سماحة المرحوم السيد عبد الحميد البكري بين  
المشيختين ) وقد استحوذ البكرية على هذه الوظيفة لأن بيتهم أعرق بيوت  
التصوف في مصر وأقدمها جميعا ، فهو منحدر عن أبي بكر الصديق ، وتاريخ  
نشأته في مصر يرجع إلى الفتح الاسلامي كما يقول علي مبارك <sup>(١)</sup> ويؤكد

السيد توفيق البكري<sup>(١)</sup> . وتقضى لائحة الطرق الصوفية بأن يجتمع مشايخ الطرق في القطر المصري في هيئة جمعية عمومية بديوان محافظة مصر تحت رئاسة المحافظ لانتخاب مجلس أعلى يتألف من شيخ السجادة البكرية رئيساً للمجلس ، وأربعة أعضاء يختارهم الرئيس من بين ثمانية ترشحهم الجمعية العمومية<sup>(٢)</sup> . وعمل المجلس تعيين مشايخ الطرق ورفعهم من وظائفهم والفصل في منازعاتهم الخاصة بالطرق ، والحكم في الشكاوى التي تثار في هذا الصدد ، وعزل مشايخ بعض الأضرحة والتكايا والسجاجيد على نحو ما أوضحت لائحة الطرق الصوفية<sup>(٣)</sup> . هذا مظهر التوحيد في رئاسة الطرق الصوفية في يومنا الحاضر . فهل توحدت رئاسة الطرق الصوفية في مصر إبان العصر العثماني ؟ ذلك ما زعمه بعض المؤرخين الذين تعرضوا لتاريخ مشيخة مشايخ الطرق في مصر ، بل أرخ بعض هؤلاء المؤرخين نشأتها قبل العصر العثماني ، فما مبلغ الخطأ أو الصواب فيما يزعمون ؟

رأى جرجي زيدان وصانقة مزاعمه :

قال جرجي زيدان ، ولم يكن للصوفية مشيخة عامة ترجع لها أعمالهم وتتوجه بها مقاصدهم ، بل كانت كل طريقة أو زاوية مستقلة بنفسها ، فكانت تكثر بسبب ذلك الفتن ، فلما أنشأ السلطان صلاح الدين الأيوبي خانقاه سعيد السعداء وسماها دويرة الصوفية ، جعل لشيخها شبه تقدم على غيره من المشايخ ، وكان لا يولى عليها إلا أعظم رجال الدولة من الأكابر والأعيان .. وما زالت الحال كذلك إلى أن توحدت رئاسة الصوفية بمصر في القرن التاسع الهجري ، فجعلت الولاية فيها للسيد محمد شمس الدين البكري ، وكان من أعظم رجال عصره علما ودينا . قال الشعراني عنه (ولو قلت إنه أعلم أهل زمانه لم أبعد عن الصواب) ثم تولى بعده ابنه الإمام شيخ الإسلام العلامة الشهير

(١) بيت الصديق ص ١٩

(٢) المادة الثالثة من لائحة الطرق الصوفية ص ٣ ، ٤

(٣) المادتان الأولى والثانية من لائحة الطرق الصوفية ص ٣



أبو السرور البكرى ، وانتقلت بعده إلى ذريته ، ولا تزال إلى الآن في البيت  
البكرى الصديقي بمصر .<sup>(١)</sup>

وهذا كلام سطحي يتطوى على أخطائه تزيد على الثمانية فيما يلوح ! فلنشرح  
هذا قليلا :

فالفقرة الأولى من كلامه تنطوى على مقالتين ، لأنها تفرض قيام  
الزوايا في مصر قبل خائفاء سعيد السعداء — وذلك غير صحيح فيما نعلم —  
لأن هذه الخائفاء قد استجالت إلى دويرة للصوفية عام تسع وستين وخمسةائة  
للهجرة كما عرفنا ، بينما نلاحظ أن الزوايا التي ذكرها المقرئ في خططله —  
وبلغت الست وعشرين عدا — ليس بينها زاوية واحدة نشأت في مصر قبل  
القرن السابع الهجرى ، ولو وجدت هذه الزاوية ما أهمها في تاريخها الزوايا .  
ثم إن هذه الفقرة تنص على خشية الدولة من الفتن التي كان يثيرها أهل  
التصوف في هذا العصر ، ومن الراجح أن صوفية هذا العصر كانوا قلة  
لاخطر لما . كان التصوف في جملة إلى هذا العهد ظاهرة نفسية فردية ، لم تتحول  
بعد إلى ظاهرة اجتماعية ، يشترك فيها الجماعات والطوائف ، ويمكن أن  
يكون هذا مثارا للفتن ومصدرا للخطر . . ولما أنشئت أول خائفاء جمعت  
للوادرين إلى مصر من البلاد الشاسعة كما عرفنا ، وجل الزايا والربط والخوانق  
التي عرضنا للكلام عنها في الفصل السالف ، قد أقام فيها الأعاجم والأجاش  
وغيرهم من نزلاء مصر . وقد ظل عدد الدراويش المتجولين في شوارع مصر  
من الفرس والأتراك أكبر من عدد المتجولين من الدراويش المصريين إلى  
ما بعد انقضاء العصر العثماني — كما أشار إلى ذلك الأستاذ لين ،<sup>(٢)</sup> — ولا نظن  
أن هؤلاء النزلاء كانوا من الكثرة في هذا العصر بحيث تخشى الدولة بأسهم

(١) تاريخ القديس الاسلامي ج ١ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ ، بيت الصديق ص ٣٧١ — ٣٧٢  
وردد هذا الرأي زميلنا الدكتور محمد مصطفى حلمي في كتابه « ابن الفارض والمطلب الالهى »  
ص ١٥ — ١٦

وترهب فتنتهم ، فمن الخطأ بعد هذا أن يتحدث جرجي زيدان عن استقلال الروايات أو خطورة الفتن قبل خاتفاء سعيد السعداء .

والفقرة الثانية من كلامه تنطوي كذلك على مغالطتين أخريين : فأنها تنص على أن صلاح الدين قد أنشأ ، خاتفاء سعيد السعداء ومماها دورة الصوفية ، وأدق من هذا أن يقال إنه حوّلها إلى خاتفاء ، فقد كانت داراً معروفة منذ العصر الفاطمي . وثاني الخطأين دعواه بأن صلاح الدين قد جعل لشيخ هذه الخاتفاء شبه تقدم على غيره من المشايخ ( أى مشايخ الطرق التي تحدث عنها في فقرته الأولى ) والراجح أن شيخ الخاتفاء كان يسمى شيخ الشيوخ ، وأريد بهذا التعبير الشيوخ المقيمون في الخاتفاء ، إذ كان كل فقير منهم شيخاً لأنه يدرس الدين ويتقطع لعبادته والعمل بأوامره ونواهيه ، ولم توجد في الوقت الذي أطلق عليه هذا اللقب خوانق أو ربط أو زوايا حتى يجوز الظن بأن المراد بهذا اللقب شيخ شيوخ الخوانق والربط والزوايا الأخرى .

أما الفقرة الأخيرة فتنتوي على أربعة أخطاء : لأنها تنص على أن رئاسة الصوفية قد توحدت في القرن التاسع ، وذلك ما سنكشف عن بطلانه فيما يلي من حديث ، ونزعم بأن السيد محمد شمس الدين البكري قد تولى هذه الرئاسة في القرن التاسع ، وأنه والد أبي السرور البكري ، مع أن محمد شمس الدين الذي عاش في القرن التاسع ( + ٨٤٧ وهو الحنفى )<sup>(١)</sup> لم يكن أباً لأبي السرور البكري ( ولد سنة ٩٧١ ومات سنة ١٠٠٧ )<sup>(٢)</sup> فإن أباه هو السيد محمد أبو المكارم زين العابدين أبيض الوجه ، وقد ولد سنة ٩٣٠ ومات عام ٩٩٤ هـ على ما يروى على مبارك<sup>(٣)</sup> وهو الشهير بالبكري الكبير في كتب التاريخ والطبقات والمناقب ، وهو الذي قال فيه الشعرائي إن الناس قد أجمعوا على أن

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٤٨٩ بيت الصديق ص ٢١٣

(٢) الغلط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٦

(٣) بيت الصديق ص ٧٤ ، الغلط التوفيقية ج ٢ ص ١٢٦ والكواكب المائرة

ج ٣ ص ١١٢ ولكن البديري يقول إنه مات سنة ٩٩٣ هـ ( النور السافر ص ٤١٤ ) .

ليس على وجه الأرض بلدة أكثر علماً من مصر ولا في مصر مثله <sup>(١)</sup> فإذا عدنا إلى الذين ترجحوا هذين الرجلين والتقينا عندهم صحة ما يدعيه الأستاذ زيدان ، رجح عندنا الظن بخطئه فيما يذهب إليه ، فإن كتاب التراجم في هذا العصر وما بعده ، كانوا أسخياء في خلع الألقاب على من ترجحوا لهم ولو أن أحد هذين الرجلين استحوذ على أقب مشيخة المشايخ ما أهملها الذين ترجحوا حياته ، ولدينا من عرضوا لترجيحهما — الشعراني والمناوي ومحمد أبو السرور البكري وعلى مبارك وصاحب النور السافر ومؤلف الإعلام بأعلام بيت الله الحرام والسيد توفيق البكري ... الخ وليس في كلام واحد منهم ما يؤيد دعوى الأستاذ زيدان <sup>(٢)</sup> . وسنروى عن بعض هؤلاء المؤرخين تصورها تشهد بأن الزعامة قد تنازعها غير هذين الرجلين في عصرهما . . . وقول الشعراني عن السيد محمد شمس الدين إنه أعلم أهل زمانه ، ليس دليلاً على أنه كان شيخاً للمشايخ ، بل تشهد بسعة علمه في عرف الشعراني ، وسنعرف بعد قليل أن مشيخة المشايخ لم تنتقل إلى ابنه ويوارثها ذريته من بعده كما يقول الأستاذ .

رأى السيد توفيق البكري ومنافسته : هذا الكلام السطلي الذي لا ينهض فيه صاحبه من خطأ حتى يسقط في خطأ آخر ، قد صادف قبولاً عند بعض المؤرخين كالسيد توفيق البكري الذي يرويه على علته ولا يعلق عليه بكثير ولا قليل ، بل يستند إليه في تأريخ البيت البكري ويؤثر ما جاء به على ما ذكرته عن أفراد هذا البيت كافة كتب التاريخ والطبقات فترجموا القرون التاسع ( السخاوي ) <sup>(٣)</sup> والعاشر ( الغزي والعبدرومي والشبلي ) <sup>(٤)</sup> والحادي عشر

(١) بيت الصديق ص ٧٤

(٢) بيت الصديق ص ٧٣ — ٧٨ أمثلة لذلك .

(٣) الضوء اللامع في أخبار القرن التاسع (تسعة أجزاء) .

(٤) الكواكب النائرة بمناب آعيان المائة العاشرة (ثلاثة أجزاء) والنور السافر في أخبار القرن العاشر ، السنا الباهر بتكميل النور السافر .

(الحجى) (١) والثاني عشر (المرادى) (٢) إلى غيرهم من المؤرخين وكتاب التاريخ والطبقات كالجبرى وابن اياس وأبى السرور البكرى والشعرافى بطبقاته الكبرى والوسطى والصغرى والمنائى بطبقاته الكبرى والوسطى وغيرهم ، لم يشيروا قط إلى وجود شيء اسمه مشيخة المشايخ فى البيت البكرى أو غيره من بيوت التصوف فى مصر . ولكن السيد توفيق البكرى يقول مؤرخا بيت الصديق إن وظائف هذا البيت من قديم الزمان ثلاث : مشيخة السجادة البكرية ومشيخة المشايخ الصوفية ونقابة الأشراف (٣) . ويصر عند الكلام على مشيخة السجادة البكرية على أن من ، حقوقها القديمة وأصولها المستديمة أن يتولى صاحبها مشيخة المشايخ الصوفية ، ولم يقل لنا السيد توفيق متى يبدأ فى عرفه ، قديم الزمان ، الذى استحوذ فيه البكرية على هذا اللقب .

على أن السيد توفيق وإن كان يروى رأى جرجى زيدان من غير تعليق إلا أنه لم يجرؤ على خلع هذا اللقب على جميع أفراد البيت البكرى وأفرع دوحته منذ القرن التاسع إلى يومنا الحاضر كما رأى صاحبه ، وإنما تبرع بخلقه على بعض من عاشوا فى مصر منذ القرن الثانى عشر الهجرى ، والغريب أنه ضن به على أهل القرن التاسع والعاشر والحادى عشر ، بل بخل به حتى على الذين أثبتت الضجة التى أسلفتها الآن من أجلهم ، من محمد شمس الدين البكرى (٤) ، وأبى السرور البكرى (٥) ومحمد شمس الدين الحنفى (٦) بما يشهد بضمف ثقته فى مزاعم المرحوم جرجى زيدان ، وإن لم يصرح بذلك

فلتعرض لمن سماهم السيد توفيق شيوخ المشايخ من أهل القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لنرى مبلغ الصدق أو مدى الخطأ فى دعواه :

(١) خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى عشر (أربعة أجزاء) .

(٢) سلك الدرر فى أعيان القرن الثانى عشر (أربعة أجزاء) .

(٣) بيت الصديق ص ٣٦٦ (٤) بيت الصديق ص ٣٦٦

(٥) بيت الصديق ص ٧٣ (٦) بيت الصديق ص ٧٠

(٦) بيت الصديق ص ٢٠٤ وما بعدها .

نلاحظ أنه خلع اللقب على أربعة من أهل القرنين الثاني عشر هم السيد أبو المواهب البكرى المتوفى سنة خمس وعشرين ومائة وألف<sup>(١)</sup> والشيخ أحمد البكرى المتوفى سنة ثلاثة وخمسين ومائة وألف<sup>(٢)</sup> والشيخ أحمد بن عبد المنعم البكرى المتوفى سنة خمس وتسعين ومائة وألف<sup>(٣)</sup> والسيد محمد البكرى الكبير المتوفى سنة ست وتسعين ومائة وألف<sup>(٤)</sup>. فلاحظ أن السيد توفيق يضع في عنوان ترجمة كل واحد من هؤلاء الأربعة لقب شيخ المشايخ! فإذا أنعمنا النظر فيما يكتبه عن كل منهم رأيناه يقول في ترجمته الأولى: «هو شيخ الإسلام وعلامة الأنام نولى السجادة البكرية التي من حقوقها مشيخة المشايخ الصوفية وأحيا معالم الطريق والإرشاد بمصر في المعقول والمنقول وعلوم القوم توفى سنة ١١٢٥ ودفن بزاويته» ولم يشر السيد توفيق إلى المصدر الذي استقى منه كلامه كما فعل في أكثر التراجم التي ضمنها كتابه، ولهذا دلالته ومفزاه. ويروى عن ثانيهم وهو الشيخ أحمد البكرى وثالثهم وهو أحمد عبد المنعم البكرى، نص ما ذكره الجبرتي في ترجمتهما دون أن يزيد عليه كثيرا ولا قليلا، وما يقوله الجبرتي عنهما خلو من كل إشارة إلى مشيخة المشايخ التي تبرع السيد توفيق بخلمها عليهما في عنوان الترجمتين من غير مبرر... ثم يروى عن رابعهم وهو محمد البكرى الكبير<sup>(٥)</sup> نص ما يقوله الجبرتي كذلك فإذا النص لا يخلو من الإشارة إلى مشيخة المشايخ فحسب، بل يقطع وجه الشك في أمرها فيقول «ولما توفى ابن عمه الشيخ أحمد شيخ السجادة البكرية تولاه بعده بأجماع الخاص والعام مضافة لنفاية الأشراف فحاز فخارا المنصيين

(١) بيت الصديق ص ٤٠

(٢) بيت الصديق ص ١٦٠

(٣) بيت الصديق ص ١٤٠

(٤) بيت الصديق ص ١٣٨

(٥) قال علي مبارك في خطبته ج ٣ ص ١٢٦ ان الكبير لقب يطلق في كتب التاريخ والطبقات والناقب على محمد أبي المكارم زين العابدين أيضا الوجه المتوفى سنة ١١٩٦

وأكمل له فضل الشرفين ، ولم يبق في ذلك إلا نحو ستة ونصف وتوفي ، فلو أنه  
تولى مشيخة المشايخ لنص عليها الجبرتي أو أشار إليها . وكذلك يقول في السيد  
محمد البكري الصغير + ١٢٠٨ والذي وضع السيد توفيق في رأس ترجمته لقب  
شيخ المشايخ ، ثم أورد نص الجبرتي فيه من غير نقص ولا زيادة ، فإدائه  
السيد محمد البكري أفندي الصديقي شيخ سعادة السادة البكرية ونقيب  
الأشراف بمصر المحمية ، تقلد بعد والده المنصبين وورث عنه السيادتين ،<sup>(١)</sup>  
وكذلك الحال في السيد خليل البكري + سنة ١٢٢٣ هـ<sup>(٢)</sup> .

ومن هذا نرى أن السيد توفيق كان يتبرع من عنده بلقب شيخ  
المشايخ ويضعه في عنوان تراجمه ، وليس في التراجم قط إشارة  
تبرر وضعه .

نستطيع الآن أن نقرر ونحن على شيء كثير من اطمئنان اليقين ، أن  
العصر العثماني قد انقضى بقرونه الثلاثة دون أن يعرف أهل التصوف في  
مصر رئيساً قذا لهم ، يوحد كلمتهم ويفصل في مشاكلهم .

### نشأة اللقب قبل العصر العثماني :

لا ... بل لقد وجد هذا اللقب من قديم الزمان . منذ القرن السادس  
للمهجرة ، أي قبل دعوى جرجي زيدان بثلاثة قرون أو أربعة . بيد أن  
المعنى الذي يحمله كان يختلف عن المعنى الذي قصده به الأستاذ زيدان والسيد  
توفيق . قال المقرئ : فكانت « سعيد السعداء أول خانقاه عملت بمصر  
وعرفت بدويرة الصوفية ونعت شيخها بشيخ الشيوخ » ، واستمر في ذلك بعده  
إلى أن كانت الحوادث والمحن منذ سنة ست وثمانمائة وانقضت الأحوال  
وتلاشت الرتب فلقب كل شيخ خانقاه « بشيخ الشيوخ »<sup>(٣)</sup> ويقول في

(٢) بيت الصديق من ١٢٢ — ١٢٣

(١) بيت الصديق من ١٢٧

(٣) مخطوط المقرئ ج ٤ ص ٣٧٣

خانقاه سرياقوس ، قرر السلطان في مشيخة هذه الخانقاه الشيخ محمد الدين موسى بن أحمد بن محمود الاقصر اوى ولقبه بشيخ الشيوخ فصار يقال له ذلك ولكل من ولى بعده ، وكان قبل ذلك لا يلقب بشيخ الشيوخ إلا شيخ خانقاه سعيد السعداء ، (١) وكان ذلك عام ٧٢٥ هـ .

والظاهر أن المقرئى أراد أن يقول إن شيخ خانقاه سعيد السعداء كان يستحوذ وحده على لقب شيخ المشايخ منذ سنة ٥٦٩ هـ إلى سنة ٧٢٥ حين شاركه فيه شيخ خانقاه سرياقوس ، واستمرتا يتنازعان هذا اللقب إلى أن زحمت المحن وتلاشت الألقاب في مشتل القرن التاسع ، فاستولى على اللقب جميع شيوخ الحوائق التي كانت قائمة بمصر في هذا العهد .

وقد أيد القلقشندي كلام المقرئى فقال ، إن مشيخة الشيوخ كانت تطلق على مشيخة الخانقاه الصلاحية ( سعيد السعداء ) إلى أن بنى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الخانقاه الناصرية بسرياقوس ، فاستقرت مشيخة الشيوخ على من يكون شيخا بها ، والأمر على ذلك الآن ، (٢) - وقت كتابته صبح الأعشى

والظاهر أن شيخ خانقاه سرياقوس كان له شبه تقدم على سائر المشايخ ، لا في مصر وحدها بل في الشام وغيرها ، فقد أورد القلقشندي نسخة توقيع بمشيخة الشيوخ بسرياقوس فإذا فيها ، فلذلك رسم بالأمر الشريف ... أن يفوض إلى المشار إليه ( الشيخ نظام الدين الأصفهاني ) مشيخة الخانقاه السعيدة الناصرية بسرياقوس - فدى الله روح واقفها ومشيخة الشيوخ بالديار المصرية والبلاد الشامية والحلبية والفتوحات الساحلية وسائر الممالك الإسلامية المحروسة على عادته في ذلك ، وقاعدته ومعلومه ، وأن يكون ما يخص بيت المال المعمور من ميراث كل من يتوفى من الصوفية الخانقاه المذكورة للمشار إليه ، بحيث لا يكون لأمين الحكم ولالديوان المواريث معه في ذلك

(١) خطط المقرئى ج ٤ ص ٢٨٥

(٢) صبح الأمشى ج ١١ ص ٣٢٠

حديث، وتكون أمور الخانقاه المذكورة فيما يتعلق بالمشيخة وأحوال الصوفية راجعة إليه، ولا يكون لأحد من الحكم ولا من جهة الحسبة ولا القضاة في ذلك حديث معه، ولا يشهد أحد من الصوفية ولا ينتسب إلا بأذنه على العادة في ذلك... (١)

ومن هذا النص نستطيع أن نقول إن شيخ مشايخ خانقاه سرباقوس كان له شبه تقدم على غيره من المشايخ في مصر وغيرها من البلاد السالفة الذكر، إلا أن اختصاصه الفعلي كان مقصوراً على الصوفية المقيمين بخانقاه سرباقوس وحدها. والدلائل التي تحت أبدننا تنفي نفياً باتاً وجود شيخ مشايخ — طوال العصر العثماني خصوصاً — وظيفته التكلم على كافة الطرق الصوفية والتحدث باسمهم وتنظيم علاقاتهم والفصل في مشاكلهم على نحو ماذهب السيد توفيق وجرجي زيدان، ولا بأس من أن نسرّد بعض هذه الدلائل :

روى صاحب المناقب الكبرى (٢) أن شيخ الإسلام محمد شاه قد حبس الشيخ الغمري فاستغاث أقاربه بالشعراني ووسطوه لانقاذ السجين، فكتب الشعراني بطاقة إلى محمد شاه قال فيها : إن من أعظم بيوت سلاطين الأولياء والأقطاب بمصر أربعة : أولهم بيت السادات بنى الوفا..... وثانيهم بيت سيدى محمد شمس الدين الحنفى (وهو فرع الدوحة البكرية وقد توفى عام ٨٤٧) (٣)..... وثالثهم بيت سيدى مدين الأشموقى (تلميذ الحنفى) (٤) ورابعهم بيت سيدى أبى العباس الغمري (سنة ٩٠٥) (٥).

وفى هذا ما يشير إلى أن الزعامة لم تكن في بيت واحد.

(١) صبح الأعشى ج ١٦ ص ٣٧٥

(٢) المناقب الكبرى ص ٨٤

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ وجاء في طبقات الشاذلية ص ١٢٧ أنه ولد

سنة ٧٥٥ ومات سنة ٨٤٧ هـ

(٤) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٨٩ إلى ٩٠

(٥) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٧



ويقول المنائى + ١٠٣١ عندما عرض لترجمة الشيخ محمد كريم الدين الخلوٲى سنة ٩٨٦ هـ ، صار هو وشيخنا الشعرائى ( سنة ٩٧٣ )<sup>(١)</sup> شيخا ( يريد شيخى ) الديار المصرية ، وكان بينهما ما يكون بين الاقران<sup>(٢)</sup> ، ويلاحظ أن الشعرائى والخلوٲى اللذين كانا يتنارعان الرياسة ، قد عاصرها فيها محمد البكرى ( + ٩٩٦ هـ ) الذى عزا اليه جرجى زيدان مشيخة المشايخ فى أول أمرها .

ولقد كان الشعرائى إذا تحدث عن كبار الشيوخ فى القرن العاشر ، قال لهم محمد البكرى ( الكبير ) ومحمد كريم الدين الخلوٲى وخليفة الشيخ دمرداش وزين العابدين وخليفته الشيخ شاهين . . . وكل واحد من هؤلاء لو انفرد فى مصر وقراها ، لكفى الناس علما وأدبا وسلوكا<sup>(٣)</sup> ، ولو استحوذ أحدهم على زعامة رسمية أو معترف بها منهم ، ما أهمل ذكرها الشعرائى أو المنائى أو غيرهما .

أما فى القرن الحادى عشر فقد روى عبد الغنى النابلسى<sup>(٤)</sup> المتوفى سنة ١٠٣٣ هـ أن محمدا أبا المواهب زين العابدين البكرى<sup>(٥)</sup> كان له حكم الولاية فيها بطريق التوجيه من جهة السلطنة العلية ، وأن نائبه فى بلدة الخانقاه

---

( ١ ) المكواكب الدرية للمنائى ص ٤٠ ، خلاصة الأثر للمجى ج ٢ ص ٣٦٤ وتكميل النور السافر للشلى ص ٦٥٧ ، مادة Alshe'rani بمثابة الماروف الاسلامى للاستاذ شاخت ( وإن كان قد أخطأ فى تاريخ ميلاده فجملة سنة ٨٩٧ هـ ) وطبقات الشاذلية ص ١٤٢ — ولكن الغزى فى كواكب السائرة ج ٣ ص ٢٧٦ قالان الشعرائى قد مات فى حدود السبعين وسبعائة .

( ٢ ) الكواكب الدرية ص ٥٩٩

( ٣ ) بهجة النفوس ص ٨

( ٤ ) روى السيد توفيق أنه مات سنة ١١٤٣ ( ص ٤٠ بيت الصديق ) وكذلك روى على مبارك ج ٣ من خطه ص ١٢٥ وروى المحبى أنه مات سنة ١٠٣٢ ص ٤٢٣ من ج ٢ خلاصة الأثر وذكر المرادى فى سلك الدرر ج ٣ ص ١٣٧ أنه مات سنة ١١٤٣ هـ

( ٥ ) روى الجيترى أنه مات عام ١١٠٧ هـ وولد عام ١٠٦٠ ( ج ١ ص ٦٩ ) وروى السيد توفيق أنه ولد عام ١٠٥٠ ( بيت الصديق ص ٤٠ ) والأول أرجح وروى المرادى فى سلك الدرر ج ١ ص ١٥١ أنه مات سنة ١١٠٧ هـ

كان الميقاتي على ما عرفنا <sup>(١)</sup> وحسبنا في الدلالة على أن هذا التعبير لا يفيد استحواذه على مشيخة المشايخ، أن السيد توفيق الحريص على احتكار البيت البكرى لهذا اللقب، لم يخلعه على السيد محمد أبى المواهب زين العابدين <sup>(٢)</sup> رغم أنه اطلع على رحلة النابلسى المخطوطة، واقتبس منها جزءاً في كتابه، وكذلك لم يشر على مبارك في ترجمته إلى هذه المشيخة.

وقد تمياً للشيخ السادات (المتوفى سنة ١٢٢٨ هـ) نوع من السيادة الواضحة على الطرق ومشايخها في أواخر القرن الثانى عشر وأوائل الثالث عشر، وترجمة شتى الجبرقى تقول إن الزعامة قد أسلمت قيادها له بعد أن عز وجود منافس ينازعه في أمرها <sup>(٣)</sup>. وقد أظهر الجبرقى في هذه الترجمة — التى اطلع عليها السيد توفيق ونقلها في كتابه عن بيت السادات الوفائية <sup>(٤)</sup> — أن السيد محمد البكرى الصغير كان إلى جانب السادات كما مهملاً لا حساب له، ورغم ذلك يقول عنه السيد توفيق إنه كان شيخ المشايخ.

وإمل هذا يفسر لنا نصاً خداعاً رواه الجبرقى في ترجمة محمد أبى السعود البكرى الكبير إذ قال: ويتحكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشرار البدعية كالأحمدية والرفاعية والبرهامية والفادرية فيفصل بقوانينهم العادية، <sup>(٥)</sup> فإن ما يشبه هذا السلطان قد تمياً للشيخ السادات (الوفائى) بعد ممات محمد البكرى حتى كان يصدر أوامره إلى فرق الأحمدية والسعدية والشعبية بأن تمر بداره والأمراء بضيافته أيام المولد، فكان شيوخها ومريدوهم ينصاعون لأمره راضين أو كارهين.

وسنعرف في الباب التالى أنه بلغ من السطوة أن كان يمثل السلطين التشريعية والتنفيذية لابن طوائف المتصوفة وحدها، بل بين عامة الناس.

(١) رحلة النابلسى ص ٩٠

(٢) بيت الصديق ص ٤١

(٣) الجبرقى ج ٤ ص ١٩٩ — ٢٠٠

(٤) المخطوط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٥

(٥) الجبرقى ج ٤ ص ١٧٦ • بيت الصديق ص ٣٨

كذلك كما شعر ف عن « الأقطاب » الذين ظهروا في هذا العصر واستحوذوا على الزعامة في عصرهم ، وبسطوا سلطانهم على كافة الأولياء في مختلف بقاع البلاد . . .

ومن هذا نرى أن زعامة الطريق كانت لصاحب الشخصية القوية الأخاذة ، سواء أكان من بيت عريق معروف أم لم يكن كذلك ، ولعل أغلب الفترات التي مرت بمصر إبان هذا العصر ، كانت خلوا من هذه الشخصية التي تكره مشايخ الطرق على السعى لمَرْضَاتِهَا ، والانقياد لأمرها والسير في ركبائها .

بل لقد ورد في الإجابات التي رد بها حسين أفندي الروزنامي على الأسئلة التي وجهها إليه « ستيف » عقب الفتح الفرنسي ، أن أرباب السجاجيد في مصر أربعة ، هم الشيخ البكري وجده أبو بكر الصديق والشيخ السادات وجده الإمام علي والشيخ العناني وجده عمر بن الخطّاب والشيخ الحصري وجده الزبير . وأن مقامهم محفوظ ومكانتهم ملحوظة ، وأن المشورة لهم في جميع الأمور . . . ولم يشر قط إلى زعامة واحد منهم على أرباب الطريق <sup>(١)</sup> وقد أشار الأستاذ « لين » إلى أصحاب السجاجيد الأربعة ، ولكنه صرح بزعامة البكرية على جميع الطوائف في مصر <sup>(٢)</sup> ولكن ذلك لا يغير من حقيقة الأمر كثيرا ولا قليلا ، فإن الأستاذ « لين » قد نزل بمصر بعد انقضاء العصر العثماني بسبعة وثلاثين عاما ( ١٨٣٥ م ١٢٥٠ هـ ) وقد أورد السيد توفيق البكري فرمانا بتولية الوالي محمد علي باشا للسيد محمد البكري عام ١٢٢٧ هـ وفيه اعتراف بزعامته على الطوائف كلها ، وقد أهمل الجبرتي

(١) مقال الأستاذ الجليل شفيق غريال : مجلة كلية الآداب المجلد الرابع العدد الأول

سنة ١٩٢٨ ص ٢٥

(٢) كتاب الأستاذ « لين » السالف ص ٢٤٧ — ٢٤٨

(٣) بيت الصديق ص ٣٦٩

ذكر هذا فرمان<sup>(١)</sup>، ولكن نص الأستاذ لين «يرجح صحة هذا فرمان، وعلى هذا يكون قول «لين، إن للبكرى الزعامة على الطوائف كلها معقول إذا سلمنا بالفرمان السالف.

ولابأس من أن نشير الآن إلى أن التمييز بمشيخة المشايخ لم يرد في فرمان محمد علي ولا في فرمان الذي تلاه في عهد سعيد باشا عام ١٢٧١ هـ وإن نص فيهما على العمل الذي يقوم به اليوم شيخ المشايخ.

فهذا اللقب حديث عهد، ونسبته إلى العصر العثماني أو ما قبله نسبة بادية الخطأ، إذا أريد باللقب المعنى الذي يحمله في عصرنا الحاضر، ولعل السبب الذي أدى إلى وجوده في العصر الحديث، مرده إلى الرغبة في القضاء على البدع التي كانت شائعة بين أهله، وفشو الضيق بأساليبهم بعد أن تفتحت أذهان الناس ونزعوا إلى النقد، وإذن فقد كانت الفرق في مصر أثناء العصر العثماني مستقلة لا تخضع لزعامة واحدة — إذا استثنينا فترات تقصت وبين أهل التصوف — رجال أوتوا الشخصية التي تكفل لأصحابها السيادة وتضمن لهم بعد النصيب وسعة النفوذ، وتبدد المطامع من رؤوس المتنافسين وتستعبد لهم بسلاطنتها فإذا هم خدام أمناء وعبيد أوفياء.

ولكن كيف كان هذا النفوذ...؟ وما مدى نفعله في طبقات الشعب وتسله إلى هيئات الحكام...؟ ذلك ما انفصل الحديث عنه في الكتاب التالي...



# الكتاب الثاني

نفوذ شيوخ الطرق  
أحياء وأمواتا

---



## الكتاب الثانى

### نفوذهم أحياء وأمواتاً

ذكرنا فيما أسلفنا بعض ما انتشر فى أرض مصر من طرق الصوفية وزواياهم، وعرضنا شيئاً عن الحياة التى عاشوها، والعبادات التى زاولوها، ونريد أن نفصل فى هذا الكتاب مائتياً لهم — أحياء وأمواتاً — من نفوذ استوعب وجوه الناس وطغامهم، واستبد بعلواء البلاد وحكامها، ومرض بعض آثار النزاع الذى ثار بينهم وبين بعض الفقهاء ومن جرى مجراهم، لثنتين مبلغ قوتهم ومدى تأثيرهم فى بيتهم، حتى يتيسر لنا أن نشرح فى الكتاب التالى أثرهم فى توجيه الحياة المصرية إبان عصرهم وما تلاه من عصور، على قدر ما تسمح المادة وتسعف الملاحظة.



## نفوذ شيوخ الطريق

### ١ - أحياء

بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان — تحررهم من عرف البلاد ودينتها —  
مفارقات العصر — تحررهم من نظم الدولة وقوانينها — تحررهم على العرف  
السائد عند أرباب الطريق .

### بين دولة الفقراء ودولة بني عثمان:

حفلت مصر إبان العصر العثماني بفرق المتصوفة وطوائف الفقراء، واكتظت الشوارع بمواكبهم والبيوت بولاتهم والمساجد والزوايا باجتماعهم، وانتشر الشيوخ والأتباع في الريف والحضر، وتغلغل نفوذهم في المدن وشاع في الأقاليم والقرى، وامتد سلطانهم إلى مختلف طبقات الشعب وأقام في صدورهم عرشه، وتسرب إلى قصور الحكم فبعث بالقوانين، واستهان بالرأى العام فتخطى أبسط مبادئ العرف، واستعلى على الدين فاستباح الخروج على قواعده وتعاليمه، وبذلك أضحي الفقراء في مصر إبان هذا العصر فوق قواعد الدين ومقتضيات العرف وقوانين الدولة .. !! وكانت مصر دولتهم في الحياة الدنيا وإن ادعوا بأن الفقراء لا يملكون في هذه الحياة الفانية كثيرا ولا قليلا، وأن دولتهم إنما تقوم — كأعظم ما تقوم الدول ذات السلطان الواسع النطاق المحدود الرحاب — في جنة الله يوم الدين . فقد كان الناس في شتى الطبقات يحيطونهم بالعطف والأيد، وقد خف إلى زواياهم مئات المريدين والوف الأتباع، وفاضت عليهم خزائن الأغنياء والأثرياء، وسعى إليهم عطف الحكام والأمراء، ولازمهم النصر في أكثر المعارك التي أثار عثيرها في وجوههم العلماء والفقهاء، وتوفر لهم عند المريدين سلطان لم يتوفر لحاكم تحبه عشيرته

وتطليه جنوده، أو لعالم يحمله تلامذته وطلابه، وما كان الجندى الذى يتعرد على قائده ساعة المحنة بأشد خيانة وأعظم جرماً - فى عرف الفقراء - من المريد الذى يسيء الظن بشيخه أو يتردد فى امثال أمر تلقاه عنه ولو كان يقضى بطلاق زوجه وفراق أولاده أو يمنع عن أداء ما أمر الدين من فروض وواجبات وحته من شعائر وعبادات ...

وهكذا قامت فى مصر دولة الفقراء إلى جانب الدولة العثمانية، بالسلاح والحيلة تضمن الثانية بقاءها وتقر بين الناس قدماً. وبالإيمان نذود الأولى عن عرشها، وتقر فى القلوب سلطانها، وتخيف خصومها وأعداءها. ولقد كانت دولة الفقراء أثبت قدماً وأعظم نفوذاً وأقوى سلطاناً من دولة بنى عثمان - تلك الدولة التى كانت مطامع الممالك - ولا سيما فى النصف الأخير من العصر العثمانى - تثير فيها الفاق والاضطراب، بل لقد كانت فرقة الجيش التى جاءت فى ركابها لحمايتها من كل عدوان فى نزاع يكاد يكون دائماً، وحرب يوشك أن يكون متصلاً ركان الأعراب، فى غاراتهم بين الحين والحين يثيرون الاضطراب فى رأسها وبشيعون الفرع فى نفسها. وبهذا عاشت الدولة العثمانية قلقة الخاطر ناية المضجع تنفق وقها فى تدبير المؤامرات ورد الغارات والنجاة من المكائد، أما دولة الفقراء فقد عاشت فى جو عامر بالأطمئنان، قوية بإيمان أهلها وحسن ظن الناس بها لانهتز لانكار المنكرين - وما كان أضعف نفوذهم - فامتد سلطانها وانبسط عزها من غير سلاح مسلول، ورُفرف علمها فى كل مكان دون جهد ملموس، وذلك لأن روح العصر - بما كان يسوده من ظلام الجهل وشدة الفقر واضطراب الأمن وظلم الحكام - عاون على ثبات هذه الدولة ورسوخ قدمها وشيوع تعاليمها بين الناس ...

تحررهم من عرف البلاد ودينها:

ولدينا من الشواهد ما ينهض دليلاً على أن الأولياء كانوا فوق العرف

وفوق القانون — وقبل أن نعرض للكلام في ذلك ينبغي أن نشير إلى أن الأمثال التي تشهد بخروج الفقراء على الدين، تصلح أن تكون شاهداً بخروجهم على العرف كذلك ، فإن الفروق بين الدين والعرف أثناء هذا العصر قد تضاعفت حتى كادت أن تزول وتتلاشى ، فإذا جاز لنا أن نقول اليوم إن تارك الصلاة أو شارب الخمر في القاهرة ، لا يعتبر خارجاً على العرف ، وإن عُدَّ خارجاً على الدين ، فإن هذا الكلام لا ينسحب على العصر العثماني ، لأن الدين قد تقلقل لإبانه في العرف حتى كاد الرأي العام في كل شيء أن يكون قائماً على الدين وحده ، وكانت مصر في عزلة عن العالم الأوربي الذي كانت النهضة الحديثة تتمشى في أعصابه وتشيع في كيانه ، فأضحت الحضارة القائمة في مصر حضارة دنيئة بحتة . فكان الناس لا يعرفون علوماً أسمى من علوم الدين ، ولا ثقافة أجدر بالعناية وأحرى بالدراسة من ثقافته ، ولا رجالاً أخلق بقيادته في حياتهم الدنيوية والدينية من رجاله ، وبهذا أصبح زعمائهم في ميدان السياسة وقادتهم في الحياة العامة وأساطينهم في مجال العلم Scientists هم الفقهاء وحملة الشريعة وأرباب الطريق ، وكاد أن يتلاشى الفارق بين صيحة الدين وصيحة العرف ، وأضحى الخروج على قواعد الدين ، استهانة بالرأي العام وجرحاً لشعور الناس .

والآن نبسط بعض الشواهد التي تجمع بين خروج الأولياء على تعاليم الدين وتخطيهم لأبسط حياض العرف معاً ، ثم نعقب عليها بذكر الشواهد الدالة على امتثالهم لأقدس مواد القانون ، لنرى صدى ذلك كله في نفوس الناس ، ولنعرف مبلغ الصدق في قولنا إن الأولياء كانوا في مصر — إبان هذا العصر — دولة داخل الدولة :

يروى الجبرتي عن السادات أنه حين تولى خلافة بيت السادة الوفائية عام ١١٨٢ هـ ، أحسن التصرف والتزم ما تقتضيه الأخلاق الكريمة ، حتى إذا اطمأن إلى سمعته ونفوذه عند الناس ، بدا حرصه على الدنيا وتمسكه بالمادة ،

واستيقظ جشعه وعدم اكترائه برأى الناس في سمعته، ومن دلالات هذا أنه اتفق مع محمد البكرى على أن يأخذ منه نظارة المشهد الحسينى، ويتنازل له في مقابلها عن نظارة وقف الشافعى، فلما تخلى له البكرى عن وظيفته، وأرسل إليه دفاتر الوقف. نفى هذا وعده واستولى على الوظيفتين معا... بل زاد فطمع في المشهد النفيسى والمشهد الزينى وباقي الأضرحة، وأخذ بحاسب المباشرين وخدمة هذه الأضرحة، وعلى الإيرادات ويسبهم ويمنهم ويضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم... وطلق يطالبهم بالنذور والشموع والأغنام والعجول، وما يحصل بصندوق الضريح من المال، وكانوا يختصون أنفسهم بذلك كله. وأقلمهم (كان) في رفاهية من العيش وجمع المال. وهكذا قضى غالب عمره في طلب الدنيا وتنظيم معاشه وتهبئة الرفاهية في بيته، واقتناء كل مرغوب للنفس وشراء الجوارى والممالك والعبيد والجيوش والخصيان والتأق في المأكّل والمشارب والملابس وتعاظم في نفسه وتعالى على أبناء جنسه حتى إنه ترفع عن لبس الناج وحضور المحيا بالأزهر ليلة المعراج، وكذا الحضور في مجالس وردهم وصار يلبس قاووقا بمائة خضراء تشبها بأكابر الأمراء... (١)

وكذلك كان ابراهيم المتبولى كان يبيع في بدء حياته الحصص، وقد مات أبوه تكتملته أمه وتعبدت بتربيته (٢)، فلما أخذ الطريق وسار فيه شوطا أصبح صاحب زاوية فيها نحو المائة مريد يقيم طاعما كاسيا على نفقة صاحب الزاوية (٣)... وذلك كله على الرغم مما يرويه الشعرائى عن رأيه في الزهد، فقد كان من رأيه أن الزهد في الدنيا أول أساس يضعه المريد في الطريق، فإن أعوزه الزهد في لذاتها والإعراض عن مبادئها أخفق في تصوفه، وكان ما يبتنيه في الطريق هباء منثورا (٤)...

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٢ و ٢٠٤

(٢) الأخلاق المتبولة للشمرانى ص ١٤ (مخطوط)

(٣) لطائف المنن ج ٢ ص ١١٩

(٤) الوصية المتبولة ص ٤ (مخطوط)

كان الشيخ على أبو خوده يحب الغلمان ، ويعبت بهم بحضرة آبائهم بالغاما بلغت مكائتهم (١) وكان كلما رأى امرأة ، حسس يده على مقعدها ، (٢) وما أكثر وقائعه معهن . . . (٣)

وكان المجذوب محمد بن أبي بكر المغربي الطرابلسي المتوفى سنة ١٢٠١ هـ صاحب الأحوال يحب مجالس الشراب وتهاوت عليه نساء البلد ، وأنكر عليه ذلك بعض الناس ولكن « أهل الفضل كانوا يحترمونونه وينقلون عنه أخبارا حسنة ويحمله الأعيان وتنهال عليه الهدايا ولا يرد له الوزراء شفاعة » كما يقول الجبرتي (٤) وقد اشتهر فقراء المطاوعة بحبهم للغلمان ، حتى كانوا إذا عقدوا مجالس الذكر ، اجلسوا الصبيان من ورائهم ليحتضنوه من الخلف إذا اشتدت حماسة الذكرين ، فان أنكر عليهم ذلك أحد من الناس ، قالوا لا جناح على من مس دبر غلام ، وإنما الجناح على من فعل فيه الفاحشة وحدها . . . وكان وجود الغلمان في حلقات الذكر ومواكبهم جزءا من نظامه عند فقراء هذه الطائفة (٥) .

وكان الشيخ ، عبد الله + سنة ٩٢٧ هـ ، يصحح الحشيش ويبيعه بخرايب الأزكية فلا يناله من الناس أذى ولا ضرر . . . بل لقد كان الناس يعتقدون أن من تعاطى الحشيش منه ، كفت عن تعاطيه . . . III كما يزعم المناوي والغزى (٦) . وكان الفقراء إذا أقيم مولد السيد البدوي أباحوا لأنفسهم نهب المحال وسرقة الناس وأكل أموالهم بالباطل ، قائلين إن الغريبة بلاد السيد البدوي ونحن من فقرائه ، فكل ما نأخذه حلال لنا . . . وكان « الشناوى » + سنة ٩٣٢ أول من نادى بابطال هذه البدع . . . (٧) وكان النساء اللاتي يتصلن بالفقراء معرضات الزنا ،

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٨ ، مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣ (مخطوط)

(٢) مناقب العلماء والصوفية ص ٢٤٣

(٣) أنظر مناقب العلماء ص ٢١٤ ب مخطوط

(٤) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٩ — ١٦٠

(٥) فتوى الشيخ الصميدى على فقراء المطاوعة (مخطوط)

(٦) ارغام أولياء الشيطان ص ٨٨ (مخطوط) ، السكواكب السائرة ج ٢ ص ٢٥٩

(٧) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦

وقد اشتهر فقراء الأحذية والبرهامية بارتكاب الفحشاء مع النساء اللاتي يأخذن العهد عليهن حتى خصهم الشرعاني بالذكر في معرض الحديث عن وقائع الزنا التي تحدث من جراء اختلاط الجنسين<sup>(١)</sup> وكان العيسوية إذا أقاموا الذكر على طريقتهن المغرية، سعى إليهم الناس وخف للفرجة عليهم حسان الغلمان، فيكلف بهم هؤلاء الغلمان ويسعون وراءهم — فيما يقول الجبرتي<sup>(٢)</sup> — وروى الشرعاني في ترجمة الشيخ عبد القادر السبكي أنه كان يتكلم بما يستحي منه الناس ولا يرضى عنه العرف، وقد خطب مرة عروسا ورأها فأعجبته فكشف لها عن جسمه وهي في حضرة أبيها، لكي تطمئن على خلوه من البرص وبراءته من الخشونة وغيرها بما قد يستدعي الشكوى بعد الزواج، ثم تناول قضيبه في يده، وطلب إليها أن تمنع النظر إليه، لتطمئن على جسمه ومنظره<sup>(٣)</sup> ١١٠ (٤)

ويصف الأستاذ إدوار لين، هذه الحال ويشرح علما في عرف الناس فيقول: إن المعتوه أو المجنون في عرف الجمهور، كائن عقله في السماء وجزؤه الكفيف على الأرض — إنه حبيب الله، ومهما ارتكب من الفظائع فإن ذلك لا يؤثر في سمعته عند الناس، وكثيرون هم الذين يتخطون على الدوام قواعد الدين ويتمردون على مبادئه، ولكن العلة في ذلك عند الناس، أنه نتيجة لتجريد العقل واستغراق الملكات العقلية في عبادة الله، مما أدى إلى المعجز عن التحكم في العواطف — والمجانين الذين يهددون المجتمع بالخطر، يحفظون في الحبس، أما الذين لا يخشى منهم الضرر، ينظر إليهم الناس على أنهم أولياء الله . . . ومعظم الأولياء المعروفين في مصر مجانين أو مخايل أو دجالون، يسير بعضهم في الشوارع عاريا كامل العري، فيلقى من الناس كل الاحترام والتوقير — حتى أن النساء لا يتجنبن الاتصال بهم، بل

(١) اليهود المحمدية ص ١٨٠

(٢) الجبرتي ج ٣ ص ٢١

(٣) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٠٩

يأذن لهؤلاء الجبناء أحيانا بأن يكونوا معهن على قارعة الطريق أحراراً كاملي الحرية - ولئن كان هذا نادر الحصول إلا أنه لا يعتبر في عرف الطبقة الدنيا من الشعب معرة ولا منقصة... (١)

هذا رأى ، لين ، الذي زار مصر بعد انقضاء العصر العثماني بنيف وعشرين عاما ، ولعله احتاط في التعبير أكثر مما ينبغي ، فإن الحوادث التي روينها عن مؤرخي العصر العثماني - من الجبرقي إلى الغزي والشعراني والمناوي - وهم من أهل هذا العصر جميعا - تبرر القول بأن تمرد الأولياء على قواعد الدين لم يكن نادر الحدوث ، ولعل الأستاذ قد أراد بهذه النبرة فظائهم مع النساء على قارعة الطرق ، وليست الطبقة الدنيا وحدها هي التي كانت ترضى عن هذه الفظائع ، وكثيراً ما كان ينخدع بها العلماء والأمراء... ١

#### مفارقات العصر :

كان هذا كله يحدث على مرأى من الناس فلا يستفز شعورهم ولا يشع غضبهم ، بل كثيراً ما كان يملأهم رضا واعتباطاً - على نحو ما عرفنا في التعليقات التي صوّرها كتاب العصر شعور الناس نحو هذا التمرد على قواعد الدين ومبادئ العرف ، وما كان السر في هذا أن ، روح العصر ، كان يسمح بالنهاون ويوجب على الناس التسامح ، فإن الرأى العام في هذا العصر كان يقوم على التعصب الشديد للطفوس والرسوم ، وأخذ الخارجيين على الشعائر بالحساب العسير ، إذ بينما نرى هذا النهاون المفزع في حساب من يعتبرون أولياء ، نرى الطالب الذي لا يقع بصره على جرة خمر بين يدي مالك السلطان حتى يمضي إلى تحطيمها ويعرض نفسه للهلاك دفاعاً عن دينه (٢) ونرى كيف يستحل المسلمون دم الجنود إذا أقدموا على فعل المنكرات في رمضان من شرب الخمر والفسق بالنساء ، وكيف يطاردونهم ويتعقبونهم بالذبح وإلقاء جثثهم في اليم ونهب ممتلكاتهم حتى يقتل من الجنود نحو عشرين نفساً ومن المسلمين أدنى من

(١) كتاب الأستاذ Lane ص ٢٣٤

(٢) لطائف اللق ج ٢ ص ٤٣

ذلك بقليل<sup>(١)</sup> ونرى كيف يجمع العلماء على تكفير من ادعى النبوة، فإن أصر على ادعائه كان مصيره القتل علانية<sup>(٢)</sup>. ونرى كيف يفتي العلماء بإحراق الذي إذا سب مسلماً<sup>(٣)</sup> ونرى كيف يحرم التدخين على الناس كباراً وصغاراً<sup>(٤)</sup> وكيف تصدر الفرمانات بإبطاله في الشوارع والمحال وأبواب البيوت، وكيف تكون الرقابة ويشدد العقاب حتى ليكون جزاء المدخن إطفاءه الحجر الذي يضع فيه الدخان والنار<sup>(٥)</sup> وكيف يحرم شرب القهوة ولا يجوز الانتفاع بشمها كما هو الشأن في ثمن الخور<sup>(٦)</sup> ونرى كيف يلام الشبراوي لأنه أفتى بإباحة الحج للتصاري إلى بيت المقدس، وكيف يخرج الشعب والأزهريون اليهم فيرجعونهم بالحجارة ويضربونهم بالعصى وينهبون متاعهم ويحطمون كنائسهم انتصاراً للدين<sup>(٧)</sup> على نحو ما يفهمون — ونرى الناس بعد أن يسمعوا فتوى السنياطي في الجامع الأزهر بتحريم القهوة يمشون إلى بيوتها من تلقاء أنفسهم ويحطمون أوانها ويضربون شاربها ولا تهدأ لهم نائرة حتى يفتي علماء آخرون بإباحتها<sup>(٨)</sup> ونرى كيف يرضون عن قتل المرء العاهر جزاءً وفاقاً<sup>(٩)</sup> ونرى كيف يعتبرون انتقال العالم من مذهب إلى مذهب طيشاً ورعونة وينشط قدر الشيخ البشيشي عند الجبرتي ووالده من أجل ذلك<sup>(١٠)</sup> وأمثال هذه الحوادث التي تشهد بالتعصب كثيرة لا يكاد يحصيها العمد. وإن كان هذا التعصب لا ينفي انحلال الأخلاق عند أهله — على نحو ما سنعرف عند الحديث عن سقوط التكاليف الدينية عن الأولياء.

كان روح العصر يميل على الناس التعصب في أحكامهم ويحملهم على فداء

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٧٣ (٢) الجبرتي ج ١ ص ١٥١

(٣) ج ٢ ص ٩٦ (٤) ج ١ ص ٤٣١

(٥) ج ١ ص ١٢٧ (٦) ج ١ ص ١٦١

(٧) ج ١ ص ١٩٥ (٨) أنظر كتاب عمدة الصقوة في حل القهوة

(٩) الجبرتي ج ٣ ص ٥١ (١٠) الجبرتي ج ٣ ص ٢٦٢



عقائدهم بالروح وبما ملكوا، وكان الرأى العام لا يسمح قط بالنهاون في ظاهر الدين أو تحطى قواعد العرف، ومن أقدم على ذلك فقد عرض نفسه للآذى وقادها إلى مهاوى الهلاك — وكان هذا معنى الدين في رموس الناس إبان هذا العصر — أما الأولياء فقد كانوا في عرف الجمهور وأكثر العلماء فوق الدين وفوق العرف — وما أكثر حوادث الفقراء مع النساء والغلمان وسائر مظاهر تمردهم على الدين والعرف، وقد كان الناس يقابلون هذا الاستمرار بالرضا والاختياط، لأن الأولياء في عرف الكثيرين منهم قد سقطت عنهم التكاليف الدينية، فجاز لهم ما حرم على غيرهم، يملون الصلاة ويتركون الصيام ولا يقومون بشئ من فروض الدين وشعائره، ثم لا يتقيدون بعد هذا بشئ من نواهيه، ولا يخضعون لقيوده ومحرماته... فالزنا والخمر والميسر والحشيش وكافة رذائل الدين قد أحلت لهم فاستباحوا الحرمات على مرأى من الناس، ولم يجدوا من شدة الإنكار ما يخيفهم أو يردمهم عن غيرهم ويوجههم إلى أقوم سبيل.

وكان جمهرة الناس في مصر تخاف سلطان الأولياء الروحي وتخشى أن أساءت إليهم أن ينالها آذاهم ويصيبها نصريتهم، فكفت عن سوء الظن بهم واستنكار أفعالهم، وذلك وحده كفيل بتخليص الأولياء من قيود العرف، وتحرير شهواتهم من عقائد الدين، وقد بلغ من جرأة الأولياء وشعورهم باستقرار قدمهم ونفاذ سلطانهم أن كانوا يصطنعون في بعض الأحيان ما يثير سخط الناس، فكان «أبو خودة» يأمر عبيده — وكان من غواة العبيد — أن يقولوا للناس إن الشيخ يفعل الفاحشة فيهم، حتى إذا ازدادوا سخطا عليه هطهم... كما يظن الشعراشي<sup>(١)</sup> ولو صححت رواية الحادثة لكان أدنى إلى العقل أن يقال إنه كان يفعل ذلك استخفافا بالمتكرين واحتقارا لسخطهم، ولا بأس من أن تشير الآن إلى أن المصادر التي أمدتنا بهذه المعلومات عن هؤلاء

الأولياء، قد كتب أكثرها كتاب يؤمنون بولايتهم ويذكرون هذه الحوادث في معرض التمجيد لهم وإعلان الإعجاب بهم . ولم يملأ عليهم حقد ولا حسد ولا غير ذلك مما يجوز على الحق ويغير معاملة .

### تحررهم من نظم الدولة :

وما كانت استعانتهم بقوانين البلاد ونظمها بأقل من استعانتهم بعرفها ودينها، فقد كانت أولى الأغراض التي حملت الأتراك على غزو مصر، الطمع في خيراتها والرغبة في ابتزاز أموالها، ولهذا كان خير الولاة عند سلاطين الأتراك من استطاع أن يجبي من الضرائب أعظم قدر ممكن — وكان الناس لا يمانعون في هذا ولا يضيقون به إلا إذا أعوزهم المال، فقد كانوا يرون أن الغرض من وجود الحكومات جمع الضرائب والأيدى العاملة اللازمة للأعمال العامة والفصل في القضايا وحفظ الأمن ورد الغارات الخارجية<sup>(١)</sup>. ولم يكن الإصلاح والعمل على رقي الشعوب من عمل الحكومات في عرفهم — فكان طبيعيا بعد هذا أن يكون جمع الضرائب عند حكام البلاد وأهلها أول واجب ينبغي أدائه، ولكن الحكام كانوا يعفون الأولياء في أكثر الأحيان من أخذ الضرائب<sup>(٢)</sup>. قال الشعرائي إن من نعم الله عليه حماية جميع أوقاف زاويته من ظلمة الحكام في مصر والريف، فلا يعارضه ولا يعتدى عليه أحد قط رغم أنه لا يحمل مرسوما من السلطان لحايته<sup>(٣)</sup>. وقال الجبرتي في معرض الحديث عن حرص الشيخ السادات على الدنيا ومتاعها، أنه كان يرأسل ويكتب ويحاسب ولا يدفع لأرباب الأقلام عوائدهم المقررة في الدفاتر، بل يرون أن أخذها منه من الكبار، وكذلك دواوين المسكوس المبنية على الإجحاف، فكل ما نسب له

(١) شفيق بك غريال : الجنرال يتوبه والقارس لاسكاريس ص ١٤ ، الحركة القومية

لرافعي ج ١ ص ٣٢

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٦٢

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٨ ، المناقب الكبرى ص ١٠٢

فيها فهو معاف<sup>(١)</sup>، فإن تحت بعض الحكام على أحد المشايخ وأرسل يستشير السلطان في أمره، « رسم » السلطان بإعفاء أوقافه من دفع الضرائب، ومال إلى نصرته وإرضائه كما جرى لذرية الشعرائي بعد عاتمه<sup>(٢)</sup>.

بل لقد كانت الدولة تمتد الأولياء بالأموال وتعينهم على دوام العز في زواياهم، فمن ذلك ما يرويه الجبرتي عن الشيخ السادات حين أراد أن يعمر زاوية أسلافه، إذ حدث الوالي في ذلك. وكان محمد علي باشا المعروف بالمعزقي المتوفى سنة ١١٩٠ هـ، فكانت الوالي الدولة في هذا الشأن، وسرعان ما ورد الأمر بإطلاق خمسين كيساً لمصرف العبادة من خزينته مصر، ثم كاتب الدولة بعد ذلك بأن هذا المبلغ لا يكفي عمارتها، فاستجابت لطلبه وأطلقت له خمسين كيساً أخرى، ثم عاد الشيخ فالتمس رفع ما على قرية زفتى وغيرها من القرى التي في حوزته من الالتزام من المسال المبرى الذي يدفع إلى الديوان في كل عام، فأجيب التماسه<sup>(٣)</sup>، وفي دار الكتب وثائق بالالتماسات والفرمانات التي أصدرتها الدولة التركية لرفع المظالم التي كانت تنزل بقرية زفتى وغيرها من البلاد التابعة للسادات الوفاية<sup>(٤)</sup>.

والغريب أن يحدث هذا في أواخر العصر العثماني — أي في أيام الاضطراب التي فشا فيها الظلم وانتشر طغيان الحكام وبغي الجنود، وارهقت الضرائب والجمهور وأخذت منه عنوة أكثر من مرة، وكثرت الأتاوات التي كانت تفرض على الفلاح المسكين والتاجر البائس، وبينما كان الضنك والظلم

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٢) المناقب الكبرى ص ١٠٧

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠ — ٢٠١، بيت السادات الوفاية ص ١٦، طبقات الشاذلية ص ١٠٨ وكان تحويل الزاوية إلى مسجد سنة ١١٩١ هـ كما جاء في هذه الطبقات.

(٤) أنظر « فرمان » رفع المظالم عن كفر طرغوب السكان في تصرف الوفاية « وآخر » يمنع التعرض لبعض أوقاف على زاوية الوفاية « و » شكوى من بعض علماء الأزهر إلى قائمقام مصر يمنع من يتعرض لسيد أحمد البكري في نظر وقف زاوية الوفاية « و فرمان » سنة ١١٩٦ من ديوان مصر برفع المظالم عن جهة زفتى جواده... الخ الخ.

يتمشى في البلد طولا وعرضا ، كانت الدولة تستجيب لمطالب شيوخ الطريق في إعفاء القرى التي خوزتهم من دفع الضرائب ، وطلب الأموال لتعمير الزوايا والإنفاق على مجاورها ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يرحلون من مصر إلى بلاد الروم ( الترك ) في طلب الدنيا ويلتمس لهم « أفضل الدين » العذر في ذلك فيقول من المحتمل أن يكون الله قد كشف لأحدهم أن له رزقا في بلاد الروم فيخف إليه فارغ القلب من محبة الدنيا <sup>(١)</sup> ١١٠٠ وكثيرا ما كانوا يعيشون الوسطاء للسعى في تحقيق المطالب ١٠٠ وقد فخر الشعراء بأنه كان لا يقبل هذا إن عرض عليه ولا يرضى به هوأنا بالدنيا ومتاعها <sup>(٢)</sup> .

وكان البكرى الكبير المتوفى سنة ٩٩٤ هـ ملحوظ المكانة بين الحكام ، فكانوا يهادونه ويكاتبونه ، وللسلطان سليمان خان مزيد عناية به ، حتى أنه أطلق المراتب الخاصة له ولذريته من بعده ، وكذلك فعل شريف مكة وسلطان فاس <sup>(٣)</sup> . وقد كانت الدولة تخاف نفوذهم ونحشهم بأسهم ونهاب أتباعهم ، ولهذا أصدرت قانونا بنى كل من يتظاهر بمظاهر الملوك منهم ، وكان نوابها وحكامها يخشون هؤلاء الفقراء فيحسنون استقبالهم إذا خفوا لزيارتهم ، ويختلفون إلى زواياهم ويستجيون لشفاعتهم - بالغا ما بلغ خروجها على أبسط مبادئ العدالة - وقلبا يترجم كتاب التراجم والطبقات لأحد هؤلاء المتصوفة في هذا العصر دون أن يقولوا : وكانت لا ترد له شفاععة عند الحكام والأمراء ١٠٠ وبذلك تعطل تنفيذ القانون في البلد ، وصح الفقراء وأكثروا من يلوذ بهم في أمان من عقابه إذا اقترفوا إثما أو ارتكبوا جريمة ١٠٠ وإن كان هذا من رحمة الله بالشعب البائس المظلوم .

بل لقد كانت لهم قوانين تحكمهم وتحدد عقوبة المذنب منهم ، وترسم

(١) الطائف المنن ج ١ ص ٢٨٣

(٢) > > ج ٢ ص ١١٩ - ١٢٠

(٣) بيت الصديق ص ٧٦ ، ٧٧ ثم قال هذا بما ورد عن الشعراء في التناقب الكبير ص ٩٦

الحدود والمعالن فى حياتهم الدنيا ، ولا دخل للدولة فى أمرها . قال الجبرقى فى ترجمة محمد أبى السعود البكرى ١٢٢٧٤ هـ واشتهر ذكره وسار سيرا حسنا مقرونا بالكمال جاريا على نسق نظامهم ، ويتحاكم لديه خلفاء الطرائق وأصحاب الأشاركالأحمدية والرفاعية والبراهمية والقدرية فيفصل بقوانينهم<sup>(١)</sup> والمراد بالخلفاء نواب وشيوخ الطرق فى القرى والأمصار ممن يديرون أمر المريدين والاتباع<sup>(٢)</sup> وفى دفترخانة السادة البكرية صك بتعيين الشيخ البيجورى شيخا للجامع الأزهر ( سنة ١٢٦٣ هـ ) وفى تحديد اختصاصات شيخ الجامع وشيخ مشايخ الصوفية أو الشيخ البارز من بينهم . وقد جاء فى هذا الصك ما نصه :

هـ واذا رفع اليه - شيخ الجامع - دعوى وكان ذلك مما هو تحت حكم سعادة السيد البكرى كالأشراف ومشايخ الطرق فيرد إلى حاكم المذكور حكم الأصول السالفة وإن الأمر فى المهات . . . لأنه بذلك تحصل راحتهم جميعا لعدم تعدى أحد على أحد<sup>(٣)</sup> . . . ١١ . . . وكان البلد خلوا من القوانين التى تصون الحقوق وترعى المهور وتحفظ الحريات وتزود عن الحرمات . ١

ولا ينبغي أن يقال إن هذا الشاهد الذى رويناه قد وقع بعد انقضاء العصر العثمانى بخمسين عاما ، فإن ذلك حجة لنا لا علينا ، إذ كان الناس إذ ذاك فى عصر اسماعيل باشا ، فكان الكثيرون منهم قد انصرفوا الى التفكير فى شئون المدنية الغربية التى صجبت الأسرة العلوية ، بل أقبلت مع نابليون فى غزوته ، ونمت واشتد بأسها فى عصر اسماعيل ، وانشغل أكثر المستعيرين بأحداث السياسة الداخلية والخارجية فضعفت صولة التصوف وانكش سلطانه عما كان فى أيام العثمانيين ، ولكن هذا لم يمنع من استمرار الفقراء

(١) الجبرقى ج ٤ ص ١٧٦ ، بيت الصديق ص ٣٨

(٢) جرجى زويدان تاريخ المدن الاسلامى ج ١ ص ٢٠٢

(٣) بيت الصديق ص ٣٤ — ٣٥ .

في التقاضي أمام أظهر شيوخهم بقوانينهم الخاصة ، سائر في ذلك على ما جرى عليه العرف منذ القدم ، وإن قولهم « فيرد إلى حاكمه المذكور حكم الأصول السالفة ، لئلا دلالة واضحة المعنى ، بل لقد كان الرجل إذا عظم نفوذه وقوى سلطانه يجمع في يده السلطين القضائية والتنفيذية فيحكم على الناس وينفذ أحكامه . . . » فقد اجتمع بعض أولاد البلد ذات ليلة بمنزل أحدهم - كما يروى الجبرتي - وأخذوا في السخرية من أصحاب المظاهر على عاداتهم ، وتطايير النبأ حتى اتصل بالسادات فأرسل في طلبهم جميعاً ، وعزهم بالضرب والاهانة وجلساؤه ومرافقوه لا يعارضونه في شيء بل يوافقوه . وكذلك فعل بأحد أعظم المباشرين من الأقباط ، توقف معه في أمره فأحضره ولعنه وسبه وكشف رأسه وضربه على دماغه بزخعة من الجلد ولم يراع حرمة أميره وهو إذ ذاك أمير البلدة ، ولما شكك إلى غدومه ما فعل به ، قال له وما تريد أن أصنع بشيخ عظيم ضرب نصرانياً (١) . . . وكذلك كان يفعل مع المباشرين وخدمة الأضرحة عند حسابهم على ما في عهدهم ، فيضربهم بالجريد المحمص على أرجلهم . . . وكان إذا أراد الإيقاع بشخص وخشى عاقبة ذلك ، مهد الطريق سراً قبل الإيقاع به ، فيتألف الفقهاء والعلماء الذين ينتظر منهم إعلان السخط على موقفه ، حتى إذا ظفر بذلك قام بالإيقاع والضرب جهراً أمام الناس (٢) . . . وكان البلد من غير حكومة أو قانون ، ١١ .

### التمرد على العرف عند الفقهاء

بل لقد تمردوا على أبسط قواعد العرف الذي جرى عليه أرباب الطريق من قديم الزمان . فإن التصوف لا يستقيم بغير الزهد في الحياة والإعراض عن مباحها والميل عن مطالب النفس وشهوات الجسم ، والعيش في جو بعيد عن الأغراض الدنيا والتزعات الأرضية ، ولكن الذي يثير عجب الإنسان من

(١) الجبرتي ج ٢ ص ٢٠٤

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٢ .

هؤلاء الفقراء ، إقبالهم على الدنيا وحرصهم على التمتع بلذاتها والظفر منها بأوفى نصيب ، وقد يفعلون هذا كله جهاراً أمام الناس ولا يرون فيه سمية ولا معرة ، مما أدى بالمؤلفين في هذا العصر إلى الاكثار من تحذيرهم من الوقوع في هذا الشر ، وإغرائهم بالزهد وحملهم على حياة الحشونة والتقص (١) .

وكان الفقراء يقبلون على كل شيخ كريم ويتكدون في زاويته ، ويتزايد عددهم بين الحين والحين ، وينفضون عن كل زاوية أدرك البخل شيخها وأصاب الحرص نقيبها ، وكانت الزوايا تكتظ بالفقراء وتمج بطوائفهم أيام الغلاء ، وكان الشيوخ — في الجملة — يرون تمتعهم بالعيش الرغيد والحياة الهنيئة حقاً من حقوقهم يستحذون عليه إن شاموا ويتنازلون عنه إن أرادوا . وما أكثر الذين كانوا يلتمسون أسباب الوصول إلى المال الطائل حتى إذا ظفروا به انفردوا بأكثره واستباحوا لأنفسهم وأولادهم العيش في كنفه (٢) . والذين نادوا بتحريم هذا كانوا لا يتورعون عن القاس الأعداء لمن ينعم منهم باللبس الفاخر ويتمتع بالطعام الشهى ، فيقولون إن المريد لا يجوز له ذلك العيش في ذلك النعيم إلا إذا كان من أصحاب الكرامات وخوارق العادات . ! وقد روى الشعرائي حادثة من هذا النوع وعلق عليها قائلاً : قلوا أن الشيخ أقام البرهان على طعمه اللذيذ بالكرامة ، لغارقه تلك المرأة وهي منكرة عليه (٣) . . .



ومن هذا نرى أن أرباب الطريق في هذا العصر قد تمردوا على عرف البلاد وتمهروا من دينها وخرجوا على نظمها وقوانينها ، بل أدى بهم التمادي في التمرد إلى الخروج على أبسط قواعد العرف السائد بين أهل التصوف من قديم الزمان ، فهل يعدو الحق من يقول إن أرباب الطريق في عصر

(١) أنظر في تفصيل ذلك ، كتابنا عن الشعرائي وإمام التصوف في عصره

(٢) لطائف المتن ج ٢ ص ١١٩

(٣) الفهود المحمدية ص ٢٣١

كانوا دولة داخل الدولة . . ٩ وفي الحق لقد كانت دولتهم غريبة في تاريخ الدول ، لأنها أعطت أهلها الكثير من الحقوق والامتيازات ، ولم تحملهم من الواجبات كثيرا ولا قليلا . . ١٠ فإن الكثيرين منهم كانوا لا يحملون أنفسهم حتى مشقة الدعوة للزهد في الدنيا والتفرغ للعبادة ، بل كانوا يعلنون التمرد على هذا كله استهانة واستهتارا ، اقبل عرف التاريخ من قبل دولة كهذه الدولة . . ٩ . إن من واجبتنا أن نسهب في بيان هذا السلطان الذي أتاح لأهله أن يحطموا الأغلال ويتحرروا من القيود ويملاؤوا الدنيا بهذه الإباحة المطلقة ، في عصر تثقله القيود والسلاسل والأغلال ، فلننتبع مظاهر هذا السلطان عند مختلف الطبقات وشتى الهيئات ، وسنرى من معجزاته ما يشير العجب . ولنبدأ ببيان مظاهره عند الشعب :

---



## بعض مظاهر نفوذهم

دنيا الصوفية الروحية وحكامها — تقيم مصر بين الأولياء الى مناطق  
نفوذ — الفطائية ونفوذ أهلها في مصر — آذق نفوذهم في مناطقهم  
— بعض مظاهر نفوذهم عند الريدين — عند الحكام —

### دنيا الصوفية الروحية وعلمائها :

وفي الحق لقد ضاقت العالم الاسلامي بالحياة الدنيا وكره ما تنطوى  
عليه من ألوان الشر وضروب الظلم ، وانهت الرغبة في إصلاح الدنيا عند  
نفر من أهلها ، بتصور ملكة باطنية وراء الدنيا التي تعيش في رحابها وتكرح  
من آثامها وشرورها . وكان طبعيا بعد أن أقام هذه الدولة في مخيلته ، أن  
يبحث لها عن حكام عدول يتولون إدارتها والإشراف على أحوالها ، ثم  
يخرج من هذا إلى تصنيف هؤلاء الحكام ، فصنفهم بطريقة تصفية في طبقات  
تختلف باختلاف المصنفين ، ويتزعمها القطب وتليه فئات من الأوتاد والأبرار  
والنقباء والنجباء والأبدال . . . وغير ذلك ممن يشرفون على مختلف مظاهر  
الحياة في هذه المملكة الباطنية ويستشيرون دفتها وينظمون أمورها ويعوضون  
الناس خيرا عما يلقونه من شر دنياهم (١) . . .

وقد عرفت مصر في العصر العثماني من هؤلاء الحكام صنفين اثنين : وهما  
القطب والأولياء بوجه عام ، وقد ضاقت الشعب المصري بدنيا الفاقة والظلم ، فانساق  
بتأثير جهله إلى الإيمان بمن يدعون الزلفى إلى الله — ولما كان الأولياء في هذا قد  
أصابوا المال الطائل ، وبسطوا نفوذهم على الأتباع والمريدين ، فقد تهيأ لهم

(١) كارادى نور في مادة Wall بدائرة المعارف الاسلامية ، الأستاذ أحمد أمين بك في ضحي  
الاسلام ج ٣ ص ٢٤٥ — ٢٤٦ ، يكتلون في Mystics of Islam ص ١٢٣ وما  
بعدها ، المناوى في طبقاته المصري من ص ٨ الى ١٢ وغير هؤلاء كثيرون .

سلطان روحى ونفوذ دنيوى معا . . . ١

### تقسيم مصر بين الأولياء الى مناطق نفوذ :

انتشر الأولياء فى أرض مصر وفشا أمرهم بين أهلها ، وافتسموا مناطقها فاستولى كل ولى على مساحة من الأرض تقبل الزيادة والنقصان ، يتصرف فى أهلها ويستغل غلاتها ، فيقيم الولائم فى بيوت ملاكها وبطالهم بالأناوات ينظم منها موالد الأولياء - وكان الناس يخفون إليهم سراعا كلما تطاير إليهم نبأ وجودهم ، ويستجيون لمطالبهم راضين مقتبطين ، يحملهم على ذلك الأمل فى اكتساب البركة والظفر بالزلفى إلى الله . . . والمنطقة التى تخضع لنفوذ الولى تناسب فى سعة مساحتها طرديا مع قدرة هذا الولى على اجتذاب الناس إليه وكسب عواطفهم نحوه . وقد حرص كل ولى على إقرار نفوذه فى منطقته والعمل على توسيع دائرتها ما استطاع إلى ذلك سبيلا . وكان يطمع فى أغلب أحواله فى أن يكون كافة أهل بلده تلامذة ومريدين له وحده<sup>(١)</sup> وكان الأولياء يؤثرون أن تكون الزعامة لواحد لا ينافسه عليها أحد ، حكى عن يوسف العجمى أن الله حين قضى بمخادرته بلاد المعجم ، سمع هاتفا يأمره بالسفر لينفع الناس فى مصر ، فظنه شيطانا وأهمل أمره . بيد أن النداء أخذ يتكرر حتى بلغ الرابعة ، فقال يوسف : اللهم إن كان هذا وارد حق منك فأقلب هذا النهر لنا أعرف منه بقصعتى ، ونقول الرواية إن النهر قد انقلب لنا . . . فأيقن أن الهتاف الذى سمعه وارد حق لا شك فيه . . . فلما أقبل على مصر وجد ، الشيخ حسن التستري . وقد سبقه إليها ولم يتصدر المشيخة بعد ، فقال له يوسف : إن الطريق لا تكون لا كثر من واحد يقوم بها لأنها تقوم على الأخلاق الإلهية ، فإذا أن أتصدرا أنا وتكون وزيرى وخادمى ، وإما أن تصدر أنت وأكون وزيرك وخادمك ، فتخلى له الشيخ حسن عن الصدارة وأخذ يقوم بخدمته حتى وافته منيته ، فأخذ مكانه بعد أن استأذنه

في ذلك وهو على قيد الحياة... وأظهر في الطريق العجائب، ودانت له الملوك  
وخضع لفؤوده الأمراء (١)...

وما كان مشايخ العصر على هذا الخلق، فقد كانوا يظهرون بأنفسهم ويدعون  
المشيخة دون أن يبايعهم أولياء الدائرة، ويدخلوا في طاعتهم كما كان ينبغي،  
وكانوا يجلسون للمشيخة وفي بلدتهم من هو أقدم منهم هجرة في الطريق  
فلا يعبأون به، مع أن الآداب تقضى باحترامهم له، وطلب الإذن منه  
بارشاد المرشدين نيابة عنه، إن أحسوا في أنفسهم بأنهم أعلم منه (٢)، ولقد  
أدى بهم هذا الادعاء إلى أن يحجور بعضهم على حقوق بعض، ويعتدوا على  
مناطق غيرهم ويحاولوا الاستحواذ على ما ليس لهم فيه حق. ولكن الأولياء  
كانوا على كل حال حريصين على أتباعهم ومريديهم لا يحب أحدهم أن  
ينفضوا من حوله وبلتفوا حول غيره، ولعل هذا جائز ومحمول في رأى  
المنطق وحكم العقل، ولكن الغريب أن شيوخ الطريق في هذا العصر كانوا  
يطمعون في أن يقتصر على صاحبهم كل من اتصل بهم أو تلقى الذكر عنهم  
بقصد التبرك والتميم، ولهذا ترى الدردير العدوى، يحذر الأشياخ من شر  
ذلك، ويقول إن المريد الصادق المحية هو وحده الذى لا ينبغي له أن يزور  
ولياً ولا صالحاً من أهل عصره إلا بأذن شيخه، ولا يحضر مجلساً غير مجلسه  
ولا يستمع إلى أحد سواه... أما الذين يتلقون الذكر بقصد التيميم وحده  
فليس للشيخ أن يقيدهم بصحبته، ومن طمع في ذلك كان غير صالح لأن  
يكون شيخاً في طريق الله (٣). ونرى الشعراى يقول إن أشياخ عصره قد  
ضلوا حتى عز عليهم التمييز بين من يحبهم مكتفياً بهذا الحب، ومن يطلب  
الترية على يدهم، ويروى ما يؤيد هذا فيقول إن أحد مشايخ العرب قد اجتمع  
بأحد شيوخ مشايخ الطريق وأهدى إليه قمحاً وأرزاً وعسلاً وذهباً، وأقبل

(١) المهود المحمدية ص ٢٠٠

(٢) قواعد الصوفية ص ٢٥١ (مخطوط)

(٣) السيد محمد البكرى: السير إلى الله ص ١١٨ (مخطوط)

عليه إقبالا عظيما ، فقال الشيخ : إن كنت تصحبنى فلا تصحب فلانا ، ففرت نفسه من هذا التصديق وترك الشيخ قائلا : ما طلبت أن أكون شيخا ولا مريدا ، ثم مضى الى الشرعاني واجتمع به ، فظن الشيخ الأول أن الشرعاني هو الذى حرصه على تركه وحوله إليه وأغراه بصحبته فحمل له العداء من أجل ذلك<sup>(١)</sup> . وما كان الأشياخ ليطعموا فى امتداد نفوذهم إلى هذا الحد ، لو أن الشعب كان على استعداد للإعراض عنهم لو تجاوزوا حدودهم - ولعل رواية الشرعاني لا تنقض ما نقول ، فليس يبعد أن يكون الشرعاني - بما عرف عنه من مهارة وقدرة على اجتذاب الناس إليه - هو الذى حول شيخ العرب عن شيخه الأول ، ولولا ذلك لرضع شيخ العرب لمطلب هذا الشيخ واستجاب لرأيه ..

كان طبيعيا بعد هذا أن يغضب الولي إذا اعتدى أحد زملائه على منطقته التى تخضع لنفوذه ، بل لقد كان غالب فقراء هذا العصر يغيصون من لم يكن من تلامذة شيخهم ويتمنى الواحد منهم ألا يظهر اسم فى بلده لغير شيخه ، ويتبادلون نظرات مليئة بالحقد فياضة بالاحتقار ، كما ظن الواحد منهم أن من أخذ الطريق على غير شيخه كان على غير دينه<sup>(٢)</sup> . وما كان المريدون وحدهم هم الذين يحملون هذه الضغينة وينطوون على هذا التعصب ، فقد كان الأشياخ إذا تحول عنهم مريدوهم إلى شيخ آخر أصابت الإحن قلوبهم ، وأدركت الكراهية نفوسهم حتى حذر الشرعاني الشيوخ من شر ذلك ، وأشار على من ابتلى به منهم أن يتخذ له شيخا يسلك على يديه حتى يرقى به إلى مرتبة الاخلاص ، فيشرح صدره لمثل هذا التحول ، لأن من ساءه هذا فقد أعوزه الاخلاص لطريقه<sup>(٣)</sup> .

(١) بهجة النفوس والأخلاق ص ١٦٨ (مخطوط)

(٢) لطائف المنن ج ٢ ص ١٠٢

(٣) الصهود المحمدية ص ١٢٩

كان اعتداه الولي على منطقة غيره من الأولياء عدواناً بالناً وامتثالاً لحكمة الطريق ، على أن الأولياء كانوا إذا رأوا ولياً أقوى منهم شخصية وأكثر أتباعاً وأمضى تقوذاً وأرحب سلطاناً، خضعوا له وساروا تحت رايته ، فإن أجمعوا على الإذعان له ، عرضوا عليه القبطانية ، ودانت له الأرض بما رحبت ، وخضعت له الرقاب بما حملت . . . وكان وحيد عصره . . .

### القبطانية ونفوذ أهلها في مصر :

والقبطانية التي جرى العرف بأن تكون لواحد فذ لا تتجاوز ، قد ظفر بها في مصر بعض الأولياء إبان هذا العصر . . . أصابها محمد الحفناوى الخلقوى المتوفى سنة ١١٨١ هـ الذي دانت لطاعته الرقاب ، وأخذ العهود على العالم وأدار مجالس الأذكار بالليل والنهار وأحيا طريق القوم بعد درسها ، وأنقذ من ورطة الجمل مهجاً من غي نفوسها فبلغ هديه الأقطار كلها وصار له في كثير من قرى مصر - قبل أن يكون قطبا - نقيب وخليفة وتلامذة وأتباع يذكرون الله تعالى ، ولم يزل أمره في ازدياد وانتشار حتى بلغ سائر أقطار الأرض وصار الكبار والصغار والنساء والرجال يذكرون الله بطريقته ، وصار خليفة الوقت وقطبه ولم يبق ولي من أهل عصره إلا أذعن له . . . وأسلم على يديه خلق كثير من النصارى . . . وأكثر فيه الشعراء من المديح ، وبموته دأبت نزول البلاء واختلال أحوال الديار المصرية ، لأن الرعي لا تدور بدون قطبها ، وقد كان رحمه الله قطب رعي الديار المصرية ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا باطلاعه وإذنه . (١) .

بل لقد كان الولي إذا ثبت قدمه وذاعت تعاليمه ، في مشارق الأرض ومغاربها ، يشعر بتوطد سلطانه حتى ليأبى القبطانية إذا عرضوها عليه . . . فن ذلك ما كان من أمر أستاذه السيد مصطفى البكري الذي أوقى مفاتيح

العلوم كلها حتى أذعن له أولياء عصره وبحقوه في مشارق الأرض ومغاربها ، وأخذ على رؤساء الجن العهود ، وعم مدده سائر الورود ، فان قطبانية المشرق قد عرضت عليه فأبأها (١) . . . ١١٠

وبلغ من خطر القطبانية في العالم الاسلامي أن أشيعت عند المغاربة عن الزبيدي + ١٢٠٥ في مصر — وهو صاحب الشرح الوافي لإحياء الغزالي (٢) وتاج المروس في شرح القاموس وغير ذلك — فكان إذا وفد أحد هؤلاء المغاربة إلى مصر حاجاً ولم يصله بشيء ، لا يعتبر حجه كاملاً . . . او كانوا أيام الحج محتشدين ببابه منذ الصباح حتى المساء ، وكان بعضهم يحمل إليه استفتاء من علماء بلده وأعيانه ، فان ظفره بقطعة ورق ولو بمقدار الأتملة فكأنما ظفر بحسن الخاتمة وحفظها معه كالتيمة ، ورأى حجه مقبولا ، وإلا فقد باء بالخيبة والتدامة وأحاطة باللوم أهل بلاده ، ودامت حسرته إلى يوم ميعاده (٣) . . . ١٠٠

ومن الخير أن نشير إلى أن الكتاب في هذا العصر كانوا يسرفون في إضافة الأوصاف إلى من يترجمون لهم ، على سبيل التهجد والتعظيم ، ولم يكن صفار المؤرخين وحدهم هم الذين ينزلقون إلى هذا الإسراف ، وكان الناس — في مصر — يزعمون أن الأقطاب أربعة . . . وقال بعضهم بل اثنان — وقد عرض للحديث عنهم الأستاذ لين Lane وصور فكرة المصريين عنهم بشيء التفصيل (٤) .

على أن الأولياء كانوا في مصر يعلنون استقلالهم إذا لم نجد القطبانية من هو أهل لها ، قال الجبرتي معقبا على ممات الحفناوى : إن البلاء قد نزل بالبلاد

(١) الجبرتي ج ١ ص ١٧٢

(٢) اتخاف السادة الثقلين شرح أسرار احبياء علوم الدين لمحمد بن محمد الحسين الزبيدي الشيرى بمصر — طبعة مصر في عشرة أجزاء ، وطبعة المغرب في ثلاثة عشر جزءا .

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ٢١٣ .

(٤) لين E.Lane في كتابه السائق ص ٢٣٦ وما بعدها .

المصرية والحجازية والشامية بعده . ولم يزل يتضاعف حتى عم الدنيا وساد  
أقطار الأرض ، وهذا هو السر الظاهري . وهو ولا شك تابع للباطني ،  
وهو القيام بحق ورائة النبوة وكال المتابعة وتميد القواعد وإقامة أعلام الهدى  
والإسلام وإحكام مباني التقوى . لأنهم آمناء الله في العالم وخلاصة بني آدم ،  
أولئك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ، <sup>(١)</sup> وظاهر من  
نص الجبرقي أن القطبانية لو وجدت من يتولاها بعد عات الحفناوى لما أصاب  
البلاد الإسلامية هذا البلاء . ولعل هذا الرأي يخالف ما انفق عليه جمهرة  
الباحثين في القطبانية ، إذ نعتقد رأيهم على أن القطبانية لا تخلو لحظة واحدة  
من ولى يتولاها ويقوم بأعمالها <sup>(٢)</sup> .

### آ ناه نفوذهم في مناطقهم :

كان المنصوف إذا خرج إلى الشارع أو سار في الأسواق تهافت عليه  
الناس وتكاثر حوله عبيدهم ، وسدوا طريقه وأنهلوا على يديه وقدميه تقبيلًا  
ولثًا ، ومن كان خروجه إلى الشوارع يثير هذا الضجيج السيد محمد البكري ،  
كما يقول صاحب السكواكب السائرة <sup>(٣)</sup> . بل لقد روى صاحب النور السافر  
في ترجمته أن الشعراء من فضلاء مصر المتكئين في علوم اللغة وقواعد الشعر  
ومذاهب الإنشاء كانوا يقصرون إليه بقصائدهم المليئة بالمدائح ، وأنه كان إذا  
قام من مجلس جلس فيه للتدريس بالجامع الأزهر أو غيره ، تقدم الناس  
لتقبيل يده والتبرك بدعائه والتمس بالقراب من موضعه ، وكان الازدحام يقع  
بينهم حتى ليسقط بعضهم تحت أقدام الناس - وكان يحيط به جماعة من جنده  
السلطان التركي وغيرهم يحلقون على حضرته بأيديهم خشية عليه من أذى  
الازدحام ، وربما أخذ أحدهم بيده الشريفة وهي ممدودة لتقبيل الناس

(١) العبرتي ج ١ ص ٣١٥ - ٣١٦

(٢) مادة Wali في دائرة المعارف الإسلامية .

(٣) السكواكب السائرة ج ٣ ص ١٠٨

لطول زمن مدها ثم إذ كان يمدّها لهم بعد درسه نحواً من ساعة زمانية ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية في الازدحام عليه إلى أن يصل إليها ، كما يقول صاحب النور السافر<sup>(١)</sup> ، بل لقد كان وجود الفقير في مكان قفر كفيلاً بتعميره وجذب الناس إليه ، اتصل بالشيخ محمد المنير ذات يوم أن ولدا قد اشتد به الظمأ حتى قتله ، فباله ما سمع ومضى إلى المكان الذي مات فيه وحفر في الأرض بئراً وأقام زاوية له فسرعان ما تهاقت عليه الفقراء وعمرؤا لهم بيوتاً على كسب من زاويته ، فأضحى المكان الفقرفرية عامرة بالفقراء والناس والزلاء ومن يرحلون عن مصر إلى القدس والشام أو غرة أويهمدون إليها من هذه البلاد<sup>(٢)</sup> ، وكان أبو النجا القوي ، إذا سافر إلى بلده ، فوه ، ثم عاد إلى مصر ، وصلت مركبه إلى بولاق إذ ذهب الناس أقواجا يثلقونه كأنه سلطان ، ويكون ذلك يوم عيد عندهم ، كما يقول المناوي<sup>(٣)</sup> .

بل لقد امتد نفوذ هؤلاء إلى طريدى القانون والخارجين على قواعد الدين... فكان العصاة من قطاع الطرق يرتدون على يد الشيخ على البيوسى + ١١٨٣ مريدون وأتباعا له ، أو منهم من صار من السالكين . وقد كان يوثقهم أحيانا في أعمدة مسجد الظاهر بسلسلة من حديد ، وتارة يضع الطروق في رقابهم أو يؤدبهم بما يقتضيه رأيه وهم سكوت عن رضا وطواعية . . . وكان إذا ركب إلى المشهد الحسيني في جماعته تبعه هؤلاء العصاة والمجرمون حاملين العصي والأسلحة في موكب له روعته وجلاله<sup>(٤)</sup> ، وكذلك كان الشأن مع الشيخ الشناوى ، فقد كان ينظر إلى قاطع الطريق وهو مار به فسرعان ما يتبعه هذا ولا يملك رد نفسه عن ملازمة الشيخ والسير في ركابه . . . وقد ارتقى بعض

(١) النور السافر ص ١١٤ — ١١٦ وقد ذكره في وفيات سنة ٩٩٣ هـ أما أبو السرور البكرى وعلى مبارك والنزى فقد ذكروه في وفيات سنة ٩٩٤ هـ ( ينظر بيت الصديق ص ٧٤ غلا من أبي السرور البكرى ، المخطط التوفيقية ج ٣ ص ١٢٦ ، الكواكب السائرة ج ٣ ص ١١٢ ) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٩٣

(٣) الكواكب النورية ص ٤٨١

(٤) البجيرى ج ١ ص ٣٤٠ ، طبقات الشاذلية ص ١٤٤



هؤلاء اللصوص الثائين حتى صاروا من أعيان جماعته (١) . . .

ومعنى هذا أن الشعب كان لا يعبأ بماضى الفقراء الذين يحسن الظن بهم، ويؤمن بصدق ولايتهم، ولعل هذا ليس أغرب من أن نقول إن حاضرم كان لا يعنى الناس في أكثر الحالات .

سار على البكرى + ١٢٠٧ هـ عاريا في الأسواق يهذى في حديثه ويخلط في كلامه، فيقول الناس هذيانه تأويلا يلاتهم أحوالهم ويتفق مع أغراضهم، واستغل أخوه سداجة الناس فتمه من الخروج إلى الشوارع والأسواق - مكشوف الرأس والسواكين كما كان يفعل في أغلب أحواله - وحبه في بيته وروح له وعزا إليه من الكرامات والخوارق ما حمل الناس على الإسراف في الإيمان به والمصارعة إلى تقديم الهدايا والتذور إليه حتى أئرى أخوه من ورائه، وقد بلغ من اعتقاد الناس في هذا الدرويش أن تبعته امرأة ولزمت في الشوارع والأسواق، فصرعان ما آمن الكثيرون من الناس بصدق ولايتها، وأشاعوا أن الشيخ قد لحظها وجذبها، فأضحت من أولياء الله الصالحين، ثم ارتقت في درجات الجذب فخرجت معه إلى الشارع في زى الرجال يتبعهما أنى سارا الأطفال والصغار وعامة الناس . . . ومنهم من اقتدى بهما، ونزع ثيابه وتحنجل في مشيته، فقبل إن الشيخ قد جذبته أومسته فصار وليا . . . وكثر أتباع هذا الرجل المعتمه حتى كان إذا مر بشارع ملاءه ضجيجا، ونهب أتباعه محال التجار واستولوا على ما فيها من بضائع، وكانت المرأة تصعد أحيانا على درج عال وتفحش في القول فيزداد إيمان الكثيرين بها ويقبلون يدها تيمنا ببركتها . . . ومروا بهم ذات يوم بيت جندى يسمى «جعفر كاشف»، فقبض على الشيخ وأدخله إلى داره ومعه المرأة وسائر المجاذيب - ثم طرد الناس عنه وقدم له ما يأكله، وأدخل المرأة والمجاذيب إلى الحبس وأطلق الشيخ إلى حال سبيله . ثم أخذ يضرب المرأة والمجاذيب حتى طير

الولاية من رومهم ورد الرشد إلى عقولهم، ثم أطلق سراحهم إلا المرأة فانه أرسلها إلى المارستان وربطها عند المجانين، ولثت على هذه الحال حتى إذا جددت الحوادث أطلق سراحها فخرجت إلى الشوارع فاذا هي شيخخة على أفرادها، يحسن الناس الاعتقاد فيها، ويؤمن النساء بصدق ولايتها حتى أقيمت لها الموالد — بعد مائتها — وقدمت إليها الهدايا والتذورات<sup>(١)</sup> . . . ١١.

بل بلغ من مكانته الملحوظة أن كان شيوخ الطرق في الدول الإسلامية يجتمعون به فيعطيه، إذا عاما على عموم الطرق وبأذن لهم في أن يكونوا رؤساء يرجع إليهم في أمر عموم أهل الطرق . . . كما يقول صاحب طبقات الشاذلية<sup>(٢)</sup> .

وكما كان هذا هو الشأن مع الأميين والمشعوذين فقد كان مع المستبرين، وقد عرفنا من قبل كيف جمع السادات في يده السلطين : التشريعية والتنفيذية حتى أباح لنفسه أن يستدعى المذنبين والآثمة في رأيه، وبفرض عليهم العقاب الذي يشاؤه، ويتغذ على مرأى من الناس ومسمع من الحكام، فلا ينضب لذلك أحد. والغريب أن روح العصر كانت لا تسمح بأن يكون الحاكم واحدا من أهل البلد . . . ١٢.

ولم يتوافر له هذا النفوذ عند عامة الناس وطغاهم فحسب، بل كان له سلطان ممدود الرحاب على ذوى المكانة الملحوظة من رفقائه وجلسائه الذين كانوا لا يتكلمون معه إلا بميزان، وملاحظة الأركان، ويتأدبون معه في رد الجواب وحذف كاف الخطاب ونقل الضمائر عن وضعها في غالب الألفاظ، بل كلها حتى في الآثار المروية والأحاديث النبوية، وغير ذلك من المبالغات وتحسين العبارات والوصف بالمناقب الجليلة حتى إن السيد حسين الميرزاوى الخطيب كان ينشئ خطبا يخاطب بها يوم الجمعة التي يكون المترجم حاضرا

(١) الجبرتي ص ١١٣ و ١١٤ ج ٢ و ٨٤ و ٨٥ ج ٣ وطبقات الشاذلية ص ١٥٣

و ١٥٤ (مع سقاجة في نيل الطواهر)

(٢) طبقات الشاذلية ص ١٢٢

فيها بالمشهد الحسيني ويزاويهم أيام المولد ، ويدرج فيها الإطراء العظيم في المترجم والتوسل به في كشف المهمات وتفريج الكروب وغفران الذنوب حتى أتى سمعت قائلاً يقول بعد الصلاة : لم يبق على الخطيب إلا أن يقول أركعوا واسجدوا واعبدوا شيخ السادات<sup>(١)</sup> . . . أو كذلك كان شأن هذا الرجل المادى الوصولى مع أعظم المدرسين في ذلك الوقت ، قال الجبرتي كذلك ، وبالغوا في تعظيمه وتقديره ومدحوه بالقصائد البليغة طمعا في صلاته وجوائزها وحصول الشهرة لهم ، وزال الخول والتعارف بمن يتردد إلى داره من الأمراء والأكابر ، وزاد هو أيضا وجهها ووجاهة بمجالستهم وبلغ به أنه لا يقوم لأكثرهم إذا دخل عليه ، ومنهم من يدخل بغاية الأدب فيضم ثيابه ويقول عند مشاهدته ياء ولاى يا واحد ، فيجيبه هو بقوله يامو لاى يادائهم ياعلى يا حكيم . فاذا حصل بالقرب منه بنحو ذراعين حيا على ركبتيه ومد يمينه لتقبيل يده أو طرف ثوبه ، وأما الآدون فلا يقبل إلا طرف ثوبه وكذلك أتباعه وخدمه الخواص . . . الخ<sup>(٢)</sup> . بل حسب هؤلاء الشيوخ نفوذاً عند الشعب ، مرضاته عما كانوا يرتكبونه من الزنا بالفساء والفسق في الغلمان ، وتعاطى المخدرات واستيلائهم على أموال الناس ، وحرصهم على الدنيا باسم الزهد في الدنيا والاستهانة بشهواتها والرغبة في الاتصال بالله . ١

...

بعض آيات نفوذهم عند المريدين :

أوجب شيوخ الطريق على المريد آداباً شملت إرادته وطعنت شخصيته ، ورفعت الشيخ في نظره إلى مرتبة الله ، بل جاوزت به هذه المرتبة . . .<sup>(٣)</sup> فن

(١) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٥ . بيت السادات الوقائية ص ٢١

(٢) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٠

(٣) أنظر كتابنا عن الشمراني في الفصل الذى عقدناه على علاقته بالمريدين

ذلك ما يراه السيد محمد البكري الكبير + ٩٩٤ هـ في رسالة له يصرح فيها بأن من واجب العبد — أي المريد — أن يذكر أنه بين يدي أستاذه في كل نفس من أنفاسه<sup>(١)</sup>، ولكنه يصرح في رسالة أخرى بأن الله قد جعل أسبابا يصل بها عبده إلى حضرته الربانية، منها مراقبة الحق وتذكر العبد أنه بين يدي الله في سائر أوقاته أو غالبها... إلخ<sup>(٢)</sup>.

بل أوجب الشيوخ على المريد أن يستجيب لأوامرهم ولو قضت بعصيانته لله وتمرد على قواعد دينه، بانفطار رمضان أو الإهمال في إقامة الصلاة... إلخ<sup>(٣)</sup> ومثل هذا يقال فيما أباحه الشرع وحرمه الشيخ، لأن الترقى لا يكون بالاستمتاع بالمباح من اللذات، بل بالزهد فيما أحل الله من وجوه اللذة، والتزام الجانب الوعر في السلوك إلى الله<sup>(٤)</sup> واتباع نصائح شيخه — بالما ما بلغ وجه الإجحاف بها وقلة الذوق فيها<sup>(٥)</sup> بل إن السنة المروية عن رسول الله — فيما يدعون — لا تبرر اعتراض المريد على شيخه في أمر أو نهى... إلخ<sup>(٦)</sup> وإذا أشرك المريد بشيخه شيخاً آخر، كان كمن يشرك يالمة... إلخ<sup>(٧)</sup> إلى آخر هذا المفرد الذي نشأ في آثار هؤلاء الشيوخ... إلخ

بعضه آيات نفروهم عنده الحرام :

وقد استبد سلطان هؤلاء الشيوخ بنفوس الملوك والسلاطين والأمراء، فتنافس هؤلاء في الاتصال بهم والظفر بمرضاتهم وإصابة الطيبات من دعواتهم، واستغلال نفوذهم عند الشعب في اكتساب مرضاته عن جور هؤلاء الحكام : فمن ذلك أن كان الولاة يتقربون إلى بعض هؤلاء الشيوخ ويتخذونهم أصدقاء

(١) هداية المريد ٤٦٠ (مخطوط) (٢) تحفة السالك من ٤٥٨ (مخطوط)

(٣) السير إلى الله من ١٥٦٩

(٤) الشرائع : قواعد الصوفية من ١٢٠٧

(٥) قارن المصدر السالف من ١٤٦ و ١٤١ و ٢٠٧

(٦) المصدر السالف من ١١٣٠

(٧) المصدر السالف من ١٥٤ و ١٥٥ و قارن الميرزا ج ٢ من ٦٥ — ٦٦

وندماء<sup>(١)</sup> ويتردد نواب مصر وقضاة عساكرها وحكامهم على الدمرداش + ٩٥٤ هـ ويلتمسون تقبيل يده فلا يلتقى لهم بالآ<sup>(٢)</sup>، بل كان الأمراء والسلاطين في بلاد العالم الاسلامي يحسنون الظن بالسيد البكرى + ٩٩٤ هـ وبكاتبونه ويهادونه ويلتمسون عنده النصيح والإرشاد، ويستجيب لشفاعاته ولاية مصر ونوابها، ويختلف لزيارته الوزير سنان باشا كل يوم جمعة، ويقبل يده ويأمر بأمره وينتهي بنبيه<sup>(٣)</sup>. وكثيراً ما كان الأمراء يساهمون في إقامة أضرحة الأولياء وتنظيم موالدهم الملأى بالفساد من الزنا بالنساء والواط بالغلدان ونحوه<sup>(٤)</sup>. وكان نساء الأمراء يحسن الظن بالدجالين من هؤلاء. ويغفرهم بالهدايا والتذورات - كما كان شائهن مع المخبول على البكرى<sup>(٥)</sup> صاحب الضريح والمزار القائمين في الرومى بالقاهرة إلى يومنا الحاضر. ولم يكن هؤلاء الحكام في موقفهم من شيوخ الطريق - صادقين كانوا أودجالين - يمتازون عن طعام الناس كثيراً أو قليلاً، وأحداً منهم التي تشهد بهذه السذاجة أكثر من أن يخصصها العبد، فن ذلك أن الوزير على باشا ابن الحكيم قد اشتد به الضيق في إحدى رحلاته، فرأى في منامه أحمد البكرى + ١١٥٣ هـ، فلما استيقظ اشتد إيمانه بولاية هذا الرجل، فاذا زاره الشيخ تلقاه الوزير باحتفاء بالغ، وخر على الأرض وأخذ يقبل قدميه، ويطلب إليه أن يأذن له في زيارته بين الحين والحين، وراح يرسل إليه الهدايا بغير حساب<sup>(٦)</sup>. بل كان الأمير إذا فعنت مع أحد هؤلاء الشيوخ، ثم أصابه شر، نسبوا ما أصابه إلى الشيخ المبيض، واشتد إيمان الأمراء بولايته. وهذا النوع من

(١) أنظر مثلاً «الحقيقة والحجز» لتابلسي ص ١٤٧

(٢) المحي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ٣ ص ٣٥٤ والحقيقة والحجز

ص ١٠٠

(٣) توفيق البكرى: بيت الصديق ص ٧٦-٧٧ وأنظر ص ١٧٨ عن ابن المواهب البكرى.

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٢٣٥ عن موقف الأمراء من الغيبي.

(٥) الجبرتي ج ٧ ص ٨٤

(٦) الجبرتي ج ١ ص ١٦٣ وبيت الصديق ص ١٦٠

الشواهد يملأ كتب الطبقات والتراجم ، وإن كان الكثيرون منهم يرون أن التصريف بالمقدرة الإلهية — وهو القدرة على العزل والإيذاء والتشكيل — لا يكون لغير واحد من أولياء الله ..

فلم يكن غريباً بعد هذا أن يلتبس الحكماء معونة هؤلاء الشيوخ زلفى إلى الله من ناحية ، وضماناً لرضا الرعايا عن جورهم من ناحية أخرى ، وكثيراً ما كانوا يلجأون إليهم عند المحن والأزمات ، ويلتمسون عندهم العون على تهدئة الناس وحفظ الأمن العام ، أو في الانتصار على الخصوم والأعداء ، روى الجبرتي أن إبراهيم بك قد مضى إلى الكرى + ١٢٠٨ هـ والرومى + ١٢٠٨ والدردير + ١٢٠١ — حين أقيمت إلى مصر الحملة النابيدية التركية بقيادة حسن باشا الجزائري القبودان — وأنه أخذ ، يبكي لهم وتصاصر في نفسه جداً وأوصاهم على المحافظة وكف الرعاية عن أمر يحدوثونه أو قومة أو حركة في مثل هذا الوقت ، فانه كان يخاف ذلك جداً<sup>(١)</sup> . وقد كان هؤلاء الثلاثة من كبار شيوخ التصوف في مصر إبان عصرهم<sup>(٢)</sup> . وإن جمع العروسي والدردير بين الفقه والطريق .

وكذلك كان الحال مع السيد خليل البكري ، إذ كان الأمراء الذين أدركهم الجزع من بطش الفرنسيين بهم أيام فتح نابليون ، كانوا — فيما يقول الجبرتي — يلوذون به ، ويحتمون في بيته ، لأنه مسموع الكلمة مقبول الشفاعة<sup>(٣)</sup> .

وقد بلغ من نفوذ الثمرافي عند الحكماء ، أن كان يسمى لتعيين القضاة

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١١٨

(٢) انظر تراجمهم في الجبرتي ج ٢ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ وللأول و ٢٦٧ — ٢٧٠ لثاني

و ١٥٧ — ١٥٨ لثالث وقد ذكرت طبقات الناذية ترجمة قصيرة لعروسي ص ١٨٩

(وحدثت تاريخ وفاته خطأ بعام ١١٠٨) وترجمة أخرى لدردير ص ١٥٥ — ١٥٦

(٣) الجبرتي ج ٤ ص ٩٢ وبيث الصديق ص ١٣٢

والمختصين وشيوخ العرب في وظائفهم<sup>(١)</sup> كما كان الحفناوى قطب رضى الديار المصرية، «ولا يتم أمر من أمور الدولة إلا بإذنه»<sup>(٢)</sup>.

وقد كان هؤلاء الشيوخ، يعملون من جانبيهم على إيهام هؤلاء الحكام بسلطتهم وسعة نفوذهم، لأن هذا يعلى من شأنهم في نظر الناس، ويكثر من أتباعهم، ويذر عليهم المال الطائل، ويحقق لهم السمعة الطائرة، فكان الشيخ يقول لتقيب زاويته: إذا أجبل الأمير الفلاني لزيارتي، فقل لي على مسمع منه إن الباشا قد أرسل اليكم السلام مع أحد أفراد جماعته، وهو يطلب اليكم ألا تضنوا عليه بدعواتكم. فإذا سمع الأمير ذلك، نقله إلى سائر الأمراء فيعلو شأنه عندهم، ويكثر ترددهم على زاويته، ويقوى اعتقادهم في ولايته...<sup>(٣)</sup> وكان الشيخ السادات + ١٢٢٨ هـ يلتبس شتى السبل لتوثيق علاقته بالأمراء، فكان يدعوهم إلى زيارته في بيته، ثم يوعز إلى فقراء الطرق الاحمدية والسعدية والشيعية بأن يمرؤا بمواكبهم تحت دأره، حتى يدرك الحكام مبلغ نفوذهم عند أرباب الطريق...<sup>(٤)</sup>.

...

ومن الأرزاق التي أجراها هؤلاء الحكام ومن إليهم من المحسنين، عاش هؤلاء الفقراء في ترف ورخاء — لا يستقيم مع أبسط قواعد الطريق — ولكنهم كانوا يدعون أنهم بنفقون من الغيب، لأن الصادقين من شيوخ الطريق، لا يذعنون لقبول ما يقدمه لهم الملوك والأمراء من أموال وهدايا ومرتبات، ولا يرضون عن حياتهم المألوفة بديلا<sup>(٥)</sup>. والرزق إنما يكون مما يفتح الله، فإن العبد إذا صدقت نيته، وأخلص في عبادة ربه، أدناه الله من

(١) الشمراني: البحر المورود ص ٢٢٢

(٢) الجبرتي ج ١ ص ٣٠٥

(٣) الشمراني: أطائف المن ج ١ ص ٢٨٢

(٤) الجبرتي ج ٤ ص ٢٠٣ وبيت السادات الوفاية لزيد توفيق البكري ص ١٩

(٥) الشمراني: تنبيه المفترين ص ٢ و ٣ ب (مخطوط).

حضرته ، وقربه من ساحته ، وأولاه الكثير من نعمه ، حتى ليرتفع فوق  
نواميس الطبيعة وقوانينها ..!!

ووجه الغرابة في هذا التعليل ، أنه قد صادف قبولا عند مؤرخي ذلك  
العصر ، وفاتت حقيقته ذوى المحجى منهم عن سبقوا عصرهم بأزمان طوال ،  
فالجبرتي يؤرخ لمحمد القاييني الأزهرى + ١١٦٤ هـ فيقول إنه كان من أصحاب  
الكرامات والمآثر ، منها أنه ، كان ينفق من الغيب ، لأنه لم يكن له إيراد  
ولا ملك ولا وظيفة ، ولا يتناول من أحد شيئا ، وينفق إتفاق من لا يخشى  
الفقر ، وإذا مشى في السوق تعلق به الفقراء ، فيعطيهم الذهب والنضة ، وإذا  
دخل الحمام دفع الأجرة عن كل من فيه ..!!<sup>(١)</sup> ويقول المحجى في ترجمة أحمد بن  
سلام المصري ، إنه كان لا يتردد إلى أحد من الكبراء ، ويحب الفقراء ولا  
يقبل من أحد صدقة مطلقا ، بل كان في غالب أوقاته يئري متصدقا ، وليس له  
وظائف ولا معاليم ، وعلى ذلك كان في أرغد عيش وأطيب نعيم ..!!<sup>(٢)</sup> ويقول  
الشعراني عن الشيخ الدويب ، إنه — حين وافته منيته — خلف مائة ألف  
دينار ، لا يعلم أحد مصدرها ، لأنه كان متجردا من الدنيا زاهدا في جاهها ..!!<sup>(٣)</sup>  
ومرد الأمر كله — فيما زى — إلى الأرزاق التي يجريها الأمراء ومن  
إليهم من المحسنين خفية عن الأنظار ، وهو تقليد حيذه الاسلام وحض  
المحسنين على اتباعه ، ومن هدايا الملوك ومن إليهم عاش هؤلاء في وفرة من  
الرخاء ، وتيسر لبعضهم أن يبرز الملوك في مظاهر الجود والسخاء ، كما كان حال  
الحفناوى + ١١٨١ هـ<sup>(٤)</sup> والرددير<sup>(٥)</sup> والسادات والشعراني<sup>(٦)</sup> وغيرهم .

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٩٦

(٢) المحجى : خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر ج ١ ص ١٧٥

(٣) الشعراني : الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٩

(٤) الجبرتي ج ١ ص ٢٩٢ والرددير في « الطريقة الصاوية » ص ٢٩ (مخطوط)

(٥) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٧ — ٨ ( وهو يشرح قصة حجه وبناء زاويته من صلات

سلطان المغرب ) .

(٦) في كتابنا عن الشعراني تحليل ما وقع له في هذا الصدد .



ومن الانصاف أن نقول إن هذا النفوذ الذى تبا لشيوخ الطريق عند  
حكام البلد، كان يمثل سلطة الشعب أمام هؤلاء الطغاة، وبهذا تجلّت إرادة  
الامة حتى فى أسود الأيام التى سجل فيها التاريخ استكاثها لاستعباد الحكام.  
وقد أفاد الشعب من وراء هذا النفوذ شيئاً آخر، هو رد الظلم والكف  
عن البغى ودفع العدوان، ذلك أن شيوخ الطريق كانوا حلقة الاتصال بين  
الشعب المظلوم وحاكمه الجائر، وكان وساطة الشيوخ بحجة وشفاعاتهم مقبولة  
فى أكثر الحالات.

وهذا بالإضافة إلى أن الأرزاق التى أجراها على شيوخ الطريق الأمراء  
ومن اليهم من الحكام، كانت تنفق فى أكثر الحالات على الشعب المنكود  
الذى أرهقهم هؤلاء الحكام بضرائبهم الجائرة الظالمة، ابتز هؤلاء أموال الشعب  
عنوة واقتداراً، وردوا جانباً منها إلى شيوخ الطريق هدايا وأرزاقاً، أنفقت  
فى الترفيه على أصحاب هذه الأموال . . .

على أن شيوخ الطريق قد دفعوا ثمن علاقتهم بالحكام، انتصاراً لظلمهم  
وتأييداً للجائر من تصرفاتهم، فأدى هذا إلى إضعاف روح النرد على هؤلاء  
الظلمة، وإخماد نار الثورة فى قلوب المصريين<sup>(١)</sup>.

---

(١) فى كتابنا السابق الذكر، فصلنا الحديث عن هذا فى فصلين متتابعين على

## ٢ - نفوذهم أمواتنا

جلال الموت — الأميون من مدعى الولاية —  
العلماء من مدعى الولاية — خطرهم إلى من أخذ  
العهد على موتى الأولياء — الطوائف التي سلكت  
الطريق على موتى الأولياء .

كان شيوخ الطريق إذا تخطفهم الموت، تسلط على الناس نفوذهم، واستأثر بالآمينين والمستغنيين، وكلما تقدم عليهم العهد، ازداد نفوذهم قوة واستبد بهوى الناس وإعجابهم، ولا غرابة في ذلك، فإن الشعوب — والمتأخرة منها بوجه خاص — تؤمن بالأضاليل، وترث الأوهام جيلا بعد جيل، ولا يتدخل العقل في تنظيم الحياة عند الناس إلا بقدر، وللموت حرمة ورهبة، نفى بالناس إلى الاسراف في تقدير من تخطفهم من الصالحين، والاشفاق من مهاجمة من يعدو عليهم من الأتقياء... والصادق من شيوخ الطريق، بالغاً ما بلغ من صدق التصوف، يصادف المفكرين والساخرين، ولكنه إذا أضحي في ذمة الله، سكت عنه خصومه وحصاده، وكف المنكرون عن التشهير به والنيل منه، وطوت حرمة الموت سوءاته، واكتفى الناس بنقل حسناته عملاً بالقول المأثور، اذكروا محاسن موتاكم. ومن ثم يعلو اسمه بعد موته، وتتسع فرجة الخلاف بينه وبين سائر البشر.

الأميون منه مدعى الولاية :

وقد عرفت مصر أثناء العصر العثماني طائفة من جهالة الشيوخ ومشعوذهم الذين اتخذوا الولاية وسيلة للظفر بالدنيا وأداة للعيش الهنيء، وأحسن الكثيرون من الناس الظن بهم والاعتقاد في ولايتهم، وعاش إلى جانب هؤلاء المشكرون لهم الساخرون بهم، فلما أصبح هؤلاء الشيوخ في ذمة الله، خفت صوت المشكرين وتلاشت صيحة الساخرين، وخر الناس جميعاً سجداً أمام حرمة

الموت الرهيب ، وشيدت ضرائح هؤلاء الأولياء وارتفعت فيها وأقام العلماء والكبراء موالدهم في كل عام ، وسام فيها خاصة الناس وعامتهم ..!! وقد كان في طليعة هؤلاء الذين عرفهم العصر العثماني في مصر على البكري + ١٢٠٧<sup>(١)</sup> الذي أشرنا إليه من قبل ، إذ كان رجلا مخبولا يمشي في الأسواق والشوارع عاريا مكشوف الرأس والسواتين في أغلب حالانه ، أو يلبس قميصا وطاقية ويسير حافي القدمين بخلط في أحاديثه ، فيقبه الأطفال والصغار وطلما الناس ويسرون وراءه بين منكر عليه ومصداق لولايته ، ولكن أكثر الناس قد مالوا إليه ، وصحت عندهم ولأيته ، كما هي عادة أهل مصر في أمثاله ، كما يقول الجبرتي ..!! وكان له أخ صاحب دهاء ومكر ، فبدا له أن يستغل إيمان الناس بولاية أخيه ، عسى أن يكسب من وراء لوثته ، فحجر عليه وحرم عليه مقاديرة البيت وألبسه ثيابا وأظهر للناس أنه أذن له بذلك ، وأنه تولى القطبانية ... الى غير ذلك من وسائل التضليل ، فأقبل الرجال والنساء على زيارته والتمس به وسماع ألغاضه والانصات الى خلطه وتأويلها بما في نفوسهم ، وأفاضوا عليه الهدايا والتذورات وخصه بالكثير منها نساء الأمراء والأكابر ، حتى أثرى أخوه واغتنى ، ونفقت سلعته وصادت شبكته وسمن الشيخ من كثرة الأكل والدسومة والفراغ والراحة حتى صار مثل أبو العظيم ، ولبث على هذا حتى مات سنة سبع بعد المائتين والآلاف من الهجرة ، فدفنوه بمعرفة أخيه في مسجد الشرايبي على كثر من مسجد الرويعي من غير مبالاة ولا اكتراث ، وأقام عليه أخوه مقصورة ومقاما ، ورتب له المقرئين والمداحين وأرباب الأشار والمنشدين بذكر كراماته وأوصافه في قصائدهم وكانوا كما يقول الجبرتي ، يتواجدون ويتصايحون ويمرغون وجوههم على شباكه وأعتابه ، ويغرفون بأيديهم من الهواء المحيط به ويضعونه في عباهم وجيوبهم ، قال البدر الحجازي شاعر العصر في بعض مقطوعاته :

(١) سمى البكري نسبة إلى سويقة البكرية التي كان يقطن بها .. فهو لا يمت بصلة إلى أميرة البكري المدروسة .

لينا لم نغش إلى أن رأينا كل ذى حجة في الناس قطبا  
علمام به يلوذون بل قد اتخذوه من دون ذى العرش ربا  
إذ نسوا الله قائلين فلان عن جميع الأنام يفرج كربا  
وإذا مات يجعلوه مزارا وله يبرعون عجما وعربا  
بعضهم قبل الضريح وبعض عتب الباب قبلوه ونربا  
هكذا المشركون تفعل مع أخصامهم تبتغى بذلك قربا  
إلى أن قال في تصيدته الخافلة بالأخطاء :

كل ذامن عى البصرة والويد ل لشخص أعمى له الله قلبا  
والحجازى حنا ينظر ما خالف الشريعة صعبا  
ومرغ لزيارة هذا الدعى المنجول النساء والرجال ، محلمين بالذور والشموع  
وضروب الماء كولات . وصار ذلك المسجد محما وموعدا (١) .

#### العلماء من مدعى الولاية :

وإذا كان هذا موقف المصريين من رجل جاهل معتوه كعلى البكرى ، فليس  
غربيا أن يشتد بهم الإيمان برجل جمع بين العلم والتصوف كالشيخ عبد الوهاب  
بن عيد السلام العنقى + ١١٧٢ هـ . فقد كان هذا الرجل عالما على طريقة  
أهل عصره ، وقد اشتهر بينهم بصدق الولاية وصحة الكرامة ، وقد سحت  
السماء مطرا غزيرا بعد ثمانه بست سنوات ، فتهدم قبره وامتلأ بالماء ، تحرك  
فى القبر سره وأحس أبناءه ومريدوه بذلك ، تخفوا لنصرته سراعا ،  
شادوا له قبرا على كسب من عمارة السلطان قايتباى ونقلوا اليه عظام الفقيد ،  
وعقدوا على القبر قبة وأقاموا له مقصورة تضم مقاما عليه عمامة كبيرة ، فأضحى  
قبر الميت مزارا عظيما بعد ست سنوات إلى فيها جسمه ونحرت أثناءها عظامه .  
ثم أنشأوا إلى جواره قبرا عاليا — عمره محمد كتنخدا أياظة — وجعلوا حوله

(١) البكرى ج ٣ ص ٨٤ و ٨٥ ، ج ٢ ص ١١٣ وق طيفت العاذلية من ١٥٣

— ١٥٤ — رواية أخرى قائمة على التمجيد والثناء .

وحجة متسعة نخطط بها الأسوار لتكون موقفاً للدواب من خيل وحمر يفد على ظهورها زوار المقام ، وضحووا في سبيل ذلك الكثير من قبور أكابر الأولياء . وأقذاذ العلماء الأولين والمحدثين من المسلمين والمسلمات . . ثم ابتدعوا لهذا المزار المصطنع موسماً وعيداً يقام كل عام ، ويفد اليه الناس عند إقامته من شتى البلاد - بحريها وقبليها - وينصبون كثيراً من الخيام والبرادق والمطابخ والمقاهى ، ويختلف اليها خاصة الناس وعامتهم من فلاحى الأرياف وأرباب الملاهى والألعاب والراقصات والبنايا والحواة وأصحاب القردة وغيرهم حتى يضيق عنهم البستان وتمتلئ بمجموعهم الصحراء ، وهم يطئون القبور بأقدامهم ، ويوقدون النيران ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمر ليلا ونهارا ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر . .

وما كان العوام وحدهم الذين يسوقهم الجهل إلى تقديس الجثث التى أبلاها الزمن ، وإن العلماء ليساهمون فى إكبار الموتى من هؤلاء الشيوخ وتقديس ذكراهم ، ويفتدى بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامّة من غير إنكار ، بل يعتقدون أن ذلك قرينة وعبادة ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء فضلا عن كونهم يفعلونه (١) ولقد وصف الأستاذ E. Lane انتشار الأضرحة فى قرى مصر وإقبال المصريين على زيارتها ولثم عباقتها وتقبيل نوافذها وحوائطها ومقاصيرها ، وتقديم النذور إليها وإقامة الموالد لها ، وشرح ذلك كله فى كتابه الذى وصف فيه رحلته إلى مصر بعد انقضاء العصر العثمانى بوضع عشرات من السنين (٢).

نظرهم الى ممه أقدم العهد على موتى الأولياء :

هذا موقف الناس من الأولياء إذا طوتهم القبور . وإن الإنسان ليعجب

(١) الجبرتي ج ١ ص ٢٢٤ و ٢٢٥ و طبعات الشاذلية ص ١٥٢

(٢) Lane, Manners and customs of Modern Egypt p. 244-6 (٢)

لهذا السلطان الذى بلغ من قدرته على الاستبداد بهوى الناس أن كان يحمل بعضهم على التلذذ على يد من أصبحوا فى ذمة التاريخ . . . كم عرف تاريخ التصوف فى العالم الإسلامى من فرق وطوائف تعيش على ذكرى أولياء طواهم الرمس منذ سنين طوال . . . ولم يقدر لواحد من هؤلاء المريدين أن يرى هذا الولى أو يسمع عنه من عاصروه . . . وقد شاع فى مصر إبان العصر العثمانى هذا النوع من الولاية : يدعى المشيخة واحد من عامة الناس ويزعم أنه قد أخذ العهد على البدوى أو الرفاعى أو الجبلى . . . أو أى من هؤلاء الأولياء الذين لم يسعد برؤيتهم والاستماع عليهم ، ولكن سحرته سمعته التى تتطاير فى العالم الإسلامى كله . . . وسرعان ما يلتف حوله أرباب الحرف وغيرهم من سذج الناس .

ثم يعيش هذا الشيخ وهؤلاء الأتباع والمريدون على بركة هذه الذكرى التى خلفها لهم الولى الكبير الذى يفاخرون بأنهم أخذوا الطريق عليه . . . إنهم ليستمدون منه السر ويستلمونه الولاية ويستعينون به على إثبات الكرامات ، ويستمطرونه الرحمة ويكادون أن يستغفروا به عن الله . . . وإن سلطانهم لقوى لا يخشى بأس منكر ولا ساحر ، فلا يعاؤون بمن طعن فى تصوفهم أو اتهمهم بالجهالة أو الشعوذة ، أو الخروج على ظاهر الشرع ، ففى شيخهم الأكبر فى قبره غناء وأى غناء . . . ولقد كان التلذذ على يد شيخ طواه القبر جائزاً حتى فى عرف من أنكروا على هذه الفرق تصوفها من غير شيخ حتى . . . لأنهم يستفتون فى هجومهم من أخذ الطريق على ولى كبير غير مطعون فيه — كالسيد البدوى مثلاً — وفى هذا الاستثناء ما يبرر قيام هذه الفرق فى نظر أهلها .

قالوا إن الأموات فى البرزخ قد صارت وجنهم إلى الآخرة وظهورهم إلى الدنيا فلا يعينهم خرابها ولا يهيمهم عمارها إلا إذا كانوا شيوخاً حسنت ولايتهم ووجب الاقتداء بهم ، كالأئمة المجتهدين وأصحاب الرسل . فإن



من الأولياء ، كفرق الأحمدية والبرهانية والمطاوعة والرفاعية . . وكانت تضم ألوف الأتباع المريدن ، فأكسبها هذا سلطاناً واسع النطاق ، وهون من شأن الحملات التي أثار عيورها خصومهم ، واستفز حفيظة بعض الشيوخ - من أمثال الشمراني والخواص والجارحي - وحلهم على الطعن فيها والخط من شأنها . . قال الشمراني إنه لا ينكر على هذه الفرق إلا ما خالف صريح الشرع أو الإجماع <sup>(١)</sup> ، وأنه يحسن الظن بهذه الطرق جميعاً ، ولا يحكم على فقراء هذه الفرق التي أسلفنا ذكرها بأنهم خارجون على الشريعة بمجرد إشاعة تنظائر حولهم ، بل لا بد له من أن يرى بعينه حتى يستطيع أن يحكم حكماً مطمئن إليه نفسه ، فإن في كل طائفة من الفقراء الصالح والطالح ، فلا ينبغي أن يشمل الحكم كافة فقرائها ، لأن في ذلك غبناً على الصالحين فيها <sup>(٢)</sup> .

والظاهر أن الذي حمل الشمراني على الفرق في هجومه على هذه الطوائف هو مذهبه في تملق الناس وبجاملة الفرق ومسالمة الخصوم ولا سيما إذا كانوا أقوياء <sup>(٣)</sup> . فإن رأيه فيهم كان سيئاً ، وقد ظهر ذلك في فقرات أخرى ذهبت أشتاتاً في مختلف مصنفاته ، منها قوله على لسان أحمد الزاهد : إن الملامية والحيدرية وأكثر فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والمسلمية والدسوقية خارجون على الشريعة في عصره لأن أفعالهم يكذبها طريق أشيائهم من الصدق والزهد والكرامات والخوارق والتقيد بمظاهر الكتاب والسنة <sup>(٤)</sup> . ويقول في مباحثهم إن كثيرين من الفقراء الذين لم يسلكوا على يد شيخ يتركون حرفتهم ويدورون في الزوايا كلا على الناس والاخوان يأكلون من الصدقات ، وأوساخ الناس . بعد أن كانوا يفتاتون

(١) لطائف المنن ج ١ ص ١٢

(٢) لطائف المنن ج ١ ص ٢٣٤

(٣) انظر شرح هذا في كتابنا عن « الشمراني إمام التصوف في عصره » .

(٤) الشمراني : قواعد الصوفية ص ١٧٥



من حرفتهم<sup>(١)</sup>، وأن بعض فقراء الأحمديّة والبرهامية قد قنعوا بلبس الزى وجعلوا فروض الوضوء وشروط الصلاة، ومثل هؤلاء ليسوا شيوخاً بإجماع المسلمين. فقد أدرك الشعراء للأحمديّة والبرهامية شيوخاً كانوا على الكتاب والسنة<sup>(٢)</sup> وقال إنه يكثر من إرشاد هؤلاء الفقراء إلى التلمذ على يد شيخ من الأحياء. يريهم وينصحهم بالآلا يكتفوا بالسوك على بداء الموت من الأولياء<sup>(٣)</sup>، وروى المناوى عن أبى السعود الجارحى أنه كان يريهم بقصور الهمة ولا يأخذ العهد على من تلمذ لهم من قبل. الخ<sup>(٤)</sup>.

وإن هذا الطمن كله لينبى بما كان هذه الفرق من نفوذ وما توافر لها من سلطان، وامل من الانصاف أن نقول إن هذا الوهم الذى سلطته حرمة الموت على الناس كان إذ ذاك أمراً طبيعياً لا يدعو إلى دهشة ولا يثير عجباً، لأنه وليد عوامل كثيرة تضافرت على وجوده وتعاونت على بثه فى نفوس الناس، فمن ذلك ما ساد العصر من شعور دينى عميق كان يحمل الناس — خاصة وعامة — على الإيمان بقداسة كل ما يلصق بالدين من طقوس ورسوم وما يرتكب باسمه من بهتان وضلال. ثم هذه الجهالة التى تملكته رؤس الناس وأضعفت من تفكيرهم فى ظواهر الحياة وجرتهم إلى الخلط والاضطراب كلما عمدوا إلى تحليل إحداها حتى جعلوا الهالة الأولى، سبباً مباشراً لكل ما نرى فى الحياة من شر أو خير. ثم هذا الضنك الذى كانوا يعانونه ويقاسون ضيقه، وذلك الجزع الذى ملأ هذا العصر الذى كانت فيه بيوت الأمراء فى تشاحن وانقسام حتى لانكاد نطلع إلا على وثبة من حزب على حزب أو فتكة من أمير بأمير<sup>(٥)</sup>. ولا شك أن ذلك كله كان كبير الأثر فى قلق الناس وجزعهم من عدالة الأرض. والتنافسهم الإنصاف فى رحاب السماء، ومادام الإيمان بالله قد عمر نفوسهم، والجهل قد عشنش فى رؤوسهم،

(١) البحر المورود من ٢١٦ — ٢١٧ (٢) قواعد الصوفية ص ١٧٦

(٣) لطائف المنن ج ١ ص ١٤ (٤) الكواكب الدرية ص ١٧٨

(٥) محمد فريد أبو حديد: سيرة السيد عمر مكرم ص ٢.

والضئلك قد أخرج صدورهم ، والخوف قد أنقض ظمورهم ، فإن إيمانهم بأولياء  
الله بعد الممات يصبح أمراً طبيعياً محتوماً لا مندوحة عنه ولا مفر منه . .

\*\*\*

عرضنا فيما سلف من فصول هذا الكتاب مظاهر النفوذ التي تهيأ لأرباب  
الطريق — أحياء وأمواتاً — عند شتى طبقات الشعب ومختلف هيئاته ، وعرفنا  
كيف استعبدوا السادة واستبدوا بالطغاة وأذلوا الجبابرة وأخضعوا الخصوم  
وانتصروا على الحساد واستولوا على أموال الأثرياء . . . وزيد الآن أن  
نعرف الأسباب التي هيأت لهم هذا النفوذ الواسع عند مختلف الهيئات .

## اسباب انتشار التصوف

صلاحية مصر لانتشاره — الترف في معيشة أرباب

الطريق — سقوط التكاليف الدينية عن مدعى

الولاية — حالة مصر تحت الحكم العثماني —

حب الأثر الكلدروشة

### صلاحية مصر لانتشار التصوف :

يقول الأستاذ لين Lane ، إن العرب قوم شديدو الإيمان بالخرافات ، وليس بين الشعوب العربية شعب أشد إيماناً بالخرافات من المصريين ، وكثير من خرافاتهم الشائعة بينهم يؤلف اليوم جزءاً من دينهم ، لأن القرآن قد قال بها وأيد وجودها . . . وأظهر هذه الخرافات جميعاً هو الإيمان بالجن والعفاريت <sup>(١)</sup> . ثم أسهب الأستاذ في شرح هذا النوع من الإيمان عند المصريين ، وعقب عليه بشرح نوع آخر من الإيمان الخرافي ، هو الإيمان بقداسة الأولياء رغم ما كانوا عليه من خبل أو جنون أو دجل .

ويعتينا من النص السالف أن نلاحظ إطلاق الكلام فيه إطلاقاً لا يحده قيد ولا شرط ، لأنه يقرر أن العرب بطبيعتهم أهل خرافة ، وأن المصريين بفطرتهم عباد أوهام ، وربما انتهى بنا هذا التقرير إلى الدعوة العريضة التي حمل عليها في مستهل القرن الماضي رينان Renan ، وأشباعه ، يوم فرقوا بين الشعوب في قدرتها على الفكر والنظر ، بدعوى الاختلاف في حظهم من الطبيعة السامية والطبيعة الآرية . . . على أن النظرة التي أملاها التعصب في القرن الماضي ، قد أخذت تذوب وتلاشى في القرن الحاضر أمام الأبحاث العلمية التي يقوم بها مؤرخو الفكر البشري ، ولا سيما من أهمتهم بدراسة الفلسفة الإسلامية .

والرأى عندنا أن انتشار الخرافات في شعب من الشعوب يتناسب طردياً مع شيوخ الجهل ، عكسياً مع انتشار العلم ، وإذا فشت الجهالة في شعب وأصابته الفاقة وأدركه الضنك وثقلت عليه الحياة ، كان هذا الشعب أصحح البيئات لشيوع الخرافات وانتشار الأوهام . وقد توافرت في المصريين إبان العصر العثماني هذه الصفات : ملأت الجهالة رؤوسهم وأنقضت الفاقة ظهورهم ، وأخرجت المظالم صدورهم ، فلاذوا بالخيال يستعينون به على احتمال تلك الحياة التي ثقلت على كواهلهم ، وأقوى مظاهر الخيال الذي يميل إليه هذا النوع من الشعوب ، ما كان له اتصال بالعقائد الدينية . لأن التدين يغذي هذا النوع من الإيمان الخرافي ويقويه في نفوس أهله . فرد الأمر في هذا الإيمان إلى الظروف التي أحاطت بالشعب المصري لا إلى طبيعته .

هذا فيما يتصل بالدجالين من مدعى التصوف ، فأما المستقيمون فقد كان سبيل الاطلاع على كتب السلف من أهل التصوف مبسراً لهم ، فالغزالي — على وجه الخصوص — كان ذائع الصيت في العالم الإسلامي كله ، وقد انتشرت تعاليمه وشاعت مؤلفاته في التصوف وغيره ، وتناولها الكتاب بالشرح والتلخيص والاعتراض والتأييد ، وحسبنا أن نعلم في هذا الصدد أن كتاب الوجيز قد كتب عنه سبعون شرحاً بعضها في ستين أو ستة عشر مجلداً<sup>(١)</sup> ، وقد ساهمت مصر بنصيبها في هذا الميدان ، ومن مظاهر الاشتراك في فهم تعاليمه إبان العصر المملوكي أن محمد بن علي العجاوني + ٨١٣ قد قام

(١) الزبيدي ج ١ من أبحاث السادة المتقين ص ٤٣

وقد وضع كتاب الأنوار القدسية ، ولخص فيه « الفتوحات المكية » لابن عربي ، وخمس به العلماء الأكابر ، إذ « ليس لغريم منه إلا الظاهر » ثم اختار منه كتاباً سماه « الكبيريت الأخر » في بيان علوم الشيخ الأكبر في جزئين ، ووضع البواقيت والخواهر في بيان عقائد الأكبر في جزئين ، حاول فيه التوفيق بين عقائد أهل الكدف والبيان وعقائد أهل الفكر والاستدلال ، وأقام هذا الكتاب كدلة على أقوال ابن عربي في الفتوحات وغيرها من آثاره ، ووضع كذلك « سواعل الأنوار القدسية » فيما صدرت به الفتوحات المكية ، وهو — فيما نعلم — لا يزال مخطوطاً ، و... الخ .

بتلخيص كتاب « الإحياء » وكان شيخ خاتمه سعيد السعداء ، وقام أخوه باختصاره في كتاب وصف الشيخ زين الدين قطلوبغا الحنفى المصرى + ٨٧٩ هـ كتاباً أسماه « تحفة الإحياء » فيما فات من تخاريج أحاديث الإحياء ، ثم وضع الجلال السيوطى + ٩١١ مختصراً آخر « للإحياء » وكان السيوطى طائر الشهرة قوى النفوذ بين معاصريه ، وجاء الشمرانى فوضع رسالة فى كلمة للغزالي هى « ليس فى الامكان أبدع مما كان » ، واطلع الشمرانى على كتب ابن عربى وتأثر بها تأثراً أدى به إلى أن يصبح « يوقاً » لابن العربى يردد فى كتبه آراءه بين الحين والحين <sup>(١)</sup> . ثم جاء الزبيدى ، فى أواخر العصر العثمانى + ١١٠٥ هـ فشرح الإحياء فى عشرة أجزاء كبار <sup>(٢)</sup> ، وقراء الجبرتى وغيره من مؤرخى العصر يعرفون أن كتاب الإحياء للغزالي والرسالة القشيرية وعوارف المعارف للسهروردى كانت شائعة منتشرة بين المستنيرين .

ومن الخير أن نعقب على هذا الكلام المجمع ، بذكر ظواهر أخرى كانت من أعظم البراعث أثراً فى شيوع التصوف بين الناس :

كان الفقراء أرواح بالاولأ كثر طمأنينة من الفلاحين فى حقوقهم والتجار فى متاجرهم والصناع فى مصانعهم . فقد كانوا كما أسلفنا من قبل فى أمان من تطبيق القوانين ، ومنجاة من ضغط الرأى العام ، واستعلاء على أبسط مبادئ الدين ، وقل من الحكام من سوى بينهم وبين مآثر طبقات الشعب فى جمع الضرائب وأخذ الأتاوات وإزعاجهم بالعدوان بين الحين والحين ، كان الشعب يئن ولا سبباً فى فترات الظلم إبان هذا العصر — من شدة الضنك والاعتداء على الحرمات وامتثال الخريجات على أيدي فرق الجند التى كانت لا تجد لها رادعاً يردعها عن هذا النهى ، وكان الحكام — فى الكثير من

(١) انظر كتابنا عن « الشمرانى إمام التصوف فى عصره » ص ٥٩ - ٦٣

(٢) طبعة مصر — أماطبة الغرب فتنق فى ١٣ مجلداً ( ومن الصعب على المصرى قراءتها الاختلاف فى رسم الحروف بين المصريين والعراقية .

الأحايين — إذا اهتموا بعلاج هذا الفساد عجزوا عن الضرب على أيدي  
الآثمين والمعتدين ، فلقوا إلى الشعب الذي يتن وبشكوك من هذا العدوان ،  
وطالبوه باخفاء نفسه عن المفسدين ، وشددوا النكير على من لا يستجيب  
لهذه الأوامر <sup>(١)</sup> ، وما أكثر حوادث العبث بالمشايخ بخطف عمائمهم  
والاستهتار بالناس والاستهانة بالحرمة بخطف النساء والصبيان من  
الطرق ليلاً ونهاراً <sup>(٢)</sup> . وكان التجار — في فترات الظلم — لا يأمنون على  
بضائعهم وأموالهم من العدوان الذي يتوقعون نزوله بهم بين الحين والحين .  
وقد كان من عادة الفرق العسكرية إذا فتحت بلداً شاركت أهل الحرف  
في مكاسبهم ، فيمضي الجندي منهم إلى التاجر ويخلع سلاحه ويعلقه في المحل  
ويصبح شريكاً في أرباحه ... حتى ثقل على أهل البلدة هذه الفعلة لتكلفتهم  
مالاً ألفوه ولا عرفوه <sup>(٣)</sup> . وكان التاجر لا يكاد يستقر في متجره حتى يسمع  
الناس يتصايحون ويتصايقون في العدو ، فرعان ما يحسبها فتنة قد شبت  
نارها فيبادر بإغلاق محله ويلوذ فراراً ... وكثيراً ما كان يتضح له بعد ذلك ألا  
فتنة ولا قتال ، فيعود إلى محله فيفتحه <sup>(٤)</sup> . وكان الفلاح في قريته معرضاً  
لنوع آخر من الفرع والجرع ، كأن القضاة والكشاف يحطون عليه ويطالبونه  
بدفع الضرائب والأدوات ، فإن عجز عن الدفع انتزعوا منه أرضه <sup>(٥)</sup>  
وأذاقوه العذاب ألواناً وأشكالاً : بالمقارع والكسارات وعصر الرأس  
وإمرار الطونس على ظهره وإدخال البوص بين الظفر واللحم والتعليق  
ووضع الخوذة المحماة بالنار على الرأس <sup>(٦)</sup> وما إلى ذلك من ضروب القسوة  
البالغة ، وكان المباشرون — ولا سيما في بداية الفتح — كالمالوك يتصرفون

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٤٩ ، ابن أبياس ج ٣ ص ١٥٠ و ١٨٣

(٢) ابن أبياس ج ٣ ص ١٤١ و ١٨٣

(٣) الجبرتي ج ٢ ص ١٢٤ (٤) الجبرتي ج ٢ ص ١١٩

(٥) الرافعي في الحركة القومية ج ١ ص ٣٠ (٦) المناقب الكبرى ص ١٢١

في أمور الدولة بما يشامون وليس على يدهم يد<sup>(١)</sup> وما كان الولاية والكشاف والأعراب وقطاع الطرق ومناصر اللصوص هم وحدهم الذين يفلقون بال الفلاحين والتجار بين الحين والحين ، فقد كان الأغنياء والفقراء ينزلون بضياتهم فيأدر هؤلاء بإعداد الطعام الفاخر لهم ، وتهيئة الجو الصالح لضياتهم ، ويحملون في سبيل ذلك ما لا قبل لهم باحتماله<sup>(٢)</sup> ، بل كان التقصير في أداء هذا الواجب يعتبر عند الناس فضيحة<sup>(٣)</sup>.

أما المجاورون في الزوايا فقد كانوا — حتى في أغلب فترات الظلم الفادح — في نجاة من هذه الشرور كلها ، لأن الجنود كانوا يخافون بأسهم ويخشون سلطانهم الروحي ، ويؤمنون باتصالهم بالله فيترلقون إليهم ويطلبون الرضاء منهم ، فأقبل بعض الناس على دخول الطريق مدفوعاً بما سيصيبه في رحاب الزوايا من أطمئنان البال واستقرار الحال .

### الترف في معيشة أرباب الطربى :

وكان للفقراء فوق النجاة من ضغط الحياة يومذاك ، لا يجهدون أنفسهم في احتراف عمل يكسبون قوتهم من ورائه ، بل كانوا يعيشون في الزوايا طاعمين كاسين على نفقة المحسنين والأثرياء بدعوى التفرغ للذكر والانقطاع للتهجد والتجرد لعبادة الله . ومن أطرف مفارقات هذا العصر أن يكون هؤلاء الزهدة الذين يدعون التقشف والقناعة بالتافه من شئون العيش ، أرغد عيشاً وأترف حياة من الفلاحين والتجار وأرباب الحرف ، وقد وصف مؤرخو العصر — من الجبرتي وابن اياس والشعراني ومن إليهم — حال المصري تحت الحكم العثماني ، بما ينوء تحت نيره من فاقة وضنك ، ثم وصفوا حال الفقراء في الزوايا وما كانوا ينعمون به من أطايب العيش وسائر مظاهر

(٢) ودع الفقراء من ٢٠٠٢٤١

(١) ابن اياس ج ٣ ص ١٨١

(٣) البحر المروود من ٣٠٤

اليسر والهناء . فظهر خلال وصفهم نوع من النابين يشير الدهشة ويدعو إلى العجب <sup>(١)</sup> .

### سقوط التقاليف الدينية من مرمى الولاية :

كان من العوامل التي أدت إلى انتشار التصوف شيوع الرأي القائل بأن الولي يسقط عنه كل ما أمر به ، ويحل له أن يفعل كل ما نهى عن فعله ، والأصل في الرأي أن طائفة من المتصوفة أجازته لمن بلغ الغاية القصوى في الولاية . فرأى طغام الناس أن ادعاء الولاية بنفوذهم من تكاليف الدين ، وينجيه من فروضه وواجباته ، ويقبح لهم التمتع بما حرم عليهم من رذائل وشهوات - وكان طبعياً أن يشيع مثل هذا الرأي بين ناس قد انحلت أخلاقهم في عصر شاباه الذل وتمشى فيه الضنك وساده الفقر ومست الحاجة إلى أسباب الترويح عن النفس - فترع بعض الناس إلى الحرب من ضغط التقاليد وتضييق الرأي العام على حرية الناس ، بالنفاس الحرة في رحاب التصوف ، وادعاء الولاية التي ترفعهم عن سائر البشر ، وتجعلهم فوق قواعد الدين وأوضاع العرف ومقتضيات التقاليد .

ولعل انحلال الأخلاق في هذا العصر قد ساعد على ادعاء الولاية ، ولا عجب في أن تنحل أخلاق قوم يشتد في نفوسهم التعصب لرسوم الدين وطقوسه ، فإن تاريخ الأديان يقول إن عصور الانحلال تسودها نزعتان دينيتان متضادتان : نزعة ترمي إلى التشبث برسوم الدين والتزام طقوسه ، ونزعة ترمي إلى التهاون في تنفيذ تعاليمه والاستهتار بقواعده ومبادئه ، وأن هاتين النزعتين تسيران جنباً إلى جنب في العصر الواحد والبلد الواحد والشخص الواحد . ١١ وهذا وجد انحلال الأخلاق في مصر إلى جانب ما أسلفنا ذكره

(١) انظر في تفصيل ذلك الفصل الثاني من كتابنا عن « الشمراني » . وقد أدى الترف الذي ينعم به المريدون ومن إليهم من مجاوري الزوايا وروادها ، إلى إقبال الناس على اعتناق التصوف والانفاذ من ثمراته .



من تعصب شديد ، وكان من مظاهر هذا الانحلال الخلقي شيوع الزنا وانتشار المخدرات وغيرها من حشيش وخمرة وبوزة<sup>(١)</sup> وشيوع الشذوذ الجنسي من عشق المرد والعلبان ، ومن أمثلة النوع الأول ما رواه الشعرائي عن طالب علم اعترف له بأنه أحب زوجة شيخه وزنا بها وهي تخادع زوجها وتستغل غفلة<sup>(٢)</sup> . II. وقد كان هذا الداء شائعا في هذا العصر ، فقد انتشر الزنا بحيلة الجار أو من غاب زوجها ، حتى لم يسلم منه أحد ، ضم أحد المجالس جماعة من أكابر الناس فقال أحدهم من سلم منكم من الوقوع في الزنا فليحلف بالله على ذلك ، فما تجرأ واحد منهم على القسم واعترفوا جميعا بأنهم وقعوا فيه إبان شبابه<sup>(٣)</sup> .

ومن أمثلة النوع الثاني ما رواه عبد الغنى النابلسي عن إمام مسجد السنانية ببولاق فقد حضر النابلسي مع زين العابدين البكري + ١١٠٧ صلاة الجمعة بهذا المسجد فأدهشه أن الخطيب كان كثير اللحن في خطبته وصلاته ، وكان زين العابدين كلما سمع لحنه نظر إلى النابلسي وابتم فظن الإمام أنه معجب به مغتبط بكلامه ، فلما انتهت الصلاة مضى الخطيب إلى زين العابدين في زاوية الكشافة وأخذ ينشفع عنده ، وفي أن يأخذ له بقية الخطابة لأن له شريكا فيها لا يستحقها ، فأفهمه بعض الحاضرين حقيقة حاله وعرفوه بأن الشيخ كان يتسم لكثرة لحنه في خطبته وصلاته ، فاعتذر بأنه كان غائبا يأكل الحشيشة التي هي مناه ، ثم عدل عن ذلك كله إلى السخرية وأظهر الكلمات المضحكات والاصطلاحات العامية فطرده الحاضرون<sup>(٤)</sup> . ولو أن تعاطي الحشيش كان اتهاما يشين صاحبه أو يقضى على سمعته ، لالتبس هذا الإمام عذرا للحنه غير

(١) كان الأفبون غير شائع بين المصريين وإن شاع بين الأتراك في مصر وقد نشى الحشيش بين المصريين كما يقول كلوت بك في «لغة إلى مصر» ج ٢ ص ٢٥٥

(٢) اليهود المحمدية ص ٢٧٩

(٣) اليهود المحمدية ص ٣٤٧

(٤) عبد الغنى النابلسي : الحقيقة والمجاز + ١٠٧ — ١٠٨

هذا العذر ، والجبرتي وابن إياس خير من تحدثا من المؤرخين عن انتشار الحشيش والخمر والبوذة والفسق بالنساء والمرد إبان هذا العصر<sup>(١)</sup> .

والأمثلة على النوع الثالث (الشدوذ الجنسي) كثيرة لا يكاد يحصيها العد ، فكثيراً ما ترى في كتب التاريخ والتراجم والطبقات أن هذا العالم أو غيره كان يمشق الغلمان ساعده الله<sup>(٢)</sup> وقد عرضنا بعض مظاهر هذا النوع من قبل . وليس أدل على شيوع الشدوذ الجنسي بين هؤلاء الناس من دهشة رفاعة بك طمطاوى حين سافر إلى فرنسا لأنه لم يجد هذا الداء منتشراً بين أهلها . كأن انتشاره هو الشيء الطبيعي وغير الطبيعي حقاً ألا يكون شائعاً بين الناس<sup>(٣)</sup> .

هذا الانحلال في الأخلاق قد ساعد الناس على التماقت على دخول الطريق وإدعاء الولاية ، وعاون على تمهيد السبل لانتشار الدجل وشيوع الشعوذة ، ولو كانوا على خلق عظيم أو تدين صحيح لكان من المحتمل ، بل من المؤكد أن ينفروا من هذا الادعاء . وينساموا بأنفسهم عن تضليل الناس وينبغي أن تشير الآن إلى أن العوامل التي أسلفتها لم تكن وليدة العصر العثماني وحده ، فقد قامت في مصر وعظم أمرها قبله ، وازداد خطرهما واستشري داؤهما إبان العصر العثماني ، وذلك متفق مع رأينا الذي أعلنه من قبل حين قلنا إن التصوف الذي قام في مصر إبان العصر العثماني ، كان امتداداً طبيعياً للتصوف الذي شاع في مصر قبل ذلك ، وأن الخلاف لم يكن في نوع تياراته بل كان في قوتها أو ضعفها ، وسنزيد هذا الكلام وضوحاً فيما يلي من حديث .

(١) في ابن إياس ج ٣ ص ١٣ ، ١٣٧ ، ٨٥ ، ١٣٤ ، ١٤٦ ، ١٤٠ ، ١٨٨ ، ١٩٨ أمثلة لأبيد ذلك .

(٢) الجبرتي ج ٢ ص ٢٧٦

(٣) الذهب الأبريز لرفاعة طمطاوى .

## هالة مصر تحت الحكم العثماني :

ساعدت الحالة في مصر تحت الحكم العثماني على نمو التصوف وازدياد انتشاره ، والرغبة في تأييد هذا الرأي لا تمنعنا من التصريح بأن الحالة في هذا العصر كانت فيما نرى امتدادا طيبعا للحالة قبليه ، وأن الخلاف بينها كان فيما شمل التيارات من قوة أو ضعف . . لا نقول إن الحكم في العصر العثماني قد ساء ، ولكننا نقول إنه ازداد سوءا فترتب على ازدياد سوءه فيه نتائج ، كان من أكبرها خطرا ما اتصل بالتصوف وموقف الناس إزاءه ، إذ أدى بهم شعورهم بنمو سوءه في الحكم الجديد الى مضاعفة الرغبة في دخول الطريق واعتناق التصوف . . ولكن هذه الآراء كلها أحكام عامة لا يحسن بنا أن نمر بها دون أن نحاول التدليل على صحتها :

إن الشعوب إذا مرضت بالفاقة والجهالة تناسب رضاؤها عن الأحكام تناسبا طرديا مع رخاء العيش وصيانة العقائد الدينية في عهدهم ، فالحاكم الذي ينجح في تحقيق اليسر لهم ويصون تقاليدهم الدينية من عبث الاستهتار ، يكون أحب الأحكام إلى نفوسهم ، وأدناهم الى عواطفهم ، ولو امتنح حرياتهم واحتقر كرامتهم ودامس كافة حقوقهم وحرمانهم ، فاذا نظرنا الى الحكم العثماني بهذا المنظار وقارناه بالحكم المملوكي في نهايته ، قلنا إن المصريين قد ساءم حكم المماليك في أواخره ، ثم ازداد امتياؤهم في أيام العثمانيين سوءا بالغا ، فلنشرح هذا في إيجاز .

فن ناحية الحياة الاقتصادية ، اضمحلت ثروة البلاد باكتشاف رأس الرجاء الحسن وتحول التجارة عن مصر ، وخويت خزانة بيت المسلمين في عهد الغوري حتى رشق جامع الضرائب بالحجارة في شوارع القاهرة<sup>(١)</sup> وبلغ من شدة العوز أن اختار الأمراء بعد مماته ، طومان باي ، ليخلفه فامتنع عن قبول

ذلك وألح في الامتناع حتى استعان الأمراء عليه بأحد كبار الأولياء — هو أبو السعود الجارحي — فجعلهم يقسمون على المصحف أمامه بأن يطيعوه وبهذا تولى طومان باي السلطنة على مصر<sup>(١)</sup> ولكنهم خشوا بأيمانهم وتخاذلوا عن نصرته في رد العدو الزاحف حين أعلن إفلاس الخزانة وعجزها عن مدهم بالمال الذي يتطلبه القتال<sup>(٢)</sup> وكان الشعب يشمر بصدى هذا الافلاس في معيشته .

وأما من حيث الحرص على تقاليد البلاد الدينية فقد عجز الحكم المملوكي عن القيام بهذه المهمة في أواخر أيامه ، فقد كان الناس يجاهرون بارتكاب المعصية ، فإذا حرم عليهم ذلك وحتم على اليهود والنصارى ألا يبيعوا الخمر والبوزة والحشيش ، لم يمثل لأمره أحد منهم . ولم ينته الناس عما هم فيه — بالغنا ما بلغت القسوة في التهديد بالعقاب<sup>(٣)</sup> .

كان طبعيا بعد أن يشمر الناس بعجز الحكم المملوكي عن توفير أسباب الرخاء وصيانة التقاليد الدينية أن ينفضوه ويرغبوا عنه ويميلوا إلى حكم جديد ، فاعتبطوا بالحكم الجديد ولا سيما وقد اشتهر أهله بالجهاد الديني ، وذاع عنهم العمل على نشر الاسلام وبسط نفوذه ، ولكن اغتباطهم لم يدم طويلا ، لأن الحكم الجديد قد أثبت منذ وطئت قدمه أرض مصر أنه أعجز من الحكم القديم عن ارضاء الناس وتوفير اليسر لهم ، وحماية عقائدهم من عبث العابثين . فمن ناحية الحياة الاقتصادية ، ازدادت أحوال الناس ضيقا لأن الحكومة الجديدة كان عليها — كما عرفنا في الكلمة التيميدية للرسالة — أن ترسل للسلطان خراجا يبلغ الستمائة ألف ريال وهذا يبنحو ستمائة ألف أخرى عدا نفقات قافلة الحج ونفقات الجنود في مصر وما يتقاضاه الوالي الذي كان يشتري الولاية على مصر بمبلغ يتراوح بين الأربعمائة ألف والتمسمائة ألف

(١) ابن اياس ج ٣ ص ٦٩

(٢) ابن اياس ج ٣ ص ٨١ — وقد أراد أن يرضاهم بالقليل فرموه في وجهه ص ٨٤

(٣) ابن اياس ج ٣ ص ٨٠

ريال . ولما كان الأتراك يعتبرون مصر مزرعة تدر عليهم المال والخير الوفير فقد كانوا يقصدونها بين الحين والحين لتحقيق لهم مطالبهم ، وقد تباروا في نهبا منذ اليوم الذي وطئوا أرضها ، وقد عرفنا هذا في الفصل التاريخي الذي مهدنا به لهذا الكتاب .

وأما من حيث الحرص على التقاليد الدينية فإن الحكم الجديد قد عجز كذلك عن أداء هذه المهمة ، فكان ينادى بإبطال بيوت الحشيش والخمر والتبذ والبوزة ويحرم الزنا ويقتل كبيرات البغايا من أمثال « أنس » ثم يطالب العثمانيون بإعادة ذلك ويتعصبون مصريين على إجابة مطالبهم فلا يلبث ملك الأمراء حتى يستجيب لهم ويقر بأن « أولاد « أنس » لا يمارضون فيما يفعلون من جمع ، بنات الخطأ ، كما كانت تفعل أمهم <sup>(١)</sup> » .<sup>١٠</sup> وقد عرف الناس هذه الاستهانة منذ استولى « سليم » على البلد ، فقد شاع بينهم أنه حين طلع القلعة رأى خيمة المولود فباعها للفقارية بأربعمائة دينار ، وباعها هؤلاء قطعا للناس ، مع أن قابضها قد أفق في صنعها عشرين ومائة ألف دينار ، وقبل أكثر من ذلك حتى كانت من عجائب الدنيا <sup>(٢)</sup> . وقد كان العثمانيون في الحملة يتجاهرون بشرب الخمر في الأسواق بين الناس ، وغالبهم لا يصوم رمضان ولا يقيم في المسجد صلاة - حتى صلاة الجمعة إلا قليلا . . . .<sup>١١</sup> وكذلك كان أمراؤهم ووزراؤهم كما يقول ابن إياس <sup>(٣)</sup> . وبلغ من عدوانهم على الناس وحرمانهم أن كانوا يخطفون النساء ويفسقونهن على قارعات الطريق والناس تنظر إليهم وتكظم الغيظ منهم ، وغير ذلك من ضروب الشذوذ الذي كان نادر الحدوث قبل العصر العثماني .

على أن المقارنة التي ألفتها غير وافية لأنها تشمل فقرتين قصيرتين ، وقد أردناها لتوضح حالة الجمهور النفسية في أواخر العصر المملوكي وأوائل

(١) ابن إياس من ١٩٧ ، ١٩٨ (٢) ابن إياس من ١١٢ ، ١١٣

(٣) ابن إياس من ١٣٤

العثماني ، ولنعرف موقفه من الحكم الجديد على وجه الدقة ، ونبقى أن نقول في معرض المقارنة بين العصرين أن المماليك كانوا يرتقون العرش بحسد السيف ، وأنهم كانوا يحكم مهارتهم في فن القرومية أقدر على حفظ الأمن والفصل في قضايا الناس من الولاة العثمانيين الذين كانوا يشترون الولاية بالمال ، وكان الفائز بها منهم أقدر جميع الطامعين فيها على إتيانها ، وأن المماليك كانوا لا يعرفون لأنفسهم وطنا غير مصر حتى كان الكثيرون منهم يفاخر بأنه مصري ، وسماهم بعض المؤرخين بالأمراء المصريين . ولذا أثره في عطف الحاكم على شعبه ، وكان عصرهم في الجملة أقل ضشكا وفاقه من عصر العثمانيين فان رأس الرجاء لم يكن قد كشف بعد ، وكانت التجارة تدر عليهم أموالا طائلة ، ولم تكن هناك دولة أجنبية تطالبهم بالخراج أو الضرائب ، فكان حكم المماليك في الجملة أثر عند المصريين من حكم العثمانيين الذين طغت فرقتهم العسكرية على الحقوق وامتنت الحريات وامتنت بالحرمان ، وهي المنيطة بحفظ الأمن وصيانة الحقوق ، فكان الفتح الجديد نكبة لا حيلة للمصري حيالها ، فشعر بأن الأرض قد خلت من سند يتصره فراح يلتمس العون في رحاب الأخرى وأحس بأنه غير آمن على نفسه وماله وولده ، وأنه لا يملك في الدنيا شيئا نفيسا ولا ثاقبا ، فزهد في الدنيا وراح إلى جنات الآخرة التي يحميها حرس الله ويشرف عليها بعدله ولا تغفل عنها عينه ، وتكتمل للإنسان فيها طمأنينته ، أما ملوك هذه الأرض وطلقاتها فسيعرفون يوم الدين كيف تذلل الرقاب العاتية ، وتعلو رؤوس الضعفاء وتشمخ أنوف الفقراء ويتملك من كان بالأمس ذليلا . . .

ومن طبيعة الفقر أن يجعل أهله على الإيمان بالله والاعتقاد في رحمته ، وتاريخ الأديان يقول إن الذين استجابوا الرمالات الأنبياء وخفوا لنصرتهم سراعاً هم الفقراء والمعوزون والمحتاجون ، وقد كان تسعة أعشار الإمبراطورية الرومانية يروح تحت نير الفاقة فاستجاب للمسيحية حين دعاها الداعي إلى اعتاقها دون تمهل ولا إبطاء . . .

صاق الجمهور المصري بحاله فلاذ بالدين وزهد في الدنيا ومتاعها ، واشتد ميله إلى المسرفين في الروحية وعظم حبه للزهد والقانعين بالتافه من شئون العيش . فكان المتصوفة في عرفه أقرب إلى الله من الفقهاء — أصحاب الوظائف وأرباب الزلفى عند الحكام — وبهذا ازداد التفافه حول الدراويش وعظم إيمانه بكل من ادعى الولاية وأسرف في التظاهر بالتصوف .

على أن بعض المؤرخين يذهبون إلى أن الحكم العثماني في مصر قد صالح حاله بعد بداية الفتح ، ولكن ذلك — على فرض صحته — لا يغير من رأينا كثيراً ولا قليلاً ، فإن الاضطراب الذي صاحب الفتح في بدايته ، قد ساعد على اطراد نمو الدروشة واستمرار انتشارها ، فكان غير طبيعي أن يرتد هذا التيار الجارف بعد حين ، وإذا كان علماء المنطق يقولون إن الحكم إذا ثبت بعلة فالقياس أن يزول بزوالها ، فإن علماء الاجتماع ليعرفون بطلان هذا الحكم عندما يطبقونه على الكثير من الظواهر الاجتماعية ، فكثيراً ما تصادفهم ظاهرة من الظواهر ، ويعرفون العلل التي أوجدتها ووجدها في تيارها ، ثم يرون أن العلل التي كانت السبب في وجودها قد تلاشت واختفت ، ولكن الظاهرة التي نجمت عنها ما لبثت سائرة في مجراها ماضية في تيارها لا ترتد عن طريقها حتى يدركها الضعف فيوهن من سيرها وينتهي بها الوهن إلى الزوال ، فهي تسير مدفوعة بالقصور الذاتي . . . وقد يستغرق هذا الانحلال من الزمن أجيالاً طويلاً تمر بعد زوال العلل التي أدت إلى وجود هذه الظاهرة . . .

#### هب الأتراك للدروشة :

كان الأتراك يحبون التصوف ويميلون إلى تقديس أهله والإيمان بصدق ولايتهم . وائن كان الولاة قد قربوا العلماء واعتمدوا عليهم بعض الاعتماد فيما يتصل بالشعب من شئون الحكم . فذلك لأنهم أوفر علماً من أرباب الطريق .

فأما موقف الحكام العثمانيين وجنودهم من المنتصوفة فقد أعلنه الجبرتي عندما عرض للكلام على عمارة التكية المجاورة للقصر العيني المعروفة بتكية البكتاشية ، إذ قال إن الذي قام بتجديدها بعد خرابها رجل من الدراويش قابل حسن باشا وهو في هيئة الدراويش وطلب إليه العون فاستجاب لمطلبه وساعده على تعميرها من رشوات مناصب المكوس التي توسط لأربابها هذا الباشا ، وقال الجبرتي إن الذي حمى على هذه المساعدة أن الأتراك يميلون لذلك النوع - أى الدراويش - فصار صاحب الخائفاء من أخصائه لأنه من أهل عقيدته ،<sup>(١)</sup>.

والمعروف أن الجنود على شجاعتهم في ميدان الوغى يستعبدون سلطان الأولياء الروحي ، فيؤمنون بالأساطير والخرافات ، لأن القتال شدة تحمل صاحبها على الاعتقاد في الله والإيمان بما وراء المادة ، وقد كان الجند في مصر على هذه الحال . روى المناوى في ترجمة إبراهيم الكاشني المعجمي الذي دخل مصر في دولة بني عثمان ، ومات سنة أربعين وتسعمائة . أن الجند نهافتوا عليه وعظم اعتقادهم فيه حتى صاروا يقتلون على شرب الماء الذي بقي من غسيله في الحمام .. وقد خافت الدولة من سلطانهم وخشيت من تفكيره في الاستيلاء على مصر وأخذها من يد السلطان فقررت نفيه إلى بلاد الروم مدة من الزمان . فلما عاد إلى مصر طرد أغلب الجنود عنه امتثالاً لأمر السلطان<sup>(٢)</sup> .. ١١٠٠ وقد بلغ من نهافت الجند على الطريق أن كان بعضهم يأخذ الخيال فيجذب ويصيح فإذا هو ولي من أولياء الله ، وفرح ، المجذوب أصدق مثال لطول<sup>(٣)</sup> . وقد روى المحبي في ترجمة محمد المرزناقي + ١٠١٤ أنه اشتهر بالتعويذات فراج حاله عند الأروام ، بسبب اعتقاد المتقدمين منهم ونال بسبب ذلك وظائف ومعاليم كثيرة ،<sup>(٤)</sup>.

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٤ (٢) السكواك القدرية للمناوى ص ١٧٢ ب

(٣) السكواك القدرية للمناوى ص ٥٠٩ ب (٤) خلاصة الأثر للحبي ج ٤ ص ١٥٨



وقد روى المحبى والتابلسى فى ترجمة شاهين الدمرداش + ٩٥٤ أن نواب مصر وأمرائها كانوا شديدي الاعتقاد فى ولايته<sup>(١)</sup> وأنهم كانوا يلتصقون بتقريب يده فلا يلتفت إليهم ولا يعبا بهم<sup>(٢)</sup>.

وقد رويناه الكثير من أمثال هذه الحوادث من قبل، وكلها تشهد بمدى اعتقاد الحكام العثمانيين فى أرباب الطريق، وليس ينفى هذا أن حكام مصر قبل العصر العثمانى كانوا - فى الأغلب - أتركا، فالفارق كبير بين تركى بسين فى الأستانة حاكماً لمصر ويفد عليها تركى العقل والروح واللسان، وتركى يفد على مصر ملوكاً صغيراً فيتأقلم فى أرضها ويعيش فى جورها ويتعلم لغتها ويصبح تركياً فى أصله مصرياً فى روحه وعقله ولسانه.

وليس من شك فى أن وجود العثمانيين حكاماً لمصر قد شجع الكثيرين من دراويش الأتراك على الهجرة إليها والإقامة فى أرضها، ولسنا نعرف على وجه الدقة متى تكونت فى مصر الفرق التى تنحدر من أصل تركى، ولكننا نستطيع أن نقول إن الحكم العثمانى فى مصر لم يكن معدوم الأثر فى التصوف وطرقه ..

أدت هذه الأسباب مجتمعة إلى انتشار التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى، وهى تغنيا عن السبب الذى التمس الأستاذ د. لين، وأشرنا إليه فى مستهل الحديث عن هذا الموضوع، لأن الطبيعة البشرية واحدة فى أصلها، وإن كان من المسلم به أنها تختلف باختلاف الزمان والمكان، وهى فى كل حالها تتأثر بالبيئة التى تعيش فيها، وتتغير بتغير هذه البيئة - اجتماعية وجغرافية معاً .. فن الخطأ أن يقال بعد هذا إن الشعوب تختلف فى طبقاتها وتفاوتت فى الفطرى من ميولها ونزعاتها ..

حسبنا هذا من أسباب انتشار التصوف فى مصر إبان الحكم العثمانى، ولنعرض بعد هذا إلى الإبانة عن الحملات التى كابدها شيوخ الطريق لنعرف أثرها فى دولتهم التى تحدثنا عنها فى هذا الفصل :

(١) الحنفية والحجاز لتابلسى من ١٠٠ ب (٢) خلاصة الأثر ج ٣ من ٢٥٤

## الفصل الثاني

### ١ - الإنكار على أرباب الطريق

حالات الناس : موقف المتكرين من الجنود والحكام  
— النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق — الحقد في  
مدور الغناء — بعض مظاهر الصليبة — التناسب  
الطردى بين حقد المقتناء وعلم أرباب الطريق —  
بعض مظاهر الحقد النظرية — تصوف الفقهاء الذين  
انصروا لمشايع الطرق — بعض مظاهر حب الفقهاء  
لأهل التصوف — موقف المتصوفة من الفقهاء —  
استمرار النزاع إلى اليوم — حالات أرباب الطريق  
على إخوانهم في الطريق — بعض مظاهر المقاومة  
الفعلية ضدهم — بعض مظاهر المقاومة النظرية .

أبنا فيما أسلفنا كيف كان الفقراء دولة داخل الدولة ، يميزهم عن سائر  
الناس عرف وقانون ودين . II وعرفنا شيئا عن واسع النفوذ الذي تهيأ لهم  
عند شتى الطبقات ، وكفل لهم السيادة على جميع الهيئات ، وأذل أمامهم  
جبابرة وطفنة كانوا لا يعرفون في الحياة الدنيا مذلة ولا هوانا ، وهبأ لهم  
استعباد الاتباع استعبادا يقره الدين لخير الله على عباده . I ولكن هذا  
السلطان الواسع النطاق المبدوط الرحاب كان كثيرا ما يصادف المتكرين له  
الساخرين بأهله ، وقد كان ذلك طبيعيا في شعب يكثر دجالوه وتغشوشعوذتهم .  
ويظهر فيه الأدعياء سافرين من غير حجاب لا يقنعون بالاعتداء على  
الحريات ، والعدوان على الحرمات ، بل يستمرتون العيش على حساب الأغنياء  
والفقراء معا ، ولا يتورعون عن الظهور بمظهر الحياة المترفة أمام الناس كما  
أبنا فيما سلف . وإن كانت علينا أن نسارع بعد هذا إلى التصريح بأن

المنكرين وإن كانوا كثيرين — فيما نظن — فإن سلطانهم كان ضعيفا وجرأتهم على مقاومة هذا الضلال كانت كسيحة تعوزها القدرة على النهوض والحركة . ولعل هذا كان ما أغرى الدجالين بالظهور أمام الناس مسافرين لا يستردجلم حجاب ، ولا يوارى استهتارهم بالدين والعرف نقاب ...

ومن الدلائل الشاهدة بظهور المنكرين في هذا العصر ، أن أرباب الطريق فيه قد أكثروا من الدعوة إلى احترام التصوف والتحذير من الإنكار على أهله ، وقد حفلت كتبهم بالإلحاح في الدعوة إلى التصديق بالكرامات والتسليم بمزاعم الأولياء ، والإسراف في تصوير المصير السيئ الذي ينتظر المنكرين ومن سار سيرتهم .. وهذا كله عميق الدلالة على أن دولة الفقراء كانت مهددة بضروب من المعاول نحاول هدمها ونسعى إلى تحطيمها — وإن كانت المعاول ضعيفة لا تقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق الوعركا أشرنا الآن .

وكان الذين يحملون معاول الهدم في أيديهم فئات من : ( ١ ) الناس ( ٢ ) والجنود والحكام ( ٣ ) والفقهاء وحملة الشريعة ( ٤ ) بل أهل الطريق كذلك . فلنتناول مظاهر هذا النهجم على دولة الفقراء مظهرا بعد مظهر .

### مهموت الناس :

حسبنا عن حملات الناس ما تشهد به التصوص التي وردت متناثرة في آثار أهل العصر ، فمن ذلك قول الشعرائي عن أدعياء الطريق من الدجالين : « وصار الناس يسخرون بأحدهم ويقولون لبعضهم ما دريتم ما جرى — فلان الآخر عمل شيئا .. إكأنهم لا يسلبون له بما يدعيه لما هو عليه من محبة الدنيا وشهوتها والتلذذ بمطامعها وملبسها ومناكحها والسعى على تحصيلها حتى أتى قلت لبعض التجار لم لا تجتمع بالشيخ الفلاني ؟ فقال : إن كان الشيخ شيئا فأنا الآخر شيخ ، فانه يحب الدنيا كما أحبها ويسعى في تحصيلها كما أسعى ، بل هو أشد مني سعيًا على الدنيا لانه يسافر الى الروم ( بلاد الترك ) في طلبها وأنا لم أسافر وربما أكل الدنيا بصلاحه وأنا لم أكلها بصلاحي فأنا أحسن منه حالا ،

فأردت أن أجيب عنه فأتيت الحسن يكذبني<sup>(١)</sup> ويقول في كتاب آخر وقع لبعض المغفلين أنه جهر بنته فاحتاج إلى طرحة ولحاف وليس معه مال فأتى التاجر بكيس فيه شعر من رأس شيخه رهنا على الثمن ، فسخر به التاجر وقال له : لو أتيتني بأردب من شعر شيخك ما أخذته بمجديد . فكث أهل السوق يضحكون على ذلك ويسخرون به مدة طويلة<sup>(٢)</sup> .

وفي كتب المناوي والمحبي والشعراني والجبرتي كثير من الحوادث التي تشهد بوجوب هذا الإنكار عند كثير من الناس ، فمن ذلك ما يرويه المناوي والشعراني عن إبراهيم عصفور + ٩٤٢ من أنه كان ينام مع النصراني فلما سئل في ذلك قال : نمت مرة بجامع الأزهر فسر قوا عمامي ونعلي ولى عشر سنين أنام عند الرهبان ما سر قوا لي شيئا . مع أنه كان كثير العطش لمن يؤذيه كما يقول مترجمو حياته<sup>(٣)</sup> . . .

وروى المحبي ، عن إبراهيم النبتيني ، - من أهل القرن الحادى عشر الهجرى - أنه أقام بجامع اسکندر باشا نحو عشرين عاما كان الناس طواها يستخفون به ويتناولونه بالسب والتهزى . حتى كان بعضهم يطرده من المسجد مخافة أن يلوثه بقذارته<sup>(٤)</sup> .

وقد صور الجبرتي موقف الناس من مدعى الولاية عند ترجمة على الكرى + ١٢٠٧ والمرأة التي لازمته فقال : وإذا جلس الشيخ في مكان وقف الجميع وازدحم الناس للفرجة عليه وتصد المرأة على دكان أو علوة وتكلم بفاحش القول ساعة بالعربى وساعة بالتركى والناس تنصت لها ويقبلون يدها ويتبركون بها وبعضهم يضحك ومنهم من يقول ( ساخرا ) : آفه آفه . وبعضهم يقول

(١) قواعد الصوفية ص ٢ (٢) لطائف المتن ج ١ ص ٢٤٩  
(٣) الكواكب القرية ٤٧٢ . الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١٢٢ . تكميل النور  
السافر ص ٤١٣ . المخطط التوفيقية ج ٦ ص ١٧  
(٤) المحبى : خلاصة الأثر ج ١ ص ٦٢

دمتور يا أسياىى وبعضهم يقول لا تعرض بشئ<sup>(١)</sup>.

هذا بعض ما كان يقع من الناس بصدد الإنكار على هؤلاء الأدعياء

موقف المتكبرين من الجنود والحطام :

أشرنا من قبل الى اعتقاد الجنود فى ما وراء الواقع وإيمانهم بالله تعالى وأوليائه ، بيد أن المنكرين للولاية قد ظهروا بينهم وكانوا فساد الأكياد مع من لا تعجبهم ولايته ، وكثيرا ما أدى إنكارهم له الى ضربه أو قتله دون اكتراث ولا اهتمام .

روى الجبرقى عن على البكرى السالف الذكر أنه مر بموكبه بمنزل جندى اسمه جعفر كاشف فقبض على الشيخ وأدخله الى داره ومعه المرأة وبقى المجاذيب وأعلمه وطرد الناس عنه ثم أطلق سراحه أما المرأة والمجاذيب الآخرون فقد أثنهم طعنا وأطهرهم ضربا حتى طير الولاية من رؤوسهم وردهم الى الرشد فاستغاثوا معلذين التوبة فأطلقهم الى حال سيئهم إلا المرأة فانه أرسلها الى المارستان مع المجانين<sup>(٢)</sup>.

وروى عن العليمى + ١١١٠ هـ أحد الأدعياء أن الناس كانوا يحسنون الاعتقاد فى ولايته ويجتمع عنده النساء والرجال وتنشأ عن اختلاطهم مفساد عظيمة ، فاستاء الجنود لذلك وانطلقوا اليه وانهمالوا عليه بسببهم حتى أجهزوا عليه . وقد قال فيه حسن الحجازى شاعر العصر نظما جاء فيه :

ونساء مع رجال	جالات بالبدية
سلط الله عليه	بعد هذا حاكية
قتلوه مع ثلاث	بحمام صائيه
طول ليل ونهار	أجل فسق تبغيه
لثلاث بعد عشر	من جماد الثانى فيه
وكفى الله البرايا	شره مع تابعيه <sup>(٣)</sup>

وإنا لنلمس الاستهتار بدعوى الزلفى الى الله فى عبد الرحمن ككتخدا ، الذى

ذبح عنزة كان يدعى كبير خدام المشهد التقيمي أن السيدة أوصت بها خيرا حتى كانت تأتي الكرامات أحيانا بما أدى بالنساء الى أن يعتقدن فيها ويرسان اليها القلائد الذهبية والأطواق والحلي والفتق واللوز وماء الورد والسكر المكرر وغير ذلك . . فدعى الأمير صاحب العنزة اليه وأدخلها الى زوجته بقصد التيمن بها ثم أمر بذبحها وإطعام صاحبها من لحمها دون أن يعرف - ثم أعلمه بعد الطعام بذبحها وأمره بالانصراف بعد توبيخه على أن يضع جلد العنزة على عمامته ويزفه طوال الطريق أصحاب الطبول والأشبار على نحو ما يقول الجبرقي في حوادث سنة ١١٧٢<sup>(١)</sup> .

وأمثال هذه الحوادث كثيرة ، وكلها تنبئ عن قيام الانكار في نفوس بعض الجنود والحكام .

### النزاع بين أهل الفقه وأرباب الطريق

#### المفرد في صرور الفقهاء :

تولى الصدارة بين الناس في هذا العصر حملة الشريعة وأرباب الطريق ، ورغم ما كان بين الطائفتين من خلاف في وجوه النظر فقد كان الدين مهيكلهما الى ارتقاء الزعامة ، ولهذا كان طبيعيا أن يثور في صدور كليهما الحسد والضغينة والبغضاء وأن يقوم بينهما النزاع للذود عن الدين حينما وليازة السلطة أحيانا . وقد اتخذ النزاع بين العلماء والمتصوفة في العصر العثماني مظهرين عنيفين : مظهر المقاومة الفعلية التي اتخذت صورة الضغينة والضرب والقتل وما يشبه ذلك ومظهر المقاومة النظرية بتأليف الرسائل يحملون بها على مسلك خصومهم في لهجة تتراوح بين العنف واللين . فلنتناول المظهرين في إيجاز مبدئين بالحقد الذي ربض في صدور الفقهاء .

#### بعض مظاهر المقاومة العلمية :

كان العلماء في الكثير من هجاتهم قساة غلاظ الأكباد ينخطون أوامر

الدين ونواهيته بدعوى الحرص على قواعده وتعاليمه ، فكثيرا ما كانوا يقتصون من خصومهم بالتكليل بهم أو تدمير المؤامرات التي تودى بحياتهم مدعين بأنهم يحمون الدين من شرهم - وكان اتصاف الرجل بالتصوف - ولو قام تصوفه عن فقه بالدين - كفيلا في أكثر الاحيان ببعض العلماء له وقسوتهم في معاملته وسعيهم للتكليل به ، وتاريخ التصوف في هذا العصر حافل بالمآسي التي تشهد بالتعصب الديني وتنطق بضيق العقول وكدر النفوس ، ومن أقطع هذه المآسي اغتيال ، عبد الرؤوف المناوي + ١٣٠٣ هـ رغم ما كان عليه من علم أدى الى إعجاب الكثيرين من الفقهاء به :

روى ، المحي ، أن المنساوي ، اعتزل الناس واعتكف لدراسة الدين والتبحر فيه ثم ظهر لهم فأنكروا عليه علمه ، ولما تولى التدريس في المدرسة الصالحية برم بذلك العلماء لأن التدريس فيها كان وقفا على أكبر علما الشافعية - وهو شيخ الجامع الأزهر في العادة كما يقول الجبرتي (١) - وهانهم إعطا هذا المنصب لرجل لا يعرفون عنه إلا أنه من أهل التصوف ، فلما حضر الدرس أقبل عليه البارزون من شيوخ المذاهب ونأهبوا لانتقاده ، ولكنه شرع في أقرأ مختصر المزني ونصب الجدل في المذاهب وأتى في تقريره بما لم يسبقه إليه أحد ، فاضطر الذين حضروا درسه إلى الإعجاب به والثناء عليه ، وأخذ أجلاء العلماء يبادرون لحضوره ويفيدون منه ، وقد انتفع به جمهور كبير منهم ، ولكنه كان معروفا بالتصوف وكان صاحب زاوية بخط المقسم بين زاويتي ، أحمد الزاهد ، ومدين الأشموقي ، فأثار هذا الضيقة في نفوس حساده ودسوا له السم ، وتوالت عليه بسبب ذلك نقص في أطرافه وبذنه من كثرة التداوي ، ولما عجز صار ولده تاج الدين محمد يستمل منه التأليف ويسطرها ، حتى مات عام ١٠٣١ ودفن بزاويته (٢) .

اغتيال الفقهاء المناوي وحاول سلفهم أن يمثلوا المأساة مع عبد الوهاب الشعراني + ٩٧٣ هـ فأخفقت المحاولة سعوا إلى التكليل به والتشهير باسمه (٣) ،

(١) الجبرتي ج ٢ ص ١٥٩ (٢) خلاصة الأثر ج ٢ ص ١١٢

(٣) البواقيت ج ١ ص

وكان الشعراني عالماً من خيرة علماء عصره غزير المادة وحب الاطلاع واسع الحيلة ملماً بمختلف آفاق الدين على نحو ما كان يفهم معاصروه ، وقد شهد له بذلك كثير من حملة الشريعة وكان صاحب زاوية كبيرة تضم مائتين من مريديه وأتباعه . فتكفل هذا الاتهام ببغض العلماء له وسعيهم لتشويه سمعته ، وقد حاولوا نفيه من البلاد بعد أن عز قتل وإراحة الناس من شره ... وقد كان الشعراني في كافة كتبه يحتم على الفقراء التفقه في الدين والتبحر في شئونه ، واعتبر الفقه مقدمة للتصوف وحاول التوفيق بين التصوف والفقه ووقف على هذه الغاية بعض مؤلفاته — كالإواقيت والجواهر — ومع ذلك فقد كان له من حملة الشريعة حزب يناوئه وينفس عليه نفوذه وشره ، وحزب آخر ينتصر له ويروج لتعاليمه ، وقد ظهر هذان الحزبان في فتنة أثارها عليه في الجامع الأزهر في مصر والحجاز خصومه وحساده .

ثم سكنت الفتنة وخبت نارها ولكن الضغينة ما زالت رابضة في صدور خصومه من الأزهريين تتمثل في وجوههم العابسة المقطبة كلما مر بهم هذا الخصم الذي يهدد الدين بالخطر .. وقد أقاموا على بنضه طيلة حياته وتولوه بالنظرات الشذراء كلما صافحته أبصارهم كأنما كانوا على السنة وهو على البدعة وربما كان العكس هو الصحيح كما يقول بل لقد سعى بعضهم إلى قتله مرات كثيرة وتمنى غيرهم لو نجح مسعاه في نفيه من مصر وكثيراً ما أدى الحقد ببعض حساده إلى رميه بالجهل في الشريعة والحقيقة معا<sup>(١)</sup>.

الناسب الطردى بين هذه الفقهاء وعلم أرباب الطريق :

وعلام هذه الضغينة كلها ؟ لقد كان الشعراني لا يكتب كتاباً إلا أعلن فيه التزامه للكتاب والسنة وبراهمه من المارقين من الدين الذين يظنون أن الحقيقة شيء والشريعة شيء آخر ، وما أكثر الكتب التي حقلت صفحاتها

(١) اقرأ تفصيل ذلك في كتابنا « الشعراني » في الفصل الأول من الباب الثاني .



بشرح مذهبه في هذا الصدد .. (١) لا يل لحد كان الفقهاء على حق في مناهضة هذا الرجل وأمثاله ممن يدعون الالتزام بظاهر الشرع ولا يلبثون حتى ينقضوا ما أسلفوه بتصوص أخرى تكشف عن نياتهم .

ولهذا كان الحنفى الذى يحمله الفقهاء لأهل التصوف بتناسب في قوته وعنفه تناسبا طرديا مع علم المتصوفة عكسيا مع جهلهم — فالمتتبع لحركات النزاع بين الطائفتين ومظاهر العدوان والتحدى يرى أن المتصوفة الذين نادوا بدراسة العلم وحثموا على الفقهاء التبحر في الدين قد نالهم من أذى الفقهاء وعدوانهم فوق ما نال دعاة الجهل . أنصاف الأميين من أهل التصوف !.. وإذا قارنا موقف العلماء من المناوى والشمرانى بموقفهم من محمد كريم الدين الخلقى + ٩٨٦ . وعلى البيومى + ١١٨٣ . عرفنا مبلغ الصدق فيما نقول .

كان الخلقى يمثل دعاة الجهل من أهل التصوف خير تمثيل . وقد كان حريصاً على جملة وفراره من معرفة الدين وأحكامه واعتقاد مريديه الذين تضج بهم زاويته في سلامة مبدئه وسخريتهم من شيوخ الطريق المتبحرين في فهم الدين . ولكن كل ما نعرفه عن أذى الفقهاء له لا يتجاوز ما رواه المناوى في ترجمته حين قال إنه لم يسلم من مناوأة طائفة من الفقهاء سنة الله في الدين ، وأن نقيه الشافعية شمس الدين الخطيب الشربيني قد أنكر عليه في حياته الابتداء بالجلالة في الذكر وقال إنه مبتدأ ولا بد لكل مبتدأ من خبر فوضع الخلقى في الرد عليه رسالة صغيرة حاصلها أن القوم ما زالوا على هذا المنوال وأن الخبر محذوف تقديره المعبود والمطلوب أو الموجود (٢) وقال فيها إن الذكر على هذه الطريقة يؤدي إلى الفتح في باطن الذاكر ويؤتيه من نور الكشف ما لا تنتج عنه (٣) .

(١) مثل الجواهر والدرر ص ١٧٧-١٧٨ ، قواعد الصوفية ص ١٧٧ و ٢٣٤ ، درر الخواص ص ٨٦ ، البحر المورود ص ٣٤٧ ، إرشاد الطالبين ص ٦٧ ، لطائف المنن ج ١ ص ٢٤٢ ، اليواقيت والجواهر ج ١ ص ٢ و ٣ و ٢٣ ، ج ٢ ص ١١٥ ، وفي غير هذه الكتب .

(٢) الكواكب الدرية ص ٥٢٠ (٣) رد المتوقف بلا محالة .

ويمثل على البيومي أنصاف الأديين ، رغم أن الجعفرى يروى فى الدلالة على علمه موقفاً شبيهاً كل الشبه بالموقف الذى يرويه المحبى ، للدلالة على سعة العلم عند المناوى فإن الفقهاء قد ثاروا عليه وعلى جماعته ، كما سنوضح ذلك الآن ، فلما قام بالتدريس فى الطيرمية أقبحهم ودهشهم ولجم الثائرين منهم . - كما فعل المناوى تماماً - ولكن الفارق بينهما فيما يبدو أن كتب المناوى تنهى عن سعة علم وغزارة مادة ، وكتب البيومي تنطق بالجهل وضيق النظر ، ولعل قدرته على إقناع العلماء فى دروسه مردها إلى طلاقة فى اللسان ومهارة فى التعبير ووضوح فى الشخصية . - والظاهر أنه قد أوتى هذه المواهب كلها وإنما هى التى جعلت المجرمين والعصاة وقطاع الطرق ينهاتون عليه ويترامون على قدميه ويطلبون المنفرة على يديه ويحتملون ما يسومهم به من عذاب كما أشرنا من قبل .

وكان من عادة هذا الرجل ، أن يعقد مجلساً للذكر كل ثلاثاء فى صحن المشهد الحسينى . وكان أكثر أتباعه يدخلون المسجد حفاة الأقدام فيلوثونه ، وكانوا يرفعون بالذكر أصواتهم فيزعجون المصلين وغيرهم . ولكننا لانعرف من ضروب العدوان الذى أوقعه به العلماء إلا ما رواه الجعفرى من أمر المقاومة التى أرادوا بها متع جماعته من تلويث المسجد والتشويش على المصايين <sup>(١)</sup> .

فالأذى الذى أصاب دعاة الجهل وأنصاف الأديين من أهل التصوف ، قد اتخذ صورة المقاومة ولم يرتفع قط إلى مرتبة العدوان الذى ينتهى بالقتل والنفي والتكيل كما كان الحال مع العلماء من أهل التصوف .

وليس ينق هذا الظن الذى رجحناه ماسببه العلماء لجملة الفقراء من أذى على يد نابليون ، فقد روى الجعفرى أن نابليون بعد دخوله مصر سأل العلماء فى شعبان من سنة ١٢١٥ عن الفقراء الذين يدورون فى الأسواق وبكشفون عوراتهم ويصرخون ويدعون الولاية ويمتدحون العوام ولا يصلون صلاة

المسلمين ولا يصومون صيامهم واستغفر عن جواز مسلكتهم في الدين الاسلامي أو حرمة . فأجاب الفقهاء قائلين إن ذلك حرام ويخالف لديننا وشرعنا وستتنا ، فشكرهم نابليون على ذلك وأمر رجال الإدارة بمنع هؤلاء الفقراء والقيص على من يلتزم مسلكتهم فإن كان مجنوناً ربط بالمارستان وإن كان كامل الرشدي من البلاد إن أبي تغيير مسلكته<sup>(١)</sup> .

والظن الذي رجحناه لا تنفيه هذه الفتوى التي رد بها الفقهاء على سؤال نابليون ، لأننا لم تنف المقاومة من جانب العلماء إذا توفر الجهل في أرباب الطريق ، وإنما قلنا إن العدوان كان يتناسب في عنفه طردياً مع علم المتصوفة عكسياً مع جهلهم .

وسنعرف أن المقاومة النظرية كانت تظهر في صورة الكتب والرسائل يضعها الفقهاء في مهاجمة الجبهة من الفقراء . ولم يمن العلماء — فيما نعلم — بوضع كتب وتآليف رسائل يردون بها على التعاليم التي كان ينشرها المستنيريون من أهل التصوف وإنما اهتموا بتدبير المؤامرات التي تفقد السمة الطيبة وتفرض الناس من حولهم إذا لم تنته بقتلهم وإراقة البلاد من شرم ..

ولعل السر في هذا التناسب الطردى بين علم المتصوفة وكراهية العلماء أن الفقهاء قد لاحظوا أن العلماء من أهل التصوف أكثر خطراً على نفوذهم عند الناس والحكام من جملة أرباب الطريق . لأنهم يتساوون مع العلماء أمام الجمهور في سعة العلم وفهم الدين ثم يزيدون عليهم هذا التصوف الحبيب إلى نفوس الناس ، وفي هذا الامتياز ما يمد لهم سبيل الانتصار على الفقهاء في اكتساب النفوذ عند طبقات الشعب وهيئات الحكام ..

أو لعل السر في هذا التناسب الطردى أن العارفين بالدين من أهل التصوف أخطر على عقائد الناس من جهالهم وسوء وضع هذا بعد .

### بعضه مظاهر الحقد النظرية :

قلنا في مقدمة هذا الكتاب إن هذا العصر كان عصر الشروح والخواشي وإن العلماء كانوا يتناولون المتن الذي وضع من قبل فيضعون له الشروح والتعليقات ثم يأتي بعدهم من يتولى شروحهم بالشرح والتعليق ، فبدأ ركود في الحركة الفكرية وقلة في المؤلفات مع كثرة الخواشي والشروح ، وكان طبيعيا بعد هذا أن تقل الكتب التي يضمها الفقهاء في الرد على ما يروونه في سلوك المتصوفة من خروج على قواعد الدين وتعاليمه ، وأن تكون هذه الكتب — في الأغلب والأعم — رسائل صغيرة حافلة بضروب السباب وألوان الشتائم محشوة بأقوال في الدين يقتبسها المؤلفون من كتب السلف ، وقل منها ما دل على فكر مبتكر أو سداد نظر لم يستمره صاحبه من الأغيار . والظاهر أن واضع هذه الرسائل كانوا أصنافا ثلاثة : أولها الفقهاء الخالص وقد كانت رسائلهم تنضح بالحقد وتفيض بالضغينة وتهال على الخصوم بالسباب والتهمة ، ويمثل هؤلاء الشيخ علي الصعیدی العدوي وغيره من العلماء الذين نالوا من المتصوفة كل منال وأخفوا عن القراء أممهم كما سنعرف بعد قليل .

وثاني الصنفين : العلماء الذين أشربوا بروح التصوف — فيما يلوح لنا — وقد كانوا في الأغلب والأعم أميل إلى نصره المتصوفة ورد التهم التي كانت توجه إليهم فكانت رسائلهم مشبعة بروح اللين والعطف . وثالث الأصناف المتصوفة الذين كانوا متفهمين في الدين . وقد كانوا فريقين : قام أحدهما بالدفاع عن أهل التصوف ورد التهم التي كانت تهال على رؤسهم ويمثل هذا الفريق : السيد محمد البكري ، + ٩٤٤ — وتولى الفريق الثاني الفقراء بالطنع واشتد في حسابهم وكان أقسى عليهم من خلص العلماء القساة — كما سنعرف بعد — ويمثل هؤلاء الشعراي + ٩٧٣ . ولا بأس من أن تزيد هذا الكلام وضوحا .

(١) كتب الشيخ الصعدي سنة ١١٩٧ للهجرة فتوى على سؤال وجه إليه بصدده طريقة الذكر عند طائفة المطاوعة التي عرفنا عن فقراها أنهم يتخذون المخنن والأعلام والطبول والنقباء والسبح الكبيرة والملاحف والسراويل يضعها الغلمان الذين يجلسون خلف الذاكرين فوق رؤوسهم أو يسكون بها ظهورهم . . وغير ذلك من ضروب البدع عند فقراء المطاوعة (١).

فاستهل الشيخ الصعدي فتواه بأقتباس فقرة من رد المشايخ يوسف الزرقاني ( المالكي ) وعامر الشيراوي ( الشافعي ) وأمين الدين ( الحنفي ) على مثل هذا السؤال إذ قالوا : رقصهم نقص وسماعهم سفاهة وتواجدهم خفة من الرأس والقائل منهم هذا عن رسول الله كاذب في ذلك ويتبوأ مقمده من النار ويعزر على إفتائه بغير علم . ويمنعون من الاختلاء بالرد ومن مسهم ، ويثاب ولي الأمر على زجرهم ، وعقب على ذلك بذكر ما رواه مالك في تحريم الغناء ، والجنيذ في كره السماع ووصف اتخاذ الغلمان بأنه ضلال مبين وقال إن مسهم دبر الولد وإباحتهم ذلك ودعواهم بالألأ جناح عليهم في غير فعل الفاحشة كفر لا ريب فيه ، وحرم اتخاذ الرايات من الحرير وغيره لأنهم يحددون به الناس ويوهمونهم بأنهم فقراء ليتمكنوا من أكل أموالهم بالباطل والاستمرار في أخذ العوائد من البلاد ومرضاة الناس عن مبيتهم في بيوتهم وتحمل نفقات ذلك ولو أدى بهم الأمر إلى الاستدانة من غير المعوزين ، ووصف هذا بأنه ظلم مبين ، وحرم الضرب على الكأس . . إلى أن قال لهم في لهجة المغيظ الحق : وأنتم معشر المطاوعة احتوى عليكم الجهل واستولى الشيطان على قلوبكم وزيف لكم ما أنتم عليه من القبائح التي لا يقول بها إمام من الأئمة . . ثم حمل عليهم في اتخاذ الأولاد الملاحف والسراويل وقال إنه سفاهة وقلة أدب وطلب شهرة والتي يقول : ومن لبس ثوب شهرة كساه الله يوم القيامة ثوب ذل وصغار ثم أشعل عليه نارا ، وأدخل في ثوب الشهرة اتخاذهم السيوف

من الخشب والمزاريق من الجريد والطواقي من السعف والطرطير التي يضعون عليها أنواع الريش والخرق الملونة والأباريق الملائى بالماء والصبغ الكبيرة... ووصف دوران العلمان على الدركين واحتضانهم من الخلف بأنه ضلال يسوله لهم الشيطان وأورد من الفضائح ما ينبئ عن بقضه الدفين لهم ورغبته الملحة في التشهير بهم والانتقام منهم على نحو ما نرى في فتواه (١).

ومن الرسائل التي هاجم بها العلماء أهل التصوف هجوما لا رفق فيه ولا هوادة — دون أن يعلنوا للقارى أسماءهم — رسالة باسم الصاعقة المحرقة كتبها أحد العلماء سنة ١١٠٥ هـ في الفقراء الذين اتخذوا الرقص واللعب دينا وخططوهما بالعبادة، وراحوا في حلقات الذكر يدورون مركبين أيديهم إلى وراء وقدامهم بالتصعيد والتسفل والتلوى، على هيئة معروفة في لعبة (ركض الديك) عند النصارى كما يقول المؤلف. والرسالة فياضة بالحقد والضغينة والموجدة. ولعل الذي حل هذا الصنف من العلماء على إخفاء اسمه، الخوف من أذى أبواب الطريق وأتباعهم (٢).

وهذان مثالان للمقاومة النظرية عند العلماء الخالص، نرى منهما بعض مظاهر البغض الرابض في الصدور والحقد الجاثم في القلوب.

(٢) ويمثل طائفة العلماء الذين يكتبون عن المتصوفة بروح مشبعة بالمعطف واللين، أحمد بن عبد العزيز بن علي الفتح الشهير بابن التجار (الحنبلى) وناصر الدين اللقاني (المالكي) وشهاب الدين أحمد بن يونس (الحنفى) وشهاب الدين الرملى (الشافعى) وقد كان هؤلاء الأربعة الذين يمثلون المذاهب الأربعة خير من انتصر للشعرافى في محنته التي عرضنا لها من

(١) فتوى الشيخ على الصميدى في فقراء المطاوعة وأحوالهم (مخطوط).

(٢) وتمت في يدى نسخة أخرى لهذه الرسالة — بعد كتابة هذا — ذكر فيها اسم المؤلف وهو محمد صفى الدين الحنفى وقد وجدت بين النسخين خلافا في بعض الفقرات.

قبل . ونرى شيئا من الدفاع الحماسي الذي قاموا به مع غيرهم من العلماء في إجازاتهم المنشورة في البحر المورود ، ولطائف المنن<sup>(١)</sup> .

ونرى صورة أخرى لهذا الدفاع الذي تولاه هذا الصنف من العلماء في استفتاء وجهه مصطفى الرومي بقناطر السباع في أواخر القرن الحادي عشر إلى اثني عشر عالما عن ( ١ ) ذكر الله بطريقة الدر داشية والخلوتية والشناوية ومصطفى الرومي بقناطر السباع ( ٢ ) الهوية عندهم وهي دورانهم في حلقة الذكر وقد وضعوا أيديهم بعضها في بعض وراحوا يقولون . هو هو هو ... فأجاب عن السؤال الأول المشايخ أبو الخير أحمد المرحومي الشافعي ومحمد الأحمدى الشافعي ومحمد المهمل المالكي وأحمد الأزهرى وعبد ربه البربري الشافعي وأبو الصفا الشنوافي وعلى بن عامر الانباري المالكي — وأجاب عن الفتوى الثانية المشايخ أبو العزيز بن أحمد العجمي الشافعي الوفائي والشهاب الرملي وعبد الحى الشرنبلالي وسليمان السراخبي المالكي ومحمد الخليل الشافعي . ولما كانت إجاباتهم انتصارا لأهل التصوف وتأيدا لوجهات نظرهم فقد حمل الشيخ مصطفى الرومي هذه الإجابات إلى عبد الغنى النابلسي وأطلعه عليها وفسرها هذا في رحلته<sup>(٢)</sup> .

ونمة رسائل كثيرة من هذا النوع .

( ٣ ) وثالث الأنواع دفاع المتصوفة المبشرين في الدين عن طوائف الفقراء وأعمالهم ، ويمثل هؤلاء السيد أبو بكر محمد زين العابدين البكري ( ١٠٩٩ هـ )<sup>(٣)</sup> الذي كتب رسالة ينتصر فيها لفقراء الطائفة السعدية الذين يكثر من ذكر الله حتى إذا طاب لهم الوقت تواجدوا واضطربوا وتساقطوا على الأرض واقتصدوا الحس وزايلتهم الحركة حتى أضحووا كالخشب المستند لايقوون على النهوض حتى يسارع اليهم نقيب الشيخ فيكبس أيديهم وأرجلهم

(١) البحر المورود من ٣٦٨ إلى ٣٧٦ ، لطائف المنن ج ١ من ٤٢ — ٤٥

(٢) الحقيقة والمجاز ١٣٣ إلى ١٣٧ ب

(٣) بيت الصديق ص ٧٣ .

ويقيمهم على بركة شيخهم . ويدود عن بعض فقراء هذه الطائفة عن يخرجون من أجسادهم شيئا ملونا بالأحمر أو الأبيض أو الأصفر يسيل منهم كالعرق من غير جرح أو منفذ له على سبيل الكرامة — فتولى الدفاع عنهم والدود عن مسلكتهم والانتصار لطريقتهم بما نراه في رسالته — حتى المسائل الذي يخرج من أجسادهم ملونا دون جرح ولا منفذ قد زعم بأنه كرامة فقال فيها كرامة ظاهرة وآية ظاهرة حيث كانت أنوارها مشرقة من سماء نفوس لا تعدل عن اتباع الشريعة ولا تأوى إلا إلى حصونها المشيعة، وكأنه أحس بأن دعواه في التزام هؤلاء الفقراء للشريعة سافرة البطلان فعقب على هذا قائلا . وإذا ظهرت على من يخلط بالعصيان بعض الأحيان ، فالكرامة لأستاذ الذي ينتسب إليه . ولكن لطهارة قلبه في ذلك الوقت ظهرت عليه .. ١١ ، (١) .

#### نصوف الفقهاء الذين انتصروا لتأنيج الطرق :

قلنا فيما أسلفنا أن العلماء الذين تولوا الدفاع عن مسلك المنصوفة كانوا في الأغلب والأعم يجمعون بين عنصرى الفقه والتصوف ، وإن عرفوا بين الناس بأنهم فقهاء لغلبة العنصر الأول على الثانى فى مسلكتهم . فهل ثمة دليل يشهد بصحة هذا الزعم ؟

كان بين العلماء الذين انتصروا للشعرافى فى محنته وذادوا عنه فى فتنه الأزهر وكتبوا له الأجازات التى تشهد بتدينه : ناصر الدين اللقائى وشهاب الدين المالكي والفتوحى الحنبلى .. وقد ترجم لهم فى كتاب له فكانت تراجمهم الشاهد العدل على صحة ما نقول (٢) .

وكذلك نقول فى عبد الله الشبراوى الذى انتصر للبيرونى فى ثورة العلماء عليه وسعيهم لإلغاء مجالس الذكر التى كان يعقدها لجماعته بالمشهد الحسينى ،

(١) النصرة الالهية للطائفة السعدية وملحق الرسالة ص ٣٨٥ — ٣٨٨ .

(٢) انظر كتابنا « الشعرافى » إمام التصوف فى عصره ص ٨ .



فقد كان الشبراوى شديد الحب للمجازيب كما يقول الجبرتي<sup>(١)</sup> فسعى له عند الباشا والأمراء حتى منع عنه ما كان وشيكا أن يتزل به من حيف . وكذلك يقال في كثير من العلماء الذين انتصروا لأهل التصوف ودافعوا عن طريقته .

### بعض مظاهر حب الفقهاء لأهل التصوف :

ولكن تصوير التصوف في أذهان الفقهاء على هذا الوجه من الكراهية غير صحيح ، فقد كان بعض المتصوفة في رأى الكثيرين من العلماء موضع حب وتقدير ، وكثيراً ما احتفى الأزهر بعلمائه وطلابه بأهل التصوف الذين يفدون لزيارة مصر من أمثال مصطفى البكرى وعبد الغنى النابلسى — وقد أشار هذا في رحلته إلى مظاهر الحفاوة التى كان يستقبل بها بين العلماء وطلاب الأزهر ، وكثيراً ما كانوا يتوافدون على دار زين العابدين للتيمن به ويرحبون بزيارته لهم<sup>(٢)</sup> . وأنه ليصف موقفاً رائعاً يتعلق بهذا الحب فيقول إنه زار الجامع الأزهر ، فأقبل عليه العلماء والمدرسون وطلبوا إليه درساً تبركاً منه وتيمناً فاعتذر لهم عن ذلك ، وقال يصف مبارحته للأزهر : انكبت علينا جميع الطلبة والمجاورين هناك يقولون يدنا ويطلبون الدعاء مع زيادة الاعتقاد فأخذتنا هيئة ذلك الحال فصرنا نبكى وهم يبكون وتدعو لهم حتى خرجنا من الجامع . . .<sup>(٣)</sup> .

ولكن لماذا لم يلق هذه الحفاوة البالغة في رحاب الأزهر كبار المتصوفة من المصريين وتزلاء مصر المقيمين بها . . ؟ أليس يدل هذا على أن الفقهاء قد احتفوا بالنابلسى لأنهم لا ينفون عليه نفوذه ولا يضيقون بسلطانه

(١) الجبرتي ج ١ ص ٣٣٩ .

(٢) الحقيقة والمجاز - ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١٠٦ - وفي مواضع أخرى من هذه الرحلة .

(٣) الحقيقة والمجاز ١١٣ .

لأن بقاءه في مصر محدود الأجل . . . ألا تكون هذه الخصومة التي ثارت بين العلماء المتصوفة مردها إلى النزاع على حيازة السلطة عند التامر والحكام معاً ؟ الواقع أن الكثيرين من الفقهاء كانوا يحسبون الظن بأرباب الطريق - روى الجبرق (في حوادث سنة ١١٩١هـ) عن مفتي الشافعية الشيخ الكفراوى أنه كان يعتقد أن الشيخ صادومه من كبار الأولياء وأرباب الاحوال والمكاشفات ، فأخذ يعلى من شأنه عند الأمراء ( وخصوصاً أمام أبي الذهب ) حتى راج حاله وطار صيته ، واختل أبو الذهب ذات يوم بمحظيته فإذا على سرأتها كتابة ١١ . واعترفت له بعد أن هددها بالقتل أن الشيخ صادومه هو الذى كتبها ليدنيها من قلب سيدها ، فأمر الأمير بقتله وإلقائه في النهر . فآلقوه في النهر وصادروا داره فوجدوا فيها تمثالا من القطيفة على هيئة الذكر ١١ . (١) وذكره المحجى ، عن : قايت المصرى ، ( من أهل القرن الحادى عشر ) أنه كان يقم بباب الجامع الأزهر وكان كبار العلماء يحترمونه ويعتقدون في ولايته . وكان إذا أقبل لزيارته أحد هؤلاء العلماء وقف بين يديه ، فإن أشار إليه الشيخ قايد بالجلوس جلس وإلا لبث واقفاً حتى يأمره بالانصراف أو ينصرف هو من نفسه ١١ . (٢)

وقد لاحظ الأستاذ فولز ، أن من مظاهر النزاع بين الفقهاء والمتصوفة أن الشعرائى لم يكن له مكان في الأزهر رغم نباهة ذكره وشيوع اسمه وكونه ممثلاً لرجال التصوف في عصره (٣) ورغم أن الكثيرين من الأزهريين - علماء وطلبة - كانوا يفضون الشعرائى ولا يحبونه على نحو ما أشرنا ، إلا أن السبب في بعده عن الأزهر ربما يرجع إلى رغبته في الاستقلال بمريديه الذين بلغوا في زاويته المائتين على ما عرفناه . فان الكثيرين من المتصوفة

(١) الجبرق ج ٢ ص ١٨ .

(٢) خلاصة الأثر ج ٣ ص ٢٥٤ .

(٣) مادة الأزهر في دائرة المعارف الاسلامية .

كانوا يقيمون في المساجد أو يتخذونها مقراً لفلاوة الأوراد وكر الله --  
وقد كان محمد المنير + ٩٣١ يعسكف كل سنة في رمضان بالجامع الأزهر  
ويجتمع عنده الفقراء يقرءون كل يوم ختمة بالنهار وأخرى بالليل <sup>(١)</sup>. وقد  
تعبد الشعرا في بدء حياته بالجامع النعري فلما كبر شأنه وكثر مريدوه انتقل  
إلى زاوية خوند <sup>(٢)</sup>.

### موقف المتصوفة من الفقهاء :

كل ما أسلفناه من مظاهر المقاومة النظرية والفعلية منصب على تصوير  
الموقف الذي التزمه الفقهاء من أرباب الطريق ، ولم نشر فيما ذكرناه إلى موقف  
المتصوفة من العلماء -- والذي يلاحظه الباحث عند النظر في أدوار هذا  
الزراع أن المتصوفة قد قاموا فيه بدور سلمي بحث ، وأن الفقهاء هم الذين قاوموا  
أرباب الطريق واشتدوا في حسابهم وأغلظوا في معاملتهم وتعقبوا آثارهم  
ورصدوا حركاتهم وطاردوا مريديهم ونالوهم بالأذى في كل فرصة حانت لهم .  
ولعل السر في هذا : ( أ ) أن أرباب الطريق هم الذين خرجوا على ظاهر  
الشرع وأعلنوا هذا دون مداراة فاحتاجوا إلى من ينصرم من أهل الفقه  
ويؤيد مسلكتهم في كل ما لا يلتئم مع ظاهر الكتاب والسنة ، فاستعانوا بالعلماء  
في أخذ الأجازات التي تشهد بالتزامهم قواعد الدين كما فعل الشعرا في كتابه  
البحر المورود في الموائيق والعمود ، وفي غيره من الكتب . وقد تغنى بذلك  
في غير موضع من مؤلفاته <sup>(٣)</sup> . ( ب ) أن أرباب الطريق في الجملة يدعون إلى  
السلام ويبشرون بالحب والصفاء ويطالبون مريديهم باحتمال الأذى والصبر على  
الاضطهاد أملاً في نيل الثواب ورغبة في اكتساب الصفاء النفسى الذى يؤدى  
إلى حضرة الله . فساعدتهم هذه الدعوة على موقفهم السلبى من هجمات العلماء .

(١) تكميل النور للمسافر ص ٢١٤ .

(٢) أنظر كتابنا الشعرا في الفصل الذى عقدناه على سيرته .

(٣) البواقيت والجواهر ج ٢ ص ١٨١ — ١٨٤ وخاتمة البواقيت وخاتمة البحر

المورود ولطائف المتن ج ١ ص ٤٢ — ٤٥ .

والظاهر أن هذا هو الذي حمل الأستاذ فولز ، على القول بأن الغلبة كانت على الدوام للفقهاء على أرباب الطريق<sup>(١)</sup> ولكن إن صح هذا الرأي في القدم فإنه غير صحيح فيما نطز في العصر العثماني . فقد كان الشعب في صف الفقهاء وكان إيمانه بهم أشد بكثير من إيمانه بالعلماء . وما عرفنا عالماً كان له من الاتباع الذين يستجيون لمطالبه وينصاعون لآرائه ويستحيلون أدوات مسخرة لتنفيذ آرائه ، ما كان لكبار أرباب الطريق -- ولا بأس من أن يزيد هذه الدعوة وضوحاً .

أسرفوا في الدعوة إلى احتمال الأذى حتى طالبوا المظلوم بالرضا عن ظلمه وشكر الله على ما أصابه وعند من أقدم على إهائه ، لأنه لم يفعل ذلك إلا لأنه غافل لا يذكر أن المعتدى عليه واحد من عباد الله ، وأنه وهو يعتدى عليه قائم في حضرة ربه الذي نهى عن ذلك . وقد كان احتمال الأذى ظاهرة تميز الأولياء<sup>(٢)</sup> عن غيرهم من سائر الناس . وقد كان الشرعاني يتظاهر بأنه مغتبط بإنكار العلماء عليه ، لأنهم لم يفعلوا ذلك إلا حرصاً على ظاهر الشريعة<sup>(٣)</sup> . ونزعم أن من نعم الله عليه محبة لطلبة العلم الذين بادروا بالإنكار عليه وانضموا مع الحسدة في تشويه سمعته بنشر مأساؤه في كتبه<sup>(٤)</sup> .

وكان الشرعاني إذا تناول العلماء بنقد عدد مظاهر خروجهم على قواعد الدين وأمنكر عليهم التهاوت على الدنيا وغفلتهم عن تكاليف دينهم ، وقلبا كان يعرض لهم بالسباب أو يتهجم عليهم بالشتائم<sup>(٥)</sup> ، بل لقد كان يدعو إلى

(١) مادة الأزهر (Vollers IV) في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) انظر كتابنا الشرعاني في الفصل الذي عقدناه على سيرته .

(٣) لطائف المتن ج ٢ ص ١٨٢-١٨٦ .

(٤) بهجة القوس ص ٩٤ (مخطوط) .

(٥) لطائف المتن ج ٢ ص ٢٩٩ .

(٦) في البحر المورود أمثلة تؤيد هذا ص ٢٤ و ٢٥ و ٢٦ و ٢٦٨ .

احترامهم وتوقيرهم ولو لم يعملوا بالشريعة التي كانوا بنشرها بين الناس<sup>(١)</sup>.. ولا نظن إلا أن سائر أرباب الطريق قد ساروا سيرته واقتدوا به أو تابعوه — غير عامدين — في موقفه من العلماء ، وكتب المتصوفة تقول إنهم كانوا يلبسون مسرح الراهب الوديع ويحملون غصن الزيتون ويطوفون داعين إلى الوثام بين الطوائف ، وقد وضع الشعرائي كتاباً للوصول إلى هذه الغاية — ككتابي اليواقيت والجواهر ، الميزان وغيرهما .

على أن ذلك كله لا يمنع من القول بأنهم كانوا يردون هجمات الفقهاء بتأليف الرسائل والتعرض لنقد آرائهم فيما يصنفون من كتب ، فأما الرسائل لحسبنا الإشارة إلى رسالة محمد كريم الخلوتي<sup>(٢)</sup> التي رد بها على الشرييني الذي انتقد طريقته في الذكر بالجلالة وقال إنها مبتدأ وكل مبتدأ يحتاج إلى خير<sup>(٣)</sup> على أن الرسالة هادئة لينة — فأما رد النقد في كتبهم فإن مصنفات الشعرائي حافلة بذلك كما أشرنا الآن .

وما كان لين المتصوفة في نقد العلماء وليد العجز عن رميهم بالتهم وصب الشنائم فوق رؤوسهم فسرى شيئاً من قسوتهم حين يهاجم بعضهم بعضاً .

### استمرار النزاع إلى اليوم

وقد استمر النزاع قائماً بين الفقهاء ومشايخ الطرق إلى يومنا الحاضر ، ترثه الطائفتان جيلاً بعد جيل ، فبعد انقضاء العصر العثماني بأربعين عاماً استفتى الشيخ إبراهيم باشا أحد العلماء من تلامذة الشيخ الصعدي (هو الشيخ الأمير) عن الغناء والتواجد والرقص في حلقات الذكر فأفتى بمثل ما أفتى به شيخه من قبل<sup>(٤)</sup> وقد هدأ هذا النزاع في الأيام الأخيرة ولكنه ما زال

(١) العهد الحمدي من ١٣٧ .

(٢) رد الشوق بلا محالة في الابتداء بالذكر بالجلالة (مخطوط) .

(٣) الكواكب النورية ٥٢٠ وتكميل النور السافر من ٧٥٢ .

(٤) استفتاء الشيخ إبراهيم باشا إلى العلماء سنة ١٢٥٢ هـ (مخطوط) .

كاننا في صدور الطائفتين وقد ثار منذ بضعة أعوام ثورة رددت الصحافة صداها، إذ كتب وزير الأوقاف عبدالعزيز باشا محمد كتاباً إلى شيخ الجامع الأزهر الأستاذ المراغى في شأن البدع الشائعة وما قضى بما لا يتفق مع قواعد الإسلام، واقترح تأليف لجنة يشرف عليها الأزهر وتكون مهمتها محيصة هذه البدع الشائعة بين الطبقات الدنيا في مصر ووضع قواعد تستند إليها الحكومة في مصادرة كل ما لا يتفق مع تعاليم الدين. وبعد تبادل الرأي بين الوزير ومشيخة الأزهر، اتفق الرأي على تكوين لجنة يرأسها مفتي الديار المصرية الشيخ عبد المجيد سليم، وصدر قرار بتأليفها لوضع كتاب جامع عن البدع الفاشية والمنافية للإسلام.

وما فرغوا من تكوين اللجنة حتى ثارت نائرة الصوفية وأرسلت مشيختهم بياناً إلى الوزير تعلن فيه الاحتجاج اللين على معاليه، لأنه تخلى بكتابه هذا سلطة لها بحق القانون الإشراف والهيمنة على كل ما يتعلق بشئون الصوفية دون غيرها من السلطات، ثم ختمت بيانها بتوجيه كلمة فيها شيء من العنف إلى شيخ الجامع الأزهر<sup>(١)</sup>.

### أرباب الطريق

قلنا فيما أسلفنا إن أرباب الطريق أنفسهم كانوا بين الذين حملوا مآزل الهدم في أيديهم وسعوا بنا إلى تحطيم دولة الفقراء — عامدين كانوا أو غير عامدين — ذلك لأن دولتهم كانت تقوم على الإيمان بها والتسليم لأهلها ورفعهم فوق كل نقد أو عتاب، فكل إنكار يوجه إليهم أو نقد ينصب على رؤسهم يزلزل هذا الإيمان الذي لقيام لدولتهم بدونه — وقد ثارت الضغينة في نفوس أرباب الطريق حتى كره بعضهم بعضاً وحمل بعضهم على بعض حملات تنضح قسوة وتفيض عنفاً. وقد اتخذ النزاع بين المتصوفة بعضهم

(١) جريدة روز اليوسف (اليومية) ٢١ و ٢٥ يناير سنة ١٩٣٦ وجريدة البلاغ ١٦ و ٢٤ يناير سنة ١٩٣٦.

مع بعض مظهرين غنيين شبيهين بمظهرى المقاومة التى أثارها الفقهاء فى وجه أرباب الطريق — مظهر المقاومة الفعلية التى اتخذت صورة الضغينة والضرب وما يشبهه ومظهر المقاومة النظرية — بوضع الرسائل فى النشيع على مسلك بعض الطرق — فلتتناول المظهرين بشىء من التوضيح :

### بعض مظاهر المقاومة الفعلية

روى المناوى فى ترجمة عبد الله محمد الصبان + ١٠٠٨ هـ أنه أخذ مكان شيخه بعد موته فضاق بذلك جماعة من مریدى شيخه ، وقالوا إن حفيد الشيخ ( وكان ابن بنته ) أحق وأولى بآرث المشيخة من تلميذه ، وانطلق بعضهم إلى زاوية دمر داني وانهاأوا على الشيخ الصبان وجماعته الذين قبلوا مشيخته وأخذوهم ضرباً ثم أخرجوهم من المنطرة ، ولولا تدخل بعض العلماء وتهديد المعتدين بالحاكم لنال الصبان ، شر مستطير <sup>(١)</sup> .

وكذلك نقول فى النزاع العنيف الذى قام بعد ممات الشعرائى ( + ١٧٣ ) على زاويته بين ابنه وأولاد عمه — وفى طلبتهم عبد اللطيف — فقد بلغ من أمر هذا النزاع أن ترافعوا إلى الحكام أكثر من مرة ، ولم يقض عليه إلا ممات أحد المتنازعين <sup>(٢)</sup> .

وقد روى الشعرائى عن نفسه أن جماعة من مدعى التصوف قد اجتمعوا بجامع القمري — حيث كان يتعب — وأوقدوا كثيراً من القناديل وجلسوا تجاهه وأخذوا يرفعون بالذكر أصواتهم ويشوشون عليه فانتقل إليهم وجلس فى مجلسهم وقال لهم كلنا فى الخير سواء فنمؤه من الذكر معهم . فلما طلب إليهم أن يخفضوا أصواتهم أبوا عليه ذلك . ولكن الله أنقذه من شرهم وسلط

(١) السكواكب الدرية ٢٥٧ .

(٢) خلاصة الأمر ج ٢ ص ٣٦٤ ، السكواكب الدرية ٢٩٦ ، تكميل النور السابق ص ٦٦٥ وانظر فى كتابنا من الشعرائى تفصيل ذلك .

عليهم النوم فناموا حتى الصباح ، ثم ذهبوا إلى عبد الدايم بن بقر وطلبوا إليه أن يقيم لهم مولداً في الجامع ليلة الجمعة ، رغبة في التثوير على الشرعاني وجماعته ، وجاء المقرئون والوعاظ فغضض الشرعاني وجماعته أصواتهم بالصلاة على النبي دون أن يطلوا مجلسهم ، فجاء عبد الدايم ووقف على رأس الشرعاني وقال له في لهجة المحقق المغيظ : « أنت يا عبد الجعافر ما نسكت ، فسمى الله بالجعافر ، فثار جماعة الشرعاني لذلك وهجموا عليه وأخذوه ضرباً وطعنوا قائلين له : كفرت .. ثم اجتمعوا وعقدوا النية على أن يضربوا رقبته صباح الغد ، ثم أجمعوا رأيهم على أن يحضوا به إلى القاضي ليحقق دمه ، وبطل مولدهم تلك الليلة <sup>(١)</sup> .

وهل نريد شاهداً أدل على هذه الضغينة من قول الشرعاني : « وقد رأيت أنا جماعة أخذوا عن الشيخ فصاروا مع إخوانهم كائهم في دين وهم في دين ، فتنافروا وتشاحنوا وترافقوا إلى الحكام وامتلات قلوبهم بالشحناء والبغضاء .. » <sup>(٢)</sup> وقوله للمريدين الذين يتصلون بشيخ ويغضون إخوانهم في الطريق لأنهم ليسوا من مريدي شيخهم : « وإياكم بعد الاجتماع عليه أن تقبضوا رجوهكم عن إخوانكم وتقرمطوا أنوفكم وتطأطئوا رقابكم بل كونوا كما كنتم قبل اجتماعكم عليه » <sup>(٣)</sup> .

ولقد أكرر كتاب التراجم من الإشارة إلى أن بعضهم كان يؤذي إخوانه في الطريق ، روى الشرعاني عن المنير + ٩٣١ أنه قتل محمد بن عراق لأنه أنكر عليه ، وذلك أنه أراد الاجتماع به فأبى ابن عراق فشكاه إلى النبي فوات بعد عشرين يوماً ، وإن كان الشبلي يشك في وقوع هذه الحادثة لأن المنير مات سنة ٩٣١ وابن عراق سنة ٩٣٣ <sup>(٤)</sup> — وذلك لا يفتي إينذاهم لمن أنكر

(١) المآب الكبير من ١٤٠ — ١٤١ .

(٢) و(٣) لطائف النج ١ من ٣٨٢ .

(٤) تكميل النور السافر من ٢٩٥ (مخطوط) .



عليهم — كما يدعى المؤمنون بقدرتهم على الإيذاء — والكتب حافلة بما يؤيد ذلك . والغريب أنهم كانوا أحيانا يؤذى بعضهم بعضا رغبة في التسلية ، روى الشعرائى عن على أبى خوده أنه رآه مرة بباب الشعرية يقول لخادمه : إيش قلت من يخلى هذا الرجل ( عبد القادر الدشطورلى ) هرازه فى رجليه .! فلما مر به كركبت بطن عبد القادر ، وصاح هرازه على المصطبة التى كان قاعدا عليها ، كما يزعم الشعرائى <sup>(١)</sup> وقد كان الكثيرون منهم معروفين بأن دعاءهم مستجاب كـ محمد بن عز المصرى + ٩٣٠ <sup>(٢)</sup> وغيره .

وينبغى أن نشير الآن إلى أن الفتنة التى ثارت من أجل اتهام الشعرائى بالخروج على الدين قد اشترك بعض خصومه من المتصوفة فى إثارتها كما نص على ذلك المناوى والشبلى فى ترجمته <sup>(٣)</sup>.

#### بعضه مظاهر المقاومة النظرية :

تصادفنا فيما كتبه أهل التصوف رسائل يهاجمون بها بعض الطوائف ، وفقرات ذهبت أشتاتا فى بطون كتبهم نقشوا فيها مراة نقدهم وسعوم حقدهم ، فن الرسائل التى وضعت فى الهجوم على الطوائف رسالة كتبها محمد الغمرى فى فرقة المطاوعة التى أسلفنا الحديث عن فقرائها وطريقتهم فى الذكر وقد انتقده الشعرائى على قسوته فى الهجوم عليهم والتشنيع على مسلكتهم بهذا العنف ، قائلا إن الطائفة الواحدة تجمع بين الشرير والخير فلا ينبغى أن نعلم أحكامنا أو نأخذ بظاهر ما نرى <sup>(٤)</sup>.

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ من ١١٢ — ١١٨ ، مناقب الصالحين ، والصوفية ٢٤٣ (مخطوط) .

(٢) تكميل النور السافر ص ٢٤٨ .

(٣) الكواكب النورية ٤٩٦ وتكميل النور السافر ص ٦٦٢ .

(٤) لطائف النور ج ١ ص ٢٣٤ .

والغريب أن الشرعاني الذي يعيب على الغمري قسوته في نقد المطاوعة برمالته ، قد وضع رسالة سنة ٩٣٣ هـ يهاجم بها طائفة من الفقراء في عصره ادعت الولاية الكبرى زوراً وبهتاناً ، وضمن هذه الرسالة شتى ضروب السباب ويختلف ألوان التهم حتى كانت الضغينة تطل من ثنايا سطورها <sup>(١)</sup> ، قال فيها إن هؤلاء الفقراء أضل من الأنعام وانهمم بالجهل والكفر وسوء الأدب <sup>(٢)</sup> وقال إن الفلاحين أقرب إلى الله من هؤلاء المظالمين ، لأنهم يقضون العمر في نفع العباد وأما هؤلاء فيقضونه في ضرر الناس <sup>(٣)</sup> ، وقال إن المشيخة على يدهم قد أصبحت باباً من أبواب القسول والشحاذة <sup>(٤)</sup> وأن إبليس لما اجتمع به (الشرعاني) وبخه على قبول هؤلاء المقرورين تعظيم الناس لهم ، وقال للشرعاني إنه يأتي ذلك لنفسه مع أنه إبليس .. <sup>(٥)</sup> .

وتعقبهم بمثل هذه المطاعن في غير هذه الرسالة فرماهم في بعض كتبه بالكفر والتضليل والكذب والافتراء وخفة العقل ورمي الفرق التي تتلذذ لمشايع قد طوتهم القبور بالمروق من الدين ، فقال عن فقراء الأحمدية والرفاعية والبسطامية والأدهمية والدسوقية والمسلمية والبرهامية إنهم خارجون عن الشريعة <sup>(٦)</sup> ، واتهمهم بالجهالة فقال إنهم يقنعون بلبس الزى فإن سألت شيخاً منهم عن قواعد الإيمان قال لا أدري أو فرائض الوضوء قال لا أدري .. مع أنه شيخ في زاويته يأخذ العهد على الناس ومثل هذا ليس شيخاً باجماع المسلمين <sup>(٧)</sup> .

فالشرعاني الذي كان مع الفقهاء ليئاً وديماً رغم قسوته عليه وإهاناتهم له ، نراه مع إخوانه في الطريق شديداً يتابع لطعامه لهم دون رفق ولا هوادة .

(١) اسم الرسالة ردع الفقراء عن دعوة الولاية الكبرى ولها أربعة أسماء أخرى ذكرناها في ملاحظتنا على مصادر كتابنا عن الشرعاني .

(٢) ردع الفقراء ص ١ . (٣) نفس المصدر ص ٢ .  
(٤) نفس المصدر ص ٩ . (٥) " " ص ١٣ .  
(٦) قواعد الصوفية ص ١٧٥ . (٧) قواعد الصوفية ص ١٢٦ .

وشبه بهجومه ماثره في كتاب السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والاحاد ، وقد وضعه السيد مصطفى البكري الذي لقن الطريقة الخلوتية للحفاوى + ١١٨١ قطب رحي الديار المصرية كما عرفنا — والكتاب نقد لاذع ينصب على رؤس أرباب الطريق الذين حوروا أنفسهم من قيود الدين وتمرّدوا على قواعده وخرجوا على تعاليمه (١)

\*\*\*

هذه هي بعض معاول الهدم في دولة الفقراء ، حلها حتى أهلها ، ولم يبق في الشعب طائفة إلا قام فيها المنكرون لأرباب الطريق الراغبون في تحطيم سلطانهم والانتقام من دجلهم ، ولكن هذه القوى التي تعاونت على هدمهم كانت — كما قلنا من قبل — كسيحة تنقصها الحركة ويعوزها النشاط مريضة لانقوى على الاضطلاع بهذا العمل الشاق ، فعاشت دولة الفقراء على كره من هؤلاء المنكرين جميعا مبسوطة السلطان معدودة الرحاب يرفرف عليها في شتى الأنحاء — والزمان وحده هو الذي تمكن بتطوره السريع من تقليم أطرافها وقص أجنحتها وإلزامها الحدود التي لا ينبغي أن تتخطاها . ولكن ما السبب الذي أدى إلى قيام هذا النزاع ؟ ذلك ما نعرفه بشيء من التفصيل فيما يلي من حديث :

## ٢ - أسباب الانكار على أرباب الطريق

أسباب الانكار عند الناس والجنود وأرباب الطريق — أسباب النزاع بين الفقهاء ومشايخ الطرق : الخلاف في وجهة النظر — اعتبار الولي أعظم من الله ورسوله — التنافس من أجل الدنيا .

### أسباب عند الناس والمخاطم وأرباب الطريق :

محاولة الكشف عن الأسباب التي أدت إلى قيام النزاع بين أهل الفقه

(١) السيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والاحاد السيد مصطفى البكري مخطوط

وأرباب الطرق ، تنير السبيل إلى فهم الأسباب التي أثارته الإنكار في نفوس الناس والحكام ، وبعبث الضغينة عند أرباب الطريق ، لأن أسباب الظاهرة الأولى أعم وأشمل ، وفي بيانها ما يقتضينا من الكلام على أسباب الإنكار عند غير الفقهاء . ويمكننا أن نجعل أسباب الإنكار عند الناس والجنود في ظهور الشعوذة مسافرة من غير حجاب ، مع عدم اقتناع المنكرين بولاية المشعوذين . فقد قلنا فيما أسلفنا إن مدعى الولاية كانوا إذا جهروا بأهتات الدين والخروج على قواعده وتعاليمه ، سر الناس لهذا الشذوذ سرورا عظيما ، واستخفهم الرضا بما يرون من مظاهر التمرد على ما ألقوا من قديم الزمان ، ولكن هذا الرضا كان مرده إلى إيمان الناس بولاية هؤلاء الأدياء . وكان بعض الدجالين والمشموذين لا يقوى على إقناع بعض الناس والحكام بصدق ولايته فكان ذلك يثير السخرية ويبعث الإنكار في نفوس المنكرين .

أما إنكار مشايخ الطرق بعضهم على بعض ، فرده إلى ضيقهم ببعض العاجزين من إخوانهم عن إقناع الناس بولايتهم ، مما كان يؤدي إلى الإنكار على أرباب الطريق جميعا ، وكان مرجع هذا الإنكار بين أهل التصوف إلى التنافس الذي كان بينهم ، وأدى إلى إثارة الحفيظة وقيام الضغينة في نفوسهم . فكان شيوخ الطريق الذين يفشلون في إقناع الناس والحكام باحترامهم وتقديس ولايتهم ، يتساوون مع الذين يلقون النجاح ويصادقون الرواج عند الناس من حيث إنكار إخوانهم في الطريق عليهم . وإن اختلف السبب الذي أدى إلى هذا الإنكار — ولهذا كثرت حملات أهل الطريق بعضهم على بعض كما عرفنا من قبل .

والآن ننتقل إلى الأسباب التي أدت إلى النزاع بين أرباب الطريق وأهل النظر :

### الخلاف في وجهة النظر :

يقول تاريخ العلم إن الخلاف بين أهله لا يثير الضغائن إلا إذا اتصل بالعقائد الدينية أو المنافع الشخصية أو المصالح القومية ، لأن الخلاف في النظر العلى قائم على العقل وحده ، ومن شأن العقل التسامح . أما تاريخ

الأديان والعقائد فيقول إن الخلاف بين أهلها مثار الأحقاد والضغائن دواماً ، لأنه قائم على العاطفة أو الغريزة ، وذلك مما يثير في النفس الضغينة والحقد ، ويدفع صاحبه إلى الإنكار — وقد يحمله على الانتقام — ولهذا كان رجل كالغزالي — وهو حجة الاسلام — مثار النزاع العنيف بين أنصاره وخصومه رغم الجهود التي بذلها في الدعوة إلى الدين والنشير بطاعة الله — وفي الزيدى تصوير لطريف للخصومة التي قامت بين مؤيديه والمتكرين عليه <sup>(١)</sup> — وما قيل في الغزالي خليق بأن يقال في غيره من رجال الدين .

كان طبعياً إذ أن يقوم النزاع بين العاطفتين : أهل التصوف وحمله الشريعة ، فقد كاتاعلى خلاف في وجهة النظر ، إذ كان الفقهاء على اعتقاد بأن الدين إنما يستقى من الكتاب والسنة ، وقلّ منهم من كان يميل إلى تيه العلم اللدنى الذى آمن به أهل التصوف . وقد انقسم هؤلاء المتصوفة في هذا العصر إزاء العلم بالدين معسكرين : يبشر أحدهما بالعلم ويدعو ثانيهما إلى الجهالة من غير مداراة ، ولكن المعسكرين قد انفقا على أن استقاء الدين من ظاهر الشرع عجز ونقص ، وأن المدين الذى ينبغي أن يتحل منه الانسان معرفته بالدين — وغير الدين — هو الله ، ويكون ذلك بإخلاص العبد في عبادة الله والتفانى في طاعته حتى يصل إلى حضرته ، ويأخذ عنه العلم رأساً من غير وساطة ، وشتان بين من يستقى العلم من ميت عن ميت ، ومن يستقيه عن الحى الذى لا يموت <sup>(٢)</sup> .

### إباحة التأويل بؤهل الله :

وقد أدت بهم هذه الدعوى إلى إباحة التأويل لأنفسهم ، مدعين أنهم يعرفون بالكشف باطن الشريعة ، وأعلنوا احتقارهم لطريقة الفقهاء الذين

(١) إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين ج ٦ .

(٢) انظر تفصيل هذا في كتابنا « الغزالي » في الفصل .

يقفون عند ظاهر النصوص ولا يبيحون التأويل لأحد من الناس ، وممادوا في هذا الاحتقار حتى بلغ الأمر بأحد زعماء الطريق من دعاة الجبل ، أن يسخر من صوفي متبحر في الدين قد تبرع بتعليمه مبادئ الدين ، فيقول عنه مع مريديه في زاويته ، إنه يريد أن يعملنا فقهاء كما هو فقيه . ١١ .

ونرى — من مظاهر هذا الاحتقار ، امتناع عبد الغنى الثابلي ، عن إلقاء درس في الحديث على طلبة الأزهر وعلماؤه عندما زار الجامع واحتفوا به ، فاعتذر إليهم بسفره إلى بلاد الحجاز ، وانصرافه إلى زيارة الصالحين واليتمين بمقاماتهم ، وعدم الفراغ إلى الطائفة وحبس النفس في تقرير العلوم الظاهرة ، وعقب على هذا الاعتذار الذي قاله لهم بذكر السبب الصحيح لاعتذاره فقال : « لأننا رأينا ذلك ينقص علينا مانحن فيه من ممارسة علوم الحقائق ويعكر علينا صفاء الروح لنلقى المواجهات العرفانية » (١) .

احتقروا الفقه وأهله ، وقبحوا طريقة العلماء في فهم الكتاب والسنة ، وساهموا مع الفقهاء في استهجان التأويل ، ولكنهم أباحوه لأنفسهم ، وقالوا إن المذموم من التأويل ما كان عن فكر وتخمين ، أما خواص العبّاد من الأولياء الذين ، فنوا عن بشريتهم ، فقد أطلعهم الله على ما أخفاه عن كافة البشر ، فكان لهم وحدهم حق التأويل . . أما الفقهاء وغيرهم فن واجبهم أن يقفوا عند ظاهر الشرع دون أن يزيدوا عليه حكما واحدا ، فما حرمه الحق حرمه ، وما أحله أحله ، وما أباحه أباحه ، وما نذب إليه نذب إليه ، وما أوجبه أوجبه ، وما سكت عنه سكت عنه ، فن فعل ذلك صحت له موافقة الحق تعالى ومتابعة رسوله صلى الله عليه وسلم ، (٢) .

وممادوا في زعمهم فقالوا إن ألفاظ كبار الأولياء خليفة بالتأويل ، شأنها في ذلك شأن ألفاظ الأنبياء ، لأنها جميعا من بحر واحد . بل إنها أحق وأولى

(١) رحلة الثابلي ص ١١٣ .

(٢) الجواهر والدرر ص ١٣٤ — ١٣٦ .

بذلك من كلمات الأنبياء ، لقصور الأولياء عن الإفصاح عما يقصدون . قال الرسول أنا في الليلة آت من ربي — وفي رواية أنا في ربي عز وجل فوضع أصابعه بين يدي حتى أحسست برد أنامله فعلمت علم الأولين والآخرين . فلو قل ذلك ولي من أولياء الله لأجمع العلماء على قتله . وغاب عنهم أن الأولياء لهم الإشراف على حضرات الوحي ، وربما هبت على قلوبهم من تلك الحضرة نفحات تكشف لهم عن حقائق الأمور الإلهية ، فمن الأدب قبول تلك النفحات بالإيمان كما قبلت من الأنبياء <sup>(١)</sup> .

وكان علماء العصر لا يسلدون بأن للشرعية باطنا وظاهرا ، ولا يجيزون تأويل آية ولا حديث ، والمطلع على الكتب الدينية التي كتبها أهل هذا العصر ، يعرف مبلغ تقديم باللفظ ومدى ضيق التفكير عندهم ، ومؤرخو الآداب المصرية يسمون هذا العصر — عصر الحواشي والشروح ، والكتب التي وضعت فيه تبرر هذه التسمية ، وكانت الحواشي على المتن قائمة على التقيد بظاهر الكلام واللف والدوران حول اللفاظ ، هذا النوع من التفسير شائع في الكتب ، فكان طبعيا أن يلتزمه الفقهاء في الكتاب والسنة ، فنادوا بتحريم التأويل ودعوا إلى الوقوف عند ظاهر الشرع وضاقوا بالمقصوفة الذين خرجوا على دعواهم وتمرّدوا على ضيق حدودهم ، وخرجوا من تأويل الآية أو الحديث بما يتناقض الواضح من معانيه ، زاعمين أن من عباد الله من هب على قلوبهم نفحات إلهية لو نطقوا بها كفرهم المأومن وجهاتهم صاحب الدليل <sup>(٢)</sup> وهم من الكفر والجهل أبرياء في عرف أهل الطريق .

كان طبعيا أن يضيق الفقهاء بمسلك الفقراء ، فإن إباحة التأويل لأهل الله قد مهدت السبيل لشعوذة الدجالين — وما كان أكثرهم في هذا العصر — فقالوا كل ما خطر لهم ، وفعلوا كل ما اشتروا فعله ، وخرجوا من الآيات والأحاديث بما يبرر سلوكهم ، واستغلوا مذهبهم في التأويل والقدرة على

(١) الشعرائي : درر القواس ص ١٠٩ — ١١٠

(٢) الشعرائي : الجواهر والدرر ص ١٧٧

معرفة باطن الشريعة في ابتكار آراء ليس للكثير منها أصل من الدين ، ثم اعتنقوا هذه الآراء التي حاربها الدين وروجوا لها بين المتصلين بهم ، كالقول بالغناء المكية اعتمادا على أن مآلك الدنيا والآخرة هو الله وحده ، والاتحاد من هذا الرأي إلى القول بالعفو عن السارق واستنكار القصاص من الجنة والمذنبين والتبرم بعقاب المجرمين ، وشتان بين هذا وبين موقف الدين من القصاص كقوله تعالى : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم » ، وغير هذا كثير .

### اختيار الولي أعظم من الله ورسوله :

وقد ذكرنا في مستهل هذا الكتاب ما انتهى إليه الكثيرون من الخروج على قواعد الدين ومقتضيات العرف ، بارتكاب المعاصي على ملأ من الناس ، والتقصير في القيام بتكاليف الدين . وقد مهدوا لذلك برفع أنفسهم فوق كل نقد وملامة ، فأحاطوا أنفسهم بهالة من التقديس والإكبار ، وبالغوا في ذلك مبالغة لا يقرها دين ولا يسفها عقل ، فزعموا أن الله يخلع على المقربين من عياده مواهب تخرجهم عن كافة الناس ، وترفعهم عن عجز البشر إلى مرتبة الأنبياء ، بل إن مرتبتهم لتعلو على مرتبة الأنبياء والرسل . قال الخواص : « إن الأولياء قد أوتوا القدرة على الاطلاع على علوم الأنبياء من غير وساطة ، ولولا أن الله طالبهم بالأبدع ما ليس لهم لادعوا النبوة ، ومن هنا قال عبد القادر الجيلاني : أوتيت معاشر الأنبياء اللقب وأوتيتنا ما لم توتوا — أي حرم علينا اسم النبي مع اطلاعنا على علمه من طريق الكشف كما يقول الخواص (١) .

بل تمادوا في شططهم فتركوا الكلام في وجوه الشبه بين الولي والنبي وأخذوا يعددون وجوه الشبه بين الله والولي ، قال تعالى : « وإنما أمره إذا



أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فادعوا أن الأولياء قد أوتوا ما يشبه هذه المقدرة ، فإن الله يعطيهم لفظه كن ، تفسير الدنيا في ركاياهم ، تستجيب لأمرهم وتنصاع لأشارتهم (١) .

وتواضع بعضهم فقال إن القدرة التي يؤتاها الولي ليست قدرة مطلقة كقدرة الله ، فليس في وسع الولي أن يخلق شيئاً أو ينزل مطراً أو ينبت زرعاً إلا أن يشاء الله ، على أن الاستثناء بمشيئة الله يبرر تقيد القاعدة في كل حين ، لأن مدعى الولاية كثيرون ، بل قال بعضهم إن الفقير مهما ارتفعت درجة معرفته في الطريق لا يستطيع أن يجعل الشوك تفاحاً لأن الحقائق لا تبدل (٢) ولكنهم كانوا مع هذا يعتقدون أن الولي يستطيع أن يقول على الرصاص فيستحيل ذهباً ، وعلى الصفيح فيتحول ماساً بإذن الله . . . على أن اعترافهم بأن قدرة الولي مستعدة من قدرة الله ، لم يمنعهم من القول بأنهم يمتازون بها على الملائكة ، لما انطوى عليه الإنسان من الخلافة والنيابة على العالم . . . (٣) . وقد وصف الله تعالى نفسه بتوحد من اليقظة الأزلية والأبدية فقال . لا تأخذه سنة ولا نوم ، فرأى بعضهم أن الأولياء قد أوتوا هذه الموهبة ، وتواضعوا فقالوا إن الفرق قائم في أن الله لا تأخذه سنة ولا نوم أبداً ، أما الولي فإنه يستطيع البقاء على هذه الحال أمداً طويلاً ، فقد كان عيسى بن نجم ، بساحل البحر المالح بنواحي البرلس على هذه الحال ، وقد مكث سبعة عشر عاماً لم ينمض له جفن في ليل أو نهار . . . (٤) .

والله تعالى مطلع على الخواطر ما ظهر منها وما بطن ، عارف بعباده لا يستره عنهم حجاب وقد أدعوا أن المقربين من عباده المخلصين قد أوتوا ما يشبه هذه الصفات . . . (٥) .

(١) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ٩٦ ، لطائف المنن ج ١ ص ٥٥ ، بيت الوفاية من المناوي ص ٣٩

(٢) الطبقات الكبرى ج ٢ ص ١١٦

(٣) الجواهر والمرر ص ١٢١ — ١٢٢

(٤) » » ص ١٤١

(٥) » » ص ١٧٩

بل لقد بلغ بهم الشطط في ادعاءاتهم أن شبهوا الله بالولى في بعض الأمور... فقالوا في معرض الحديث عن التجلى إن الولى يستطيع أن يعرف بالكشف ما يحله غيره ، وأن الحق تعالى كذلك . ! ! يتجلى في الثلث الأول من الليل للأبصار ، والثلث الأوسط للأجسام الشفافة ، وفي الثلث الأخير للأجسام الكثيفة ، ولولا هذا التجلى ما صحت معرفته تعالى لأحد من الخلق ، فاعلم ذلك فانه من علم الأسرار - أى العلم اللدنى - كما يقول الشعراfi (١) ، وقد أشرنا من قبل إلى أنهم أوجبوا على المريد أن يذكر شيخه في كل أوقاته ، أما ربه فحسبه أن يذكره في غالب أوقاته . . . . .

وكان أصحاب هذه الدعاوى على يقين من أنهم سيثبمون بالزندقة ، فقالوا إن هذا الانهم إذا وجه إلى الأولياء كان الشاهد العدل على التزامهم للشرع على أكمل وجه وأنهم صورية ، لأن الولى إذا بلغ درجة الحقيقة ، زال الوجود في حسه ، وأصبح لا يرى إلا الله ، ومن لا يرى غير الله لا يختص كلامه بدين ولا ملة ، فلا يبع الصديق إلا أن يرميه بالكفر والالحاد غيرة على شريعة محمد ، ولا بد لكل سالك (٢) من الوقوع فيها وقع فيه الحلاج إلا أن يشاء الله (٣) .

وبهذا فقد أضحي الولى في عرفهم إلها صغيرا . . . . بل كان أعظم من الله - والعياذ بالله . وقد حملهم هذا التصور الجامع على أن يكفلوا له من الحقوق على أتباعه ما لله على عباده ، فكما أن الدين يطالب المؤمنين بطاعة الله وامتنال أوامره في شتى الصور والألوان دون اعتراض ولا إنكار ، فكذلك حتم أرباب الطريق على المريدين أن يتصاعوا لأوامر شيخهم بالغيا ما بلغ الشطط فيها ، فحرموا عليهم التردد في طاعة أمر ، أو التفكير في مبرراته أو

(١) الجواهر والدرر ص ٢٥٨

(٢) في رسالة ذكرى الأنصارى في بيان الألفاظ التي يتداولها الصوفية أن السالك مربوبه فرق المريد ودون العارف .

(٣) الجواهر والدرر ص ٣٠٦

النتائج التي تترتب عليه ، وقالوا في تعبير يلائم تصورهم ، كما أن الله لا يقبل في محبة شريكاً له ، فكذلك الشيخ لا ينبغي أن يقبل من مريده أن يشرك به أحداً من الأشياخ أو غيرهم . . . وكما أن الإنسان ليس له إلهان ولا للبرأة زوجان ، فكذلك المريد لا يجوز أن يكون له شيخان ، بل ساروا في شططهم حتى قالوا إن أوامر الشيخ إذا تعارضت مع أوامر الله ، وجب على المريد أن يطيع شيخه ويهمل أوامر ربه ، فإن الشيخ لا يريد من وراء أوامره إلا مصلحة مريده ، والمريد الذي يتردد في طاعة شيخه إذا أمره بإهمال الصلاة أو الكف عن الصيام أو تطبيق زوجته وفراق أولاده . . . لغير ما سبب معروف ، لا يفلح في الطريق أبداً ولو كان على عباده الثقيلين . . . إلى آخر ما عرفنا من قبل .

ومن هذا نرى أن الولي لم يكن في عرفهم إلهاً صغيراً ، بل كان أعظم من الله الذي يدعون الفناء في حبه والحياة من أجله . وما كان هذا المذنب ليرضى السكثريين من العلماة .

فلما هيأوا لأنفسهم هذه القداسة كلها ، واطمأنوا على ما أوجبوه على المريدين والناس من رفع الأولياء فوق كل نقد وملازمة — بالغاً ما بلغ شذوذ سلوكهم واعوجاج تفكيرهم ، أعلنوا أن التكليف الدينية قد سقطت عن الأولياء ، فجاز لهم أن يحرروا أنفسهم من تبعات الدين وفروضه ، ويشعروا على أوامره وتواهبه ، وقد أدت بهم هذه النظرة التي فشت في هذا العصر إلى إهمال الصلاة والصيام والتقصر في سائر فروض الدين ، ثم الخروج على نواهيه بالزنا في النساء والفسق بالغلمان وتعاطي الخميش والأفيون وشتى ضروب المخدرات جهاراً أمام الناس دون تورع ولا استحياء — كما عرفنا من قبل — وقالوا إن العبد إنما يتقيد بأوامر الدين ونواهيه رغبة في الوصول إلى الله ، فإذا وصل جاز له التحرر منها جميعاً . . . وما كان هذا الجهر بارتكاب

المعاصي والتقصير في القيام بالطاعات ليرضى كافة الفقهاء — ولو كانوا لا يلتزمون في حياتهم العمل بأوامر الدين ونواهيها .

التنافس من أجل الدنيا :

يضاف إلى هذا كله سبب لا يقل في خطورته عما أسلفناه — إن لم يكن أعظمها جميعا — ذلك هو التنافس على الزعامة ، فقد كانت الصدارة بين الناس في هذا العصر موزعة بين ثلثها وأرباب الطريق ، وكانت ذات مكان موقر من الأمراء والأثرياء والناس عامة ، فكان طبيعيا أن يثور الحسد في نفوس المتنافسين على الظفر بهذه الزعامة ، وأن تشتعل الضغينة في قلوبهم ، وقد أشار إلى ذلك الشعرا في نفسه (١) ، وقد عرفنا أن العلماء كانوا يكثر من التردد على بيوت الأمراء . وقل منهم من لم يعرف عنه ذلك كما روينا عن الجبرتي في أكثر من موضع . وأن مشايخ الطرق كانوا على اختلاف نزعاتهم يتصلون بالأمراء ويأخذون منهم الهدايا والأموال — حتى الذين كانوا يعلنون احتقار الظلمة من الحكام — وقد كان الأمراء يعلنون مرضاتهم عن ذلك ، وإن كانوا يبتغون احتقارهم ويضمرون السخرية بهم ، وليس من شك في أن هذا التهاافت على دور الحكام كان يثير في نفوس الطائفتين أعرق ضروب الحقد والضغينة .

هذه هي أهم الأسباب التي أدت إلى الإنكار على الفقهاء ، عرضناها موجزين بعد أن عرفنا مظاهر نفوذهم عن شتى الطبقات ومختلف الهيئات ، وثريد الآن أن نعرف أثر التصوف في توجيه الحياة المصرية ، وليس يتبها لنا ذلك ، من غير أن نعرف نظرة هؤلاء الشيوخ للحياة في شتى صورها وألوانها .

(١) البياقوت والجوامع ج ١ ص ١٤ وقال في ج ٢ ص ٨٢ نفس المصدر أن سبب الإنكار دقة المداكر ، وفي السكبريت الآخر ص ١١ ، ١٢ أن أصل الإنكار إبليس .

## فصل ختامى

عن

### أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية

تمهيد — نفوذ أرباب الطريق عند المصريين : مجاورين كانوا أو أبناءا  
ومحبين ومنكرين — أثر تعاليمهم فى توجيه الحياة المصرية فى العصر العثمانى  
وما بعده — موقف الاسلام من هذا التوجيه ، والهوة التى تفصل بين تعاليمه  
ومختلف آرائهم فى الحياة العقلية والعقلية والعملية والظرفية — خاتمة

تمهيد :

أبنا فيما أسلفنا عن نظرة أرباب الطرق إلى الحياة فى شتى الصور ومختلف  
الألوان<sup>(١)</sup> ، ولا حظ لنا مدى اتصال هذه النظرة بسلوكمهم ، ومبلغ توجيهها  
لحياتهم ، ونحاول الآن أن نربط أطراف الموضوع الذى انصبت الرسالة  
على دراسته بكلمة موجزة ، نصل بها ما انقطع من أوصاله ، أو نكشف  
فيها عما استتر من أجزائه ، لنبين منها أثر التصوف فى توجيه الحياة المصرية ،  
مستعينين بترداد بعض ما أسلفناه وتكرار ما أسهبنا الحديث فيه ، لئلا نشير فى  
الذاكرة ما يعيننا مما شرحناه ، ونستغل فى إثبات ما ادعينا فى مقدمة الرسالة  
حين قلنا إن الحياة المصرية لا تفهم على وجهها الصحيح إلا بعد دراسة دقيقة  
مفصلة تتناول بالإيضاح ما مر بأهلها من حركات الدين ، وما استغرق عواطفهم

(١) فصلنا الحديث عن هذه الموضوعات فى عدة فصول من « نظرتهم إلى الحياة العملية  
— العقلية — العملية — الظرفية » وخلاصتها فى الباب الثالث من كتابنا عن  
الضمرانى — لأنه كان يمثل مذاهب التصوفة فى هذا العصر فى هذه اليازين كلها ، فليرجع إلى  
كتابنا عنه من شاء التوسع فى فهم ذلك .

من تياراته ، واستوعب أذهانهم من موجاته ، لأن الأفكار التي تزداد باسم الدين تفسو بين الشعوب — في عصر الاضمحلال خصوصا — وتتخذ صورة العقائد عند الناس ، ومن شأن العقائد أن تستبد معتقيا . وتستبد بهوام وتهمين على توجيه حياتهم وتحديد تصرفاتهم والتحكم في وجودهم — كما يقول المحدثون من علماء النفس والاجتماع ، ولهذا لم تكن مبالغين حين قلنا إن الذين يدرسون الحركات الدينية التي مرت بالشعب المصري يقدمون لمؤرخ الحياة المصرية تفسيراً جديداً لظواهرها ، وفهماً واسعاً لمختلف جوانبها ، ويعينونه على أن ، بفلسف ، التاريخ كما أشرنا في مقدمة الكتاب .

وينبغي أن نقول في التمهيد لهذه المحاولة إن التصوف الذي قام بين المصريين كان — فيما يرجح على الظن — أقوى الحركات الدينية توجيهها لهم وأعظمها أثراً في حياتهم ، لأنه كان في عرف الناس زبدة الدين وخلاصته ، وأما تناولناه في المرحلة التي استغل فيها أمره واستشرى فيها دأؤه — ولكن هذا التوجيه لا ينسبنا التصريح بأن الاقتصار على دراسة التصوف قد أعجزنا عن تفسير القليل من ظواهر الحياة المصرية على ضوءه ، وإن كان يقدم لنا حلولاً للكثير من المعضلات في ظواهرها ، بل لعله ينهض بتفسير المجهول منها أو يضطلع بإزالة نواح من الغموض الذي يحوطها وإن عجزنا عن بيان ذلك في هذا الفصل ، فإن المصريين كانوا في هذا العصر — على ما عرفنا — أسرى شيوخه وعبيد تعاليمه .

وتصادفنا عقبة أخرى عند الإقدام على هذه المحاولة ، هي أن الحياة المصرية في العصر العثماني لم تؤرخ إلى يومنا الحاضر تأريخاً مفصلاً دقيقاً ، فكيف يمكننا أن نحدد الصلات التي تقوم بين تعاليم المتصوفة وهذه الحياة التي لا يزال الكثير من جوانبها غامضاً مجهولاً ؟ لقد عرفنا خلال دراستنا بعض نواحيها وبقي بعضها الآخر في خفاء وغموض ، فهل من حقنا أن

نستعين على معرفة الغامض منها بفهمنا للحياة المصرية في وقتنا الحاضر . . . إن مصر قد اتصلت بالغرب بعد انقضاء العصر العثماني واحتك أهلها بمدنيته ، فبعث فيهم هذا الاتصال روح التمرد على تقاليدهم والثورة على المألوف من عرفهم ، والاتجاه إلى السير في طريق المدنية الغربية ، ومن ذلك بدأت الحياة المصرية تأخذ اتجاها يباعد بين المصريين وروح التصوف ، ويجعل تفسير حياتهم الراهنة على ضوء التصوف وحده شططا في الكثير من مواضعه . . .

ولكن لماذا نسمى هذا شططا . . ؟ إن في الشعب المصري طبقة تمثل إلى يومنا الراهن سواده الأعظم — هي قطعة من الماضي السحيق تخلفت عنه والزمان ماض في طريقه لا يبطئ في مسيره ولا يثقل رجلاه ليدركه المتخلفون عنه والراغبون في اللحاق به ، فظلت هذه الطبقة تحيا على تراث هذا الماضي وتقاليده . . . إنها نوشك أن تثبت أن التطور الذي يشمل الحيوان والجماد ، لا سلطان له على هذا الصنف من الناس ، فهو صنف يمتاز بالوفاء المطلق لتراث الماضي والحرص الشديد على نقله إلى الجيل الذي يليه دون زيادة ولا نقص . ١١ .

نحن مضطرون لمعرفة الأثر الذي كان للتصوف في توجيه الحياة المصرية إلى الاستعانة على فهم الغامض من ظواهرها ، بحياة الريفيين ومن في حكمهم في وقتنا الحاضر ، لأن الحياة تنحدر إليهم تركة يرثها جيل بعد جيل .

على أن ذلك كله لا يمنعنا من التصريح بأن تفسير الحياة المصرية في شتى ظواهرها على ضوء التصوف وحده ، محاولة جريئة تنذر بالخطر وتغرى بالشطط وتفقد إلى مهاوى الزلل ، والمنهج العلمي يحب الحذرو يوجب الحرص ولا يميل إلى الإيالة على المخاطر ، ولكننا نرى الإقدام على هذه المجازفة في ختام الرسالة ، شراً لا بد منه ، ولهذا أقدمنا عليها بعد التزود بما تسمح

الطاقة من الحيلة والحذر — والآن إلى إثبات ما ادعينا :

نفوذهم عند المصريين :

كان المصريون إزاء شيوخ الطريق بين مجاورين يقيمون في الزوايا طاعمين كاسين من أحباسها وأموال الأغيار وهذا المحسنين متفرغين لعبادة الله ، وأنبايع يحترفون العمل في ميادين الزراعة والتجارة والصناعة ولكنهم يقضون فراغهم — وما كان أوسع — مع أرباب الطريق يستقون منهم العلم بالدين والدنيا ، ويحبين يلتفون بالشيوخ بين الحين والحين تيمنا ببركتهم والتماسا للعلم والدين واعتقادا في صحة ولايتهم ، ومنكرين كانوا — فيما يرجع على الظن — لا يؤمنون بولاية شيوخ بعضهم ، ولكنهم شديدو الايمان بغيرهم من أرباب الطريق ، وبين هذه الفئات التي أسلفناها وجد أرباب الإحسان وأولو الحكم وأهل الفقه .

ينبىء هذا التصنيف بأن المصريين — في الجملة — كانوا على اختلاف طبقاتهم وتباين هياتهم يؤمنون بالتصوف ، وإن أنكر بعضهم على شيخ آمن بغيره ، ولذلك تساروا جميعا في التأثر بتياراته والسير في ركابه ، وهذا كلام موجز بموزة التفصيل فلنتناوله بالإيضاح :

المجاورون :

حققت مصر — على ما عرفنا — بالزوايا التي يقيم فيها ألوف المريدين يعبدون الله على طريقة شيوخهم يستقون العلم والدين من معينهم ، ويحملون لهم من القداسة ما لم يحملوه لله ورسله وملائكته ، فقد كان من لزم آداب المريدين نحو شيخهم أن يؤثروا طاعته ولو كان فيها عصيان لأوامر الدين وتمرد على نواحيه ، ويخفوا إلى تنفيذها ولو أدت إلى طلاق الزوجة وفراق الأولاد ، وإن جهلوا العلة في أوامر الشيخ والحكمة التي أدت إليها ، فإن تردد



المريد في الاستجابة لهذه الأوامر — بالنفا ما يلغ الإجحاف فيها وجب على الشيخ أن يخرج من زاويته ويطرده من رحته ورضوانه .

وما كان سلطان الشيوخ على المجاور ليقف عند الدين أو يقتصر على ما تتطلبه الأخرى فقد تجاوز ذلك — باسم الدين — إلى الدنيا وشؤونها ، فحرموا عليه الأقدام على عمل أو الشروع في أمر مهم دون استشارة الشيخ والانقياد لمشورته — وإن وضح له فسادها فإن اقتراف في دنياه إنما وجب عليه أن يبادر إلى شيخه وليعترف ، على يديه ويلتمس منه العمل على تطهيره من ذنوبه ، وبذلك أضحي لشيوخ الطريق سلطان على مريديهم لا يقره الاسلام وإن أباحت المسيحية — أو أحله القس لأنفسهم<sup>(١)</sup> على ما عرفنا من قبل .

على أننا قد أشرنا إلى أن المريدين كانوا لا يلتزمون العمل بتعاليم الشيوخ إذا انصبحت على مقاومة الفرائز رأسا — كمقاومة الملكية وإلغاء الأنانية ونحوها . ولكنهم كانوا في سائر نواحي الحياة متاعا للشيوخ ، أو أدوات في أيديهم يسخرونها كما يشاؤون . بل أحقر من الأدوات إذ كانت الحقوق تعوزهم والواجبات تثقلهم فكانوا في زواجهم وتربية عقولهم وتنمية أجسامهم وتهذيب نفوسهم ومعاملة بعضهم لبعض ، وسائر جوانب الحياة خاضعين لأوامر الشيوخ — ما لم تتصل بالفرائز اتصالا مباشرا وثيقا .

ولكن لماذا نحاول الكشف عن أثر التصوف في توجيه الحياة عند هذا الصنف من المريدين ؟... إن حياته موت يتخلله الكلام والحركة ، كان المجاورون في حاجة إلى الشعور بالعزة والكرامة — وكانت الواجبات تخرج صدورهم وتنقص ظهورهم دون أن يكون لهم حقوق معروفة ، فكانوا بذلك أحط من الحيوان والجماد على ما عرفنا — ولكننا عطينا بالإشارة إلى

(١) أظن كتابنا عن الصوفى إمام التصوف في عصره عن صلة تعاليمه بالمسيحية ، وعن نموذج من علاقتهم بالمريدين .

حياتهم في هذا الفصل لأنها كانت إيماءاً قوياً ، للتصلين بهم والمتبعين ببركتهم من زوار الزوايا والمتصلين بهم في المساجد والمحتكين لأى سبب من الأسباب ، وعلماء الاجتماع يعرفون أثر الإيماء في حياة الشعوب .

### الأتباع والمحبوبه :

ونريد بهم أهل العلم والأدب وأولى الحكم والسياسة وأصحاب الحرف وغيرهم ممن كانوا إذا فرغوا من أعمالهم سارعوا إلى الشيوخ ومحاورهم وسعدوا بالجلوس إليهم والاستماع إلى أحاديثهم ، والتأثر بتعاليمهم ، وفضوا في ذلك فراغ وقتهم — وما كان أوسع — وكانوا لا يرون في الطريق أحد مدعى الولاية إلا تنهاتوا عليه وتزاحموا حوله وتسابقوا إلى تقبيل يديه والتراعى على قدميه .

وقد عرفنا أن الشيوخ قد قسموا مصر إلى مناطق نفوذ ، وأن صاحب المنطقة كان يمنح نفسه الحق في امتلاك أرضها واستغلال غلاتها والاستيلاء على أهلها وكان الناس يسلمون له بهذا الحق راضين مقتبطين ، كما يقول الشيخ الصعيدى والشمراوى وغيرهما — والناس من فرط الخضوع لسلطان الشيوخ يسارعون إلى المساهمة في كل ما ينظمه الشيخ معلنين الرضا به والاعتباط اه — ولو كره بعضهم ذلك لعجزه عن الاضطلاع به ، فقد كان التقصير في ذلك — أياً ما كانت أسبابه — فضيحة ، في عرف الناس كما يقول مؤرخو العصر .

لقد كان السفاكون والمجرمون وقطاع الطرق ينقادون للشيوخ ، بل يبادرون إلى الاتصال بهم وطلب المغفرة على يدهم ويحتملون منهم كثيراً من ضروب العذاب وألوان العقاب ، ويسيرون في مواكبهم في الشوارع مقدين في السلاسل والأغلال غير شاكين ولا برمين . كان الشيخ إذا نظر في طريقه إلى أحد المجرمين تبعه المجرم من تلقاء نفسه مسقلاً مستغفراً . . . فأية حكومة من حكومات الأرض قد نهبها هذا السلطان . . لانكاد نعرف

نيابولا رسولا تنبأ له نفوذاً أعظم من هذا النفوذ الذى توافر لهؤلاء  
الآدعياء...!

بل ماذا يقول المؤرخ فى وصف المحبة التى انطوت عليها الجماهير لأعظم  
الزمل والأنبياء الذين عرفتهم الدنيا فى قديم الزمان أكثر من قول صاحب  
النور السافر فى السيد محمد البكرى : « وكان إذا قام من كل مجلس جلس فيه  
للتدريس فى الجامع الأزهر أو غيره يتقدم إليه الناس لتقجيل يده والتبرك  
بدعائه إلى ذاك والقرب من موضعه الشريف الذى هو موضع الرحمة ، ويقع  
بينهم ازدحام عظيم وربما سقط بعضهم تحت أقدام الناس وحوله إذ ذاك  
جماعة من جند السلطان الروم ( الترك ) وغيرهم وقد حلقوا بأيديهم خشبة  
عليه من الايذاء بالازدحام وربما أخذ واحد منهم بيده الشريفة وهى ممدودة  
لتقجيل الناس لطول مدها لم إذ كان يقف بعد درسه نحواً من ساعة زمانية  
ثم يسير إلى جهة دابته والناس على الغاية فى الازدحام عليه إلى أن يصل إليها .  
ولا ينبغي قط أن نقول إن هذا شيعه بحب الجماهير لزعماء السياسة فى  
وقت الحاضر ، فإن أكثر استقبالاتهم التى زارها فى السينا أو تقرأ عنها فى  
الصحف مدبرة قد نظمها أتباعهم قبل وصولهم إلى مكان الاستقبال ، وأعد  
شاهد على ما نقول أنا كثيراً ما زرى هؤلاء الزعماء أنفسهم يسرون فى  
الشوارع وحدهم والناس ينظرون إليهم متهامين مشيرين إليهم قائلين : فلان  
باشا... ولا ازدحام هناك ولا حفاوة...! وذلك فوق أنهم لا يتصلون بالجماهير  
— فى الأغلب والأعم — اتصال هؤلاء المتواضعين ، ولذلك أثره البين فى  
تهافت الشعب عليهم وشرقه إلى التطلع إليهم .

بل لقد كان الشيخ يمشى إلى المكان القفر فيقيم فيه زاوية فسرعان ما  
يتهاافت عليه الناس ويأدر إليه الفقراء وتقام حوله المساكن تبركاً به وتيمناً  
بمجاورته فإذا المكان القفر عامر...! روى صاحب تكميل النور السافر<sup>(١)</sup> عن

محمد المنير أنه تسامع نبأ ولد كان في صحبة أمه ومات عطشا جهة بليس .  
فضى إلى هذا المكان القفر الذى مات فيه الولد وحقر فيه بترأ وأقام على كتب  
منها زواية له ، فسرعان ما أقيمت المساكن حوله وكثر الفقراء عنده فإذا  
المكان القفر قرية عامرة وإذا الزاوية ملئت بالمعجبين بالشيخ المؤمنين به .  
ومحط الراحلين إلى القرمس والشام وغزه أو العائدين من هذه البلاد  
إلى مصر ١٠.

فالتفوذ الذى تهباً لشيخ الطريق عند المصريين إبان العصر  
العثماني لم يتوافر نفوذ أعظم منه — من قبل ولا من بعد — لزعم ولا نبي  
ولا رسول ١١.

ولقد كان بين المحتفين هؤلاء الشيوخ الشعراء الذى تعقبهم في قصائد  
المتعددة بالمديح والثناء ، والأغنياء الذين اشتد بهم الحب والإيمان فتجردوا  
عن أموالهم وما يملكون وحبسوه على الشيخ وذريته ومجاوريه حتى عاشوا  
في الترف الذى أسلفنا الحديث عنه ، وحكام البلد الذين يتعالون على الشعب  
ولكنهم يخشون سجداً أمام أرباب الطريق ويقومون أثناء زيارتهم للزوايا  
بأقل الخدمات لأفقر الفقراء ، وعلماء البلد الذين كانوا يتسامعون نبأ فقير  
يقم على أبواب المساجد أو في الخرائب المهجورة فيبادرون إلى زيارته  
ويقفون أمامه خاشعين حتى يأذن لهم بالجلوس إلى جواره ، فإن ضن  
عليهم بذلك وبخل بالالتفات إليهم فترة من الزمن انصرفوا عنه آسفين . . . ١٢  
والمفكرون من هذه الفئات كانوا — فيما يرجح — على إيمان صادق بالتصوف  
والمخلصين — في عرفهم — من رجاله ، فكان إنكارهم منصباً على أفراد  
بعضهم ، وقبلها كان يصادفنا في دراستنا منكر بشير العثير في وجوه المتصوفة  
جميعاً ويعلن سخريته بالتصوف وأهله إطلاقاً . . .

كان المصريون — خاصة وعامة أسرى الشيوخ وعبيد الإيمان بولايتهم .

وكانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر — بتعاليمهم ، يتلقونها منهم عقائد تستعبدهم وتسير دفة الأمور في دنياهم ، ولهذا وجب أن نعرف الأثر الذي خلفه التصوف في نفوسهم ومدى توجيه حياتهم ، وذلك بأن نعرض بعض جوانب نظرهم إلى الحياة ونحاول الكشف عن علاقتها بحياة المصريين في العصر العثماني وما تلاه من عصور .

### أثر تعاليمهم في توجيه الحياة المصرية في العصر العثماني وما بعده :

تساوت في نظرهم شتى العلوم المعروفة في عهدهم — من دينية ولسانية وعقائدية وغريبة — فاعتبروا الاشتغال بها انصرافا عن أقدس واجب يقف عليه الإنسان حياته وهو العبادة والذكر والتهجد ، فهاجموها علما علما (١) فكان من أثر هذا الهجوم عند الفقهاء وحملته الشريعة — لا عند عامة الناس فحسب — أن ذهب طالب علم إلى شيخ الإسلام الفتوحى الحنبلى وطلب إليه أن يدرس المنطق على يديه — فقال له الشيخ ، يا ولدى قد صار الفقه ثقيلًا على قلبي فكيف يعلم أفتى بعض العلماء بتحريم الاشتغال به ؟ ، فقال له الطالب ، يا مولانا إن العلم عبادة فقال له الشيخ صحيح ذلك ، ولكن ما وجدنا في العلم رقة قلب بخلاف الذكر والاستغفار ، مع أن فضل العلم على غيره مشروط بمحصول الإخلاص فيه وما أظن أن عندى إخلاصا ١١٠ ،

ولاشك أن حملاتهم على العلوم كانت ذات أثر كبير في ثورة الناس على السياسة العلمية التي رسمها محمد علي باشا بعد انقضاء العصر العثماني — ومقاومتهم لمدارسه التي انصرفت عنايتها إلى دراسة العلوم الحديثة ، ولاشك أيضا أن هذه الحملات كانت ذات أثر كبير في مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير

(١) أنظر ذلك في الفصل الذى عقدناه من مذهب الشراعى في الحياة العلمية في كتابنا عنه ( النصل الأول من الكتاب الثالث )

الحديثة<sup>(١)</sup>، ولا شك أيضا أن هذه الحلقات كانت ذات أثر كبير في مقاومة الأزهر لإدخال العلوم غير الدينية في برنامج دراسته. وقد أحس أولو الأمر بما سابقونه في هذا السبيل من تعصب وضيق فهدوا لذلك بفتوى وضع صيغتها السيد محمد بيرم بعد أخذ وعطاء بينه وبين شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأزهر الشيخ محمد الإنابى ومفتى الديار المصرية الشيخ محمد البنا، فقال بعد الديباجة: «أقولكم رضى الله عنكم هل يجوز تعلم المسلمين العلوم الرياضية مثل الهندسة والحساب والهيئة والطبيعات...؟» فأجاب الإنابى بجواز تعلم هذه العلوم وضرورة العلم بما تنوقف عليه مصلحة دينية أو دنيوية وتحريم الاشتغال بغيرها إذا كان على طريقة الفلاسفة. II ووافق البنا على ما كتب الإنابى، وكان ذلك عام ١٣٠٥ هـ ولم يعمل بهذه الفتوى إلا بعد مضى تسع سنوات أخرى...<sup>(٢)</sup> ولهذا أيضا دلالة.

والناحية العلمية كانت فيما نرى أقل نواحي الحياة المصرية تأثرا بالتصوف، إذ كان بين القائمين عليها المهيمتين على شئونها ألد من عرف المتصوفة من أعداء، وكانوا أصحاب نفوذ على طلبة العلم أدى إلى ازدحام حلقات دروسهم بمئات الطلاب، وكان بعض المتصوفة يلقون دروسا في رحاب المساجد على طريقة الفقهاء كمحمد البكرى في القرن العاشر، والمناوى في القرن الحادى عشر والبيومى والدردير والشبراوى والحفناوى في القرن الثانى عشر، فأضعف هذا من أثر الداعين للجهالة من أهل التصوف الخالص، وقد ساعد على هذا ما كان يشيعه أعداء المتصوفة من الفقهاء عن زندقية أرباب الطريق وتمردهم على قواعد الدين. على أن ذلك كله لم يمنع من انتصار مشايخ الطريق على الفقهاء في أكثر مراحل النزاع القائم بينهم، وهل أدل على ذلك من انتصارهم

(١) تاريخ الأزهر ص ٢٥ - ٢٨، وقد أشار إليها جرحى زيدان في تاريخ آداب

الامة ج ٤ ص ٣٢

(٢) وصلى تحارب الأزهر والائمة وأنا بالسنخى لثقل يصحح هذه التعاريف صديق الأستاذ جمال الدين الخيل والميدنى لأسرة صفة العصر فلما الشكر الجزيل

على العلماء في أقوى حصونهم وأمنع قلاعهم في الأزهر ! لقد تولى مشيخته بعض من كانوا علماء ومتصوفة معاً كالشبراوى + ١١٧١هـ والعروسي + ١٣٠٨هـ والحفناوى + ١١٨١هـ ، فكان لذلك دلالة ومغزاه .

كان هؤلاء الأدعياء - على ما عرفنا - ينقسمون إلى معسكرين ، لم يتورع أحدهما عن الدعوة للجهالة جهاراً ، ولم يستع ثانيهما من الاتفاق مع الأول في الجهر باحتقار العلوم الشائعة والدعوة إلى العلم للبدن وحده ، وانفق المعسكران كذلك على تحريم التأويل واحتقار التفكير وإيثار الظاهر على الباطن - لغير أولياء الله - ولا شك أن هذه الدعوة كانت ذات أثر كبير في ركود الحياة العقلية عند المصريين في العصر العثماني ، فتعاون الفقهاء مع أرباب الطرق على إذاعة الدعوة الخطرة وقد ورثتها الأجيال التي أعقبهم ، فما زال إلى اليوم نرى الذين يحرمون تأويل الآيات والأحاديث ويتهمون بالزندقة كل من أقدم على ذلك ولو كان من كبار حملة الشريعة ، وقد فاسى الشيخ محمد عبده وغيره من أمثالين الدين كثيراً من جراء ذلك .

لا نريد أن نبالغ فنقول إن أرباب الطرق كانوا يبعث الركود الذي شمل العقل وطقى على العلم في العصر العثماني ، فإن الشال العقل كان قد أصاب العالم الإسلامي كله منذ عام ١٢٠٠ للميلاد حين انتصر حزب السنة وقضى بتعصبه على حرية العقل وعمل جاداً على خنق الحرية الفكرية كما يقول الأستاذ نيكلسون في الفصل الأخير من كتابه تاريخ الأدب عند العرب ،<sup>(١)</sup> ولو أن الحياة العقلية في مصر كانت ناضجة ما استطاع هؤلاء الأدعياء المباش في رعاياها والتنفس من أنبيها ، على أن ذلك لا يمنع من القول بأن المتصوفة قد استغلوا الركود الجاثم على صدر الأمة ، وعملوا على تقويته بتعاليمهم المريضة ، فساهموا بنصيب وافر في الاتحلال الذي أصاب العقل المصري إبان العصر

العثماني . ولا سيما إذا عرفنا أن مصر كانت زعيمة العالم الإسلامي كله أيام سلاطين المماليك .

فإذا تركنا أثرهم في الحياتين العلمية والعقلية وتبعنا في الحياة الاجتماعية ، عرفنا أنهم في الأغلب والأعم قد صوروا الدنيا في صورة جسر يعبر عليه الإنسان إلى أخراه — إلى المقام الأبدى والدار الباقية — والعاقل من استغل وجوده بها ووقف حياته على التزام الطاعات ومواصلة العبادة والاخلاص في الذكر حتى تغنى بشريته وتتصل نفسه بحضرة الله وتنعم في رحلتها بما لم ينعم به إنسان ، وتستمد من معيها شئ الحيات التي لا يظفر بها إنس ولا جان ، فأدى بهم هذا التصوير القبيح للدنيا ، قيمتها إلى القول بالغناء للملكية واحترام البطالة وإباحة التسول وتحقير ما تتطوى عليه الحياة من لذات وإغراء الناس بشكلف الحزن واصطناع الضيق والسمي إلى مواطن الذل والاعتباط بالهوان والاحتمتان للمستقبل الفاض والقناعة بالثافة من شئون العيش والاستمانة بالمادة والاستمئثار بالمال والاكتفاء برحمة السماء .. ألغوا الملكية اعتمادا على أن الله وحده مالك الدنيا والآخرة وصاحب السموات والأراضين ، هو الباقي وسائر العباد قد وجدوا في الدنيا لينأهبوا للآخرة ويستعدوا لاستقبال أهوالها .. وحصرُوا سعادة الدارين في العبادة والذكر فاقنعى بهم ذلك إلى تحقير مطالب الحياة ورغبات النفس وشهوات الجسم ، فكان من أثر ذلك أن هان في نظرهم السعي في الدنيا لاكتساب المال والسكد في ميادين العمل من أجل الربح للظفر من لذات الحياة بأوفى نصيب ، وساروا في تصورهم إلى نهايته فأباحوا التسول بعد أن استهجنوا السعي وقبحوا العمل ، قائلين إن الشحاذين الذين يطوفون بالآبواب يحملون عن المحسنين ذنوبهم ، فإن هدية الله للمؤمن وقوف السائل على بابه ، وإذا كان التسول مباحا محبوبا فذلك لأن الدنيا دار فناء ولا قيمة لما تتطوى عليه من لذات ،



والإنسان فيها يشبه المريض الذي حانت ساعته ، فكأن المريض لا يفكر في هذه الساعة إلا في الحساب العسير الذي ينتظره ، فكذلك العاقل في دنياه لا يفكر في تعليم نفسه أو تحسين معيشته وترقية مستوى حياته لأن ذلك انصراف لأنفه المطالب واهتمام برغبات دنيوية تافهة ، والإنسان الذي يعرف مكانته وصالته هو الذي لا يبيت على دينار أبدا ، وحسبه من دنياه التوكل على الله ، وما أخيب التاجر الذي يصرف وقته في تجارته والزارع الذي ينفق جهده في زراعته ، والصانع الذي يبذل نشاطه في صناعته ، وما أفضل من سائر منهم طلبا لكسب أو رغبة في مال فإن الرزق في طلب صاحبه دائر ، والمرزوق في طلب رزقه حائر ، وبسكون أحدهما يتحرك الآخر ، فأنه يرزق عباده من حيث لا يحتسبون ، وصير في القدرة الإلهية يمر بالفقراء فيسد عنهم ديونهم ويمدهم بالمال الذي يحتاجون ، والاخلاص في العبادة كفيل باكتساب شتى الهبات والظفر بختاف المطالب ، وإن العبد ليدخل الحلوة جاهلا فقيرا ضعيفا ويخرج منها عالما واسع العلم ، ثريا طائلا الثراء ، قويا موفورا القوة . . .

فحسب الإنسان من حياته العبادة ، والعبادة من مستلزماتها التي لا تستقيم بغيرها الإصراف في التواضع حتى لا يهون على الإنسان كرامته ، وتسقط في عينه عزة نفسه ، ويسهل عليه التفرغ تحت أقدام الناس والرضا بظلم الظالمين وبغى المعتدين ، والاعتباط بالذل والخوان ، فإن احتمل الظالم رضاه بقضاء الله وعقابه للظلم على سوء ما قدمت يده ، ولماذا يثور المظلوم في وجه ظالم ؟ .

لماذا الحاصرة والإنسان لا يعلم في دنياه كثيرا ولا قليلا . . . ثم إن الظالم لا يقدم على ظلم أحد من الناس إلا وهو في غفلة عن ربه ، ولو أنه كان في يقظه لعرف أن الله يراه ، وأنه يظلم أحد عباده ، ولو عرف ذلك لاستحى من ظلمه وكف عنه أسفا ، ومثل هذا أحوج إلى عطف المظلوم ومرثاته منه

إلى سخطه و غضبه (١) .

بهذه العين الكلية نظروا إلى الحياة ، فأحالوا الدنيا إلى مقبرة واسعة النطاق تضم ملايين المخلوقات ، وحولوا الحياة إلى موت تنخلله الحركة ويشوبه الكلام ووضعوا هذه التعاليم التي لا تلائم غير الضعفاء والجبناء والكسالى وفقراء النفوس ومرضى العقول وساقطى الهممة ، وكانوا يستغلون نفوذهم عند الناس وينفثون في المتصلين بهم هذه التعاليم المربضة ، وتلقى المصريون عنهم هذه الآراء كما يتلقى المؤمن المخلص عقائده الدينية فلا يتردد في اعتناقها ولا يبطئ في العمل بها ، فإن ألحت على المصري حياته بالحيدة عن بعض هذه التعاليم حاد عنها أسفا على عجزه عن التزام العمل بها ، وكان هذا الأسف كفيلا بأن يشبع الفتور في عزمته ، وكذلك كان أصحاب الحرف الذين أقاموا على أعمالهم رغم انصالحهم بشيوخ الطريق ، بل لعلم كانوا متأثرين في ذلك بدعوة بعض هؤلاء الشيوخ لاحترام العمل والتفكير من البطالة .

على أساس هذه التعاليم التي أسلفنا الآن إجمالها قامت الحياة الخلقية والعملية والسياسية في مصر ، خف ألوف الدراويش إلى الزوايا عاطلين من كل عمل إلا دعوى العبادة والذكر ، يحترفونها ويفتاتون من ورائها ، ويشبههم في هذا ألوف الدراويش الذين كانوا يتجولون في السوارع والطرق ويقيمون الدنيا هذا الفهم المريض الذي لا يكلف الإنسان مشقة ولا نصيباً ، وألوف غيرهم يحترفون العمل — ولكنه عمل يحوطه الاعتقاد في نفاثته ، والاحتقار لشمرته ، وإيمان بأن القناعة بالتافه من شئون العيش ثروة ليس بعدها ثروة ، ولا شك أن هذا كله قد ساهم بأوفر نصيب في ركود الحياة العملية إبان العصر

---

(١) اقرأ تفصيل هذه الآراء في كتابنا عن الشعراء في بيان موقفه من الحياة السياسية والعملية والخلقية وهي فصول تعبر عن روح العصر كله ولهذا أقرنا أن نعمل تفصيل هذه الآراء اعتماداً على أن ما كتبناه مصدرها في كتابنا عن الشعراء فيه الكفاية .

العثماني ، فقد كان الذي يتظاهر بالتزام هذه التعاليم موضع احترام وتقدير من كافة الناس ، فكان هذا إجماعاً ذا أثر قوى في الركود الذي شمل العصر كله . . .

فاذا تخطينا الزمان وتلمسنا أثر التصوف في حياة الربيعين الحاليين ومن هو في حكمهم من أهل العصر الحاضر من تخلفوا عن الزمن الماضي فأخذوا عنه عقولهم واستعاروا منه نفوسهم وعاشوا بها بين ظهرائنا ، وجدنا أنهم لا يزالون يعيشون في الدنيا كما يعيش الحيوان الأعجم ، يقعون ما وجدوا اللقمة التي تسد الرمق ، والرقعة التي تستر العورة ، تمردهم على الحاكم - بالغا ما بلغت قسوته بهم - لا يتجاوز اغتيابه وتركه إلى الله العادل المنتقم الجبار .

وسوادهم الأعظم على اعتقاد بأن الشعوب لا يصيبها ظلم ولا يدر كهاضتك إلا كان من غضب الله على كثرة ذنوبها وتعدد آثامها . . . فهو تعالى يعاقبها بهذا الذي تقاسيه في حياتها من مظالم وظوائع . . . أجل لا يزال في الريف من يرون أن ثماحن زعماء السياسة في يومنا الحاضر مظهر من مظاهر غضب الله على المصريين الذين استهانوا بالدين فأعملوا الفياض بفروضة . . . وتمردوا على نواهيهم ومساهماتهم في الثورة المصرية عام ١٩١٩ لم تكن عن إيمان بضرورتها واعتقاد بحكمة القيام بها - بل كانت عن إجماع قوى أو تقليد لبعض المستبشرين الذين زابلهم التأثير بتعاليم الصوفية في هذا الصدد . . . فهي ثورة ولدتها غريزة التقاليد وحدها . . . ( وإن جاز أن يقال إن هذا هذا كان أثراً من آثار الركود والجهل الذي سبق العصر العثماني ، وجب أن يقال إن تصوف هذا العصر قد قواه ومناه ) .

والقناعة عند الفلاحين والتجار ، وأصحاب الحرف مرض قد استشرى دأؤه واستفحل أمره ووجب العمل على علاجه ، فإن الزمن قد تطور بالناس حتى أصبح التكالب على المادة والضرب في زحمة الحياة لا كسباب المال والظفر بالثراء مفخرة لصاحبه . تعلل بين الناس قدره وترفع في عيونهم مكانته ، ولا يزال أهل الريف في مصر ومن في حكمهم يعتقدون أن القناعة كنز لا يفنى ، وأن الزهد في طلب الدنيا من مفاخر أصحابه ، والتجار في الريف

والأحياء الوطنية بالمدن يقيمون في حى من الأحياء ويفتحون متجرا يضعون فيه أصنافا معروفة يتجرون بها ، وكثيرا ما تنصرم حياتهم الطويلة دون أن يفكروا في تغيير الحى أو المحل أو زيادة الأصناف التى يتجرون بها ، ولا يزال باعة الكتب فى الحى الحسينى بالقاهرة — لا يكرون فى فتح مكاتبهم ويهتمون بإغلاقها قبل غروب الشمس ، ولعل ذلك أثر من آثار التعاليم الصوفية التى أعلنها الغزالي وأتباعه حين نصحوا التاجر بالألا يكون أول داخل إلى السوق ولا آخر خارج منه ، وكذلك نقول فى بقية الباعة بهذا الحى وغيره . وإن جاز أن يقال إن هذا من تقاليد الإسلام السابقة على تصوف العصر العثماني .

وقد تغفلت هذه النظرة فى هذه البيئات وأثرت فى الجاهل منها والمتعلم ، وكان من أثرها البليغ فى المتعلمين من أهل الثقافة الصوفية القديمة ما نراه عند شيخ من شيوخ الأزهر يدرس لطلابه ، الجغرافيا الاقتصادية ، منذ بضعة أعوام فيقول لهم فى مذكرات مطبوعة : إن من نعم الله على المصريين أن سخر لهم الأجانب يقومون عنهم بالأعمال الاقتصادية والمالية حتى يتفرغوا هم ( المصريون ) لعبادة الله . ١٠ فهذا الشيخ — عفى الله عنه — يعتبر من نعم الله على المصريين قيام الأجانب عنهم بالشئون المالية فى بلدهم واستجواؤهم على شركات المياه والنور والمواصلات ومختلف مرافق الحياة الاقتصادية ، وذلك لكى ينقطع المصريون لعبادة الله فى عصر بلغت فيه زحمة الحياة والتكاليف حدما الأقصى . ١١ ولست أدري ماذا تكون لعنة الله ونقمته من الشعوب اذا كانت سيطرة الأجنبي على مرافق الحياة الاقتصادية فى عصر تستعبده المادة ، يعتبر نعمة يحمدا لإنسان ربه من أجلها — الا اذا كان المراد أن يحمدا الله الذى لا يحمدا على مكروه سواء . ١٢

والذين يستسلمون للحياة هذا الاستسلام المعيب ، لا ينتظر منهم التفكير فى رد ظلم أو دفع بغي أو ثورة من أجل كرامة ، وقد انحدرت إليهم — فيما يرجع على الظن — نظرة صوفية العصر العثماني فتغيرت فى مظهرها أو تفاصيلها

ولسكنها بقيت في جوهرها كما كانت أيام العثمانيين (١) لأن تعاليم التصوف تنحدر إلى الناس مع التقاليد التي يرثونها جيلا بعد جيل .

حسبنا الآن هذا فقد طال الحديث ، حسبنا هذا لأن معين الكلام قد نصب ، فإن في هذا الميدان متسعاً للحديث المستفيض ، ولكن لأن الحديث كلما طال وجب الخوف من الشطط في التقدير والجنوح في الاستنتاج ، ولذا ذكر ما قلناه في مستهل هذا الفصل . من أن هذه المحاولة التي أقدمنا عليها تغرى بالخطأ وتقود إلى مهاوى الزلل . فإن الذكرى تنفع المؤمنين .

إن الحكم على الحياة الاجتماعية عند الشعوب وتعليل ظواهرها ليس أمراً هيناً ميسوراً ، فربما تبدو الظاهرة بسيطة نحمل تفسيرها لكل من وقف قليلاً للتفكير في أمرها ، ومع ذلك فقد تكون معقدة إلى أقصى حدود التعقيد ، وتعليلها الصحيح قد يبلغ مكان الاستحالة عند هذا الباحث ، وأكثر الظواهر الاجتماعية - إذا لم نقل كلها - وليد عقل كثيرة تتضافر على وجودها وتتعاون على إظهارها ، ولهذا كان رد الظواهر التي أسلفناها في حياة المصريين إلى التصوف وحده وجعله العلة الوحيدة في قيامها ، أمراً مخفوفاً بالخطر ، على أنا لا نملك بعد هذه الدراسة الآن نقول إنه كان أعظم العوامل أثراً في قيام هذه الظواهر . . .

ولكن لماذا نسينا الدين . . ؟ ألم يكن للإسلام نصيبه في توجيه الحياة المصرية إلى هذا الاتجاه الذي عرضناه ؟ ذلك ما ينبغي أن نطيل الحديث فيه ، فإن الحياة المصرية كانت إبان العصر العثماني مسوقة بالحضارة الدينية وحدها ، وأريد بها تعاليم الدين وما نسب إليه من آراء ، ولم تساهم في هذا التوجيه المدنية الغربية ولا غيرها من المذنبات ، فقد كانت مصر على ما عرفنا في عزلة إلا عن العالم الإسلامي ، وكان هذا العالم قد أدركه الاضمحلال

---

(١) تفصيل هذا في الفصل الذي عقدناه على الحياة الخفية في كتابنا عن الشمراني .

وطبع حضارته في شتى شعوبة ودوله بطابع واحد ، فلم تنفع رحلات العلماء وأرباب الطريق التي انتشرت في هذا العصر كثيرا ، إذ أنعشت الحياة في دوائرها الضيقة ، ولم تخرجها من نطاقها أو تعدل من ظواهرها وتعمل على توجيهها إلى انجاء جديد . . . والآن إلى الإسلام نشرح موقفه من مختلف مظاهر الحياة الدنيوية :

### موقف الإسلام من هذا التوجيه

نتناول الآن نظرة الإسلام إلى الحياة في شتى التواحي التي فصلنا الحديث فيها ، لمعرفة أن الدين يرى من أكثر هذه الدعاوى التي بشروا بها وطالبوا الناس بالتزامها ، فكان من أثر ذلك ، هذا الركود الذي شمل الحياة المصرية واستبد بأهلها هذا الزمان الطويل .

#### الاسلام والحياة العلمية عند الله :

دعا الاسلام إلى نصب المعظم الذي يقوم بتعليم الناس وإقامة المؤدب الذي يذب نفوسهم<sup>(١)</sup> ، فكان في ذلك احترام للعلم ، قال رسول الله من قال ان للعلم غاية فقد بحسه حقه ووضعه في غير منزله التي وضعه الله فيها حيث يقول ، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، وقد قال تعالى ، انظروا ما في السموات والأرض ، وبسكت المقصرين في النظر فقال ، وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ، وأندد الذين عميت عيونهم عن تدبير بدائع الكون فقال ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى ، وقال تعالى ، وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، ومن الأحاديث النبوية التي تنطق بتقدير العلم والدعوة

(١) جمال الدين الأصفهاني : الاسلام والرد على مستنديه ص ٨٩

له : أفضل العبادات طلب العلم — من أراد الدنيا فعليه بالعلم ومن أراد الآخرة فعليه بالعلم ومن أرادهما معاً فعليه بالعلم — الدنيا ملعونة ملعون ما فيها إلا علماً أو متعلماً — لاخير في الغيش الا لعالم ناطق أو لسامع واع — وهل تنفع القرآن الا بالعلم — طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة — طلب العلم من المهد الى اللحد — ... وقد نادى الاسلام بحرية العلم فلم يحصره في بلد من بلاد الارض ولا في طائفة من بني الانسان ، وأمر أهله باصطياد شوارده حيثما كانت وأتى وجدته فقال النبي : أطلب العلم ولو بالصين — الحكمة منالة المؤمن يأخذها أنى رجعها — خذ الحكمة ولا يضرك من أى وعاء خرجت . . الى غير ذلك (١) .

وتاريخ العلم يقول إن الخلفاء قد أحاطوا بعظمهم العلماء من كل ملة وقد فصل ذلك الأستاذ محمد عبده وأيده بسرد أسماء طائفة من رجال العلم الذين صادفوا في رحاب الخلفاء عطفاً ورعاية (٢) وما كان ذلك الا لأن العقل العربي منذ انطلاقة من قبود الوثنية ودخوله في التوحيد المسمى قد أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والأدبية من كل نوع كما يقول الأستاذ الامام (٣) بل إن العلوم المصرية والحقائق الفلسفية تزيد الدين فكينا وتضاعف إيمان أهله به كما يقول فريد وجدي (٤) .

وقد سار بعض العلماء في هذا الظن الى نهايته ، فقالوا ليس من قاعدة دلت عليها التجارب ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر وكان لها أثر في ترقية الانسان وتحسين بناء العمران الا وكانت صدى آية قرآنية أو حديث نبوي

(١) محمد فريد وجدي : المدنية والاسلام من ص ٦٦ — ٦٩ وغيرها من صفحات الكتاب .

(٢) الاسلام والعصرية من ص ٩ — ١٧

(٣) الاسلام والعصرية من ص ٨٢

(٤) المدنية والاسلام ص ٦

كما أوضح هذا الكواكبي<sup>(١)</sup> وفريد وجدى<sup>(٢)</sup> ومصطفى الفلايىنى<sup>(٣)</sup> وبذلك أحالوا القرآن الى كتاب جغرافيا وتاريخ . كما يقول عبد العزيز جاكوش<sup>(٤)</sup> وعرضوا نصوص الدين الى اضطراب العلم وتناقضه كما يقول الأستاذ الجليل الدكتور طه حسين<sup>(٥)</sup> .

على أن العلماء كانوا على اتفاق في أن الاسلام ينفر من الجمل ويدعو الى العلم ، وما عادى المسلمون العلم ولا العلم عاداهم ، إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن علمه . فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرروا ثمار العقل ، وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية توسعوا في العلوم الكونية فوضروا الزمان بسوط من العزة ، كما يقول محمد عبده<sup>(٦)</sup> وقد كانت العلوم الحديثة زاهرة إبان مجد الاسلام ولم يرم المسلمون من قرأها بزيغ العقيدة ولا من استمع اليها بالضلالة والكفر ومن كان في شك من ذلك فما عليه الا أن يلقي نظرة على تاريخ القرون الأولى في الاسلام ومحافظتهما على الدين مشهورة فسيرى أن جيدها كان مزدانا بكثير من فحول العلماء الذين نبهوا في العلوم الرياضية والعقلية والطبيعية ووضعوا فيها المؤلفات العظيمة وبثوا فيها التعاليم المفيدة ونشروها في أطراف الأرض قاطبة كما يقول مصطفى بك بيرم مؤيدا لكلامه بالأمثال<sup>(٧)</sup> وما ركزت بريح العلوم التي اخترعها المسلمون وبلغت التسعين بعد المائة كما يروى كشف الظنون الا بعد أن صارت السلطة في يد الأعاجم من التثارو المقول الذين عرفوا أن انتشار العلم يعوق مطامعهم

(١) طبائع الاستبداد ص ٢٢

(٢) المدنية والاسلام ص ٤٠

(٣) الاسلام روح المدنية ص ١٩ - ٢٢

(٤) الاسلام دين الفطرة ص ٣٨ - ٣٩

(٥) من بعيد ص ٥٠

(٦) الاسلام والنصرانية ص ١٥٩

(٧) تاريخ الأزهر ص ٢١ - ٢٢



في الاستبداد بالثامن فافرغوا الوسع في إطفاء نوره وحصر الرعية في حاله  
الجهالة كما يقول الكواكي (١) ومصطفى بيرم (٢).

تلك آراء فئة من المحدثين من علماء الاسلام في نظرة الدين إلى الحياة العلمية  
بسطناها مؤيدة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأمثال التاريخية ، فأين  
هذان حملات أرباب الطريق على العلوم المعروفة في عصرهم علما علما ، وعدم  
تورعهم عن المفاخرة بالجهالة والسخرية حتى من العلم بأحكام الدين ، وغير  
ذلك بما فصلنا الحديث عنه من قبل .

والآن إلى موقف الاسلام من العقل عند أهله .

الاسلام والحياة العقلية عند الله :

يقول الأستاذ الجليل أحمد بك أمين إن الاسلام قد سلك في دعائه إلى  
الايان بالله وصفاته من علم وقدره ووحداية مسلما يثير العقل ، وهو  
الدعوة إلى النظر إلى مافي العالم من ظواهر ، ، أو لم ينظروا في ملكوت  
السموات والأرض وما خلق الله من شيء . . . . . فلينظر الانسان بما خلق ،  
فانظر الانسان إلى طعامه . أنا صببنا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شققا ،  
فانبتنا فيها حبا وعنبا وقصبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعا  
لكم ولأنعامكم ، — ولا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق  
النهار وكل في فلك يسبحون ، — إن في خلق السموات والأرض واختلاف  
الليل والنهار آيات لاولى الألباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى  
جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا  
سبحانك ، — ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم

(١) طبائع الاستبداد ص ٣٧ و ٤٣

(٢) تاريخ الأزهر ص ٢١ — ٢٢

وأولانكم إلى كثير من أمثال هذا — وهذا الضرب من الآيات بعث العقل على النظر وكان له أثر في نمو الحياة العقلية (١) وقد روى الأستاذ فريد وجدي عن النبي أحاديث نبوية منها : أن الدين هو العقل ولا دين لمن لا عقل له — يا أيها الناس اعقلوا عن ربكم وتواصوا بالعقل تعرفوا ما أمرتم به وما نهيتم عنه . . . وقد أثنى قوم على رجل عند النبي وبالفوا في الشاء فقال كيف عقل الرجل . . . قالوا نخبرك عن اجتهاده في العبادة وأصناف الخير وتسألنا عن عقله ؟ فقال إن الأحق يصيب بحله أكثر من فجور الفاجر وإنما يرتفع العباد في الدرجات الزلغى من ربهم على قدر عقولهم (٢).

وقد قال جمال الدين الأفغاني إن من الأمور التي تتم بها مادة الأهم أن تبني العقائد على البراهين القوية والأدلة الصحيحة ، وأن تتحاشى العقول المطالعة الظنون في عقائدها وترفع عن الاكتفاء بتقليد الآباء وذلك مادعاليه الدين (٣) ومن دلائل هذه الدعوة ما فرأه في أصول الإسلام التي ذكرها محمد عبده وعبد العزيز جاويش والتي كان أخطرها شأننا اعتبار النظر العقلي وسيلة لتحصيل الإيمان (٤) فكان جميع ما وضعه الفقهاء والخلفاء والأمراء من الأحكام قائما على ما أباحه لهم الشرع الشريف من الاجتهاد والقياس كما قدوة وعبروه بالأحكام العامة التي قررها الشرع (٥) وقد جعل الله لمن اجتهد فأخطأ أجرا واحدا ومن اجتهد فأصاب أجرين كما يقول الأستاذ جاويش ، ولقد يسرنا — سهلنا — القرآن للذكر — للتذكير — فهل من مدكر — أي هل من طالب علم منه ومتفهم له . . . وقد فجع الدين تقليد الآباء ومحاكاة الأجداد كما ذهب محمد عبده (٦)

(١) فجر الإسلام من ١٦٩ — ١٧٠

(٢) المدنية والإسلام من ٦٤ — ٦٥

(٣) الإسلام والرد على منتقديه من ٨٧

(٤) الإسلام والتعصبات من ٥٦

(٥) الإسلام دين الفطرة من ٥٣

(٦) الإسلام والرد على منتقديه من ٥ ، الإسلام والتعصبات من ١٣٦

وعبد العزيز جاويش<sup>(١)</sup> وجمال الدين الأفغانى<sup>(٢)</sup> وغيرهم ، وقد ألبس القرآن الجامدين عار الجحود ، ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون ، — مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بنس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين ، (٣) .

ومن أصول الاسلام التى كان لها أكبر الأثر فى نشاط الحياة العقلية ، تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض كما يقول محمد عبده<sup>(٤)</sup> وعبد العزيز جاويش<sup>(٥)</sup> ثم عدم التقيد بما قاله رسول الله من معاش الدنيا على سبيل الرأى<sup>(٦)</sup> وما كان ذلك بغريب فإن الدين هو الذى ينطلق بالعقل فى سعة العلم ويسبح به فى شعاب الأرض ويصعد به إلى طبقات السماء ليقف به على أثر من آثار الله أو يكشف له سرا من أسرارهِ فى خليقته أو يبسط حكما من أحكام شريعته فكانت جميع العلوم مباحة للعقل تقتطف من ثمارها ما نشاء وتبلغ من التمتع ما تريد ، فلما وقف الدين وقعد طلاب اليقين وقف العالم وسكنت ربحه ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدرج<sup>(٧)</sup> وقد سلب الاسلام من رجال الدين كل مظاهر السلطان الذى يحد من طلاقة العقل ويقيده من سعة النظر ولم يخصهم بتأويل نصوص ولا غيره مما يؤدى إلى ركود الحياة العقلية عند الناس كما يقول محمد عبده<sup>(٨)</sup> والكواكبي<sup>(٩)</sup>

(١) الاسلام دين الفطرة ص ٥٤ ، ١٠٥

(٢) الاسلام والرد على منتقديه ص ٨٧

(٣) » » » » ص ٩٦

(٤) الاسلام والنصرانية ص ٥٦

(٥) الاسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٦) نفس المصدر والصفحة

(٧) الاسلام والنصرانية ص ١١١٨

(٨) الاسلام والرد على منتقديه ص ٩٤ و ٩٥ ، الاسلام والنصرانية ص ٢٠ و ٦١ و ٦٣

(٩) طبائع الاستبداد ص ٢٩

وعبد العزيز جاويز<sup>(١)</sup> ومصطفى يريم<sup>(٢)</sup> وغيرهم ، حتى الرسول ، لا ينبغي التقيد بما قال في شئون الدنيا إذا كان من رأيه ، في الحديث . . . وإذا أمرتكم بشيء من رأيي فاعلموا أنا بشر ، وذلك لأن وظيفة الرسل قائمة على إرشاد العالم إلى طرق النجاح والاستقامة والعدل والأخلاق الفاضلة<sup>(٣)</sup> ولهذا ترى القرآن يصرح في وصف أهل الحق بأنهم ، الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائنين وجعل السابق واللاحق في التمييز والفطرة سيان ، بل لللاحق من علم بالأحوال الماضية واستعداد للنظر فيها والاتقاع بما وصل إليه من آثارها في الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ، قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كانت عاقبة المكذبين ،<sup>(٤)</sup> في الحق ليس في طيعة الإسلام ما يدعو إلى الانضطهاد ولا إلى محاربة الجديد ولا إلى مناهضة حرية الرأي ، ولك أن تقرأ القرآن وتتمعن في القراءة ، ولك أن تبحث وتتمعن في البحث فلن تجد لها أو شبه نص ينكر التجديد ويدعو إلى مناهضته أو يأخذ بالقول بالجمود أو يحظر عليها حرية الرأي قليلا أو كثيرا — كما يقول أستاذنا الكبير طه حسين<sup>(٥)</sup> .

تلك طبيعة الإسلام وهذه هي نظرته إلى تربية العقل وتنمية المدارك ، فأين هذا بالله من حملات أرباب الطريق على التفكير ونحرهم التأويل ومهاجمتهم النظر في ظواهر الأرض والسماء وتبشيرهم بقداسة الآباء والأجداد ودعواهم بأن عام ٩٢٣ هـ ( بداية الفتح العثماني ) كان نهاية العلم والنظر واعتبار الفلاح في الطريق غاية لا يبلغها المرید ما لم يتحول إلى أداة مسخرة في يد شيخه ، إلى غير ذلك مما أسهبنا بيانه فيما سبق . والآن إلى موقف الإسلام من مقاومة الظلمة من الحكام والدعوة إلى التزود بأخلاق الأقوياء والتبشير

(١) الإسلام دين الفطرة ص ١٠٠

(٢) تاريخ الأزهر ص ٥٦ — ٥٧

(٣) الإسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٤) الإسلام والرّد على منتقديه ص ٩٤ (٥) من بعيد ص ٢٢٠

بالكد في ميادين العمل المشروع ، لنرى الهوة الحقيقية بين تعاليم وآراء هؤلاء  
الأدعياء .

### الرسول والمجاهدة الدينية

سارت الدعوة إلى الدنيا مع الدعوة إلى الآخرة جنباً إلى جنب في الكتاب  
والسنة ، قال تعالى ، وقيل لذين اتقوا ماذا أنزل بكم قالوا خيراً للذين أحسنوا  
في هذه الدنيا حسنة ولدار الآخرة خير ولنعم دار المتقين ، ربنا آتانا في الدنيا  
حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، وعن النبي أنه قال : أعمل لدنياك  
كأنك تعيش أبداً ولا تخزنك كأنك تموت غداً - وفي حديث ثان : ليس  
خيركم من ترك دنياه لآخرته ولا آخرته لدنياه بل خيركم من أخذ من هذه  
وهذه - وفي حديث ثالث : أصلحوا دنياكم وأعملوا لآخرتكم كأنكم  
تموتون غداً - وغير ذلك مما رواه الأستاذ فريد وجدى <sup>(١)</sup> وقد ذهب الأستاذ  
محمد عبده إلى أن من أصول الاسلام الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة فان  
النبي لم يقل : بيع ما عندك واقتع - بل قال لمن استشاره فيما يصدق به من  
ماله ، ( الثلث والثلث كثير انك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم  
عالة يتكففون الناس ) . فالحياة في الاسلام مقدمة على الدين ولهذا جوز  
الاسلام للؤمنين ترك الصيام إذا خيف منه المرض أو المشقة بل أوجب  
إهماله أن غلب على الظن الضرر فيه ، وكذلك أباح إهمال الوضوء والغسل  
إذا خشى الانسان منهما الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل المال ، كما أباح  
الصلاة قعوداً إذا أصابت المصل مشقة من قيامه ، وكما جوز صلاة الجمعة في  
البيت إذا منع عن السعي إلى صلاة الجماعة في المسجد وحل غزير أو مطر كثير  
أو مشقة - وهكذا نجد القاعدة في الاسلام : صحة الأبدان مقدمة على صحة  
الآديان وأباح الاسلام لأهله التجميل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع  
بالمشتميات على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية والوقوف عند الحدود

(١) في كتابه الدنيا والآخرة

الشرعية والمحافظة على صفات الرجولية قال تعالى : يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ، قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك تفصل الآيات لقوم يعلمون ، وروى الإسلام قانونا للاتفاق وحفظ المال في قوله : إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ، ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ، ونهى الدين عن النلو في طلب الآخرة مخافة أن يهلك ديناه وينهى نفسه فذكرنا بأن الآخرة تنال مع التمتع بنعم الله في الحياة الدنيا فقال : وابشغ فيما أنك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين . وبذلك نرى أن الإسلام لم يبخس الخواص حقها كما هبأ الروح لبلوغ كلها كما يقول محمد عبده <sup>(١)</sup> . وقد قال عبدالعزيز جاويش أن الإسلام لا يلزم الناس بما ذكره الرسول من معاش الدنيا على سبيل الرأي <sup>(٢)</sup> وروى الشيخ الغلاييني أن الإمام مالك ، يرى أن تراعى المصلحة ولو خالفت النص لأن الله إنما شرع لمنفعة العباد <sup>(٣)</sup> وقال الأستاذ الجليل أحمد بك أمين ، إن الشارع — كما قالوا — يدور في تشريعه على حفظ أمور خمسة وهي الدين والنفس والعقل والنسل والمال ولو استقرنا أوامر الشرع ونواهيه لوجدناها تعدى هذه الأمور ولو وقفنا في معرفة ما حله الشرع أو حرمه لوجدناها عاتته كذلك ... <sup>(٤)</sup> وبهذا كانت الدعوة للعمل فرضا يلزم به الإسلام عنق كل مسلم قادر عليه كما يقول محمد عبده <sup>(٥)</sup> وأضحى للسك والعمل والمال نصيب موفور في رسالة الإسلام قال النبي : أفضل

(١) الإسلام والنصرانية ص ٧٤ — ٧٧

(٢) الإسلام دين الفطرة ص ٥٨

(٣) الإسلام روح المدنية ص ٣٩ — ٤٤

(٤) ضحى الإسلام ج ٢ ص ١٥٦ — ١٥٧

(٥) رسالة التوحيد في « الدين الاسلامي »

الأعمال الكسب الحلال - طلب الحلال فريضة على كل مسلم - من سعى على عياله من حله فهو كالمجاهد في سبيل الله ومن طلب الدنيا حلالاً في عفاف كان في درجة الشهداء - سيأتي على أمتي زمان يحتاج الرجل فيه للدرهم والدينار يقيم به أمر دينه ودنياه - نعم المال الصالح للرجل الصالح - إن الله يعطي العبد على قدر همته ونهته - من جد وجد ولكل مجتهد نصيب - سافروا تصحوا وتغنموا - التاجر الجسور مرزوق والتاجر الجبان محروم - وقال عمر بن الخطاب لا يبعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة - ولقد كان الصحابة - والاسلام في إبان مجده - يتجرون في البر والبحر ويعملون في تخيلهم . . إلى آخر ما يرويه الأستاذ فريد وجدي في تأييد هذه الدعوى (١) .

هذا هو موقف الاسلام من الدنيا وهذه هي نظرتة إلى العمل والكسب من أجلها والظفر منها بأوتى نصيب في حدود شريعته ، فأين هذا بالله من الصورة الهزيلة التي رسمها للدنيا أرباب الطريق ؟ أين هذا من الدعوة لترك الدنيا والزهد في نعيمها واحتقار لذاتها واصطناع الخوف وتكلف المتاعب والانقطاع للعبادة والتفرغ للتهجد والتبشير بالبطالة والعيش على إحسان الناس وإباحة التسول وإلغاء الملكية وكره المال والمفاخرة بدوام البعد عنه وسف التراب وضرب النفس بالسياط وقيام الليل وقضاء النهار كله في ادعاء العبادة وتحريم السفر على التاجر متى وجد اللقمة التي يسد بها رمقه والخزقة التي يستر بها عورته . . إلى غير ذلك مما أسلفنا بيانه ؟ أين معالم الاسلام من هذه الآراء المريضة التي بشر بها هؤلاء الادعياء باسم الدين . ؟ لقد انتبه الأستاذ الإمام إلى أن الدعوة للبطالة وفشو الكسل بين المسلمين كان من أثر الدعوة التي قام بها من فسد من المتصوفة (٢) - فكانت هذه ملاحظة قيمة لم يفتن إليها غيره من الكتاب الذين قرأنا لهم في هذا الصدد .

(١) في كتابه سالف الذكر

(٢) الاسلام والرد على متفديه من ٤٨

وقد صوروا الإسلام في صورة دعوة إلى الفضائل السلبية التي تصلح للعيش في جو كله دعة ورخاء وأمان . وقبحوا الفضائل التي يقسم بها الأقوياء الراغبون في كفاح الحياة الصالحون لتضال البقاء ، ولو كان الإسلام كما صوروه لما استطاع العرب في إبان مجده أن يشبوا هذه الوثبة الجريئة التي أخرجتهم من جزيرتهم وهيأت لهم في القليل من الزمن طريق السيادة على أعظم دولتين عرفهما التاريخ الوسيط هما الدولتان : البيزنطية والفارسية ، ولم تكن تعاليم الاسلام قد اهتدى الفساد اليها فأثبت الاسلام بذلك أنه دين الدنيا والآخرة معا ، وأنه دعوة جريئة إلى العمل والغزو والسيادة وليس دين الذلة والهوان الذي دعى اليه هؤلاء الدجالون حين قالوا إن احتمال الظلم رضاه بقضاء الله والتمرد عليه تمرد على حكم الله لأن الظالم أداة الله في عقاب الناس . . إلى آخر هذا الهذر الذي عرفناه من قبل ، ولو كان الاسلام كما صوروه لما قبل عمر أن يقول له اعرابي جلغ : لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بسيفنا . . ولما رأينا المستبشرين من أئمة الدين أول من يتمرّد على الظالمين من الحكام ويشيرون العشير في وجوه الطغاة والمستبدين ، وما عهد جمال الدين الأفغاني والسكواكي ومحمد عبده والسيد توفيق البكري عنا ببعيد . بل لقد عرفنا في أواخر العصر العثماني من العلماء الذين يحسنون فهم دينهم ولا يتوانون عن الثورة على الحاكم متى قصر في أداء مهمته ، وكان من هؤلاء الدردير والحفاوي وابن النقيب وغيرهم . . .

واقعد كان وجه الخطر في دعوة هؤلاء الدجالين أنهم تواروا وراء الدين واستغلوا سذاجة الناس وأدخلوا في وهمهم أن آراءهم صفوة الدين وخلاصته ، فأمن الناس بهم وتلقوا عنهم هذه التعاليم عقائد لا يأتيناها الباطل في حكم أو رأى فكان لها بالغ الأثر في توجيه الحياة عندهم والانحدار بهم إلى هذا الاضمحلال الذي استغله المبشرون في الهجوم على الدين الاسلامي .

ومن هذا الذي أفضنا في بيانه نستطيع أن نقرر بأن تعلق المصريين بالاسلام في العصر العثماني لم يكن هو الذي انحدر بهم إلى هذا الركود الذي



استبد بهم وأفسد شتى نواحي حياتهم . وإنما كان ذلك من أثر الدعوات الباطلة التي انطلقت في المصريين وكان للتصوفة فيها أعظم قسط وأوفر نصيب .

ولنا لنحمد للنهضة الحديثة نهيتها الجو للكشف عن بطلان هذه المزايم وتحذيرنا من الخطر الذي يهددنا من وراء هذه التعاليم المريضة ، ومعرفة الحق السحيقة التي تفصل بينها وبين تعاليم الاسلام الصحيحة ، فانا في عصر لا يعرف الرحمة ولا يحترم إلا القوة والحديد والنار ، والشعوب تحطى كثيرا حين تقتصر على الاعتماد في جهادها على رحمة السماء فان السماء لا تحابي ضعيفا ولا قويا ، وإنما ترك الخلائق في صراعها ، والبقاء للأصلح والغلبة للأقوى ، وتواكل الشعوب لا ينجيها من زحمة النضال وسباق الحياة وإنما هو أبلغ حجة على استهانتها بمصيرها ونسليمها في وجودها وقبولها للهلاك عن جدارة واستحقاق

...

هذا هو موقف الإسلام من تعاليم المتصوفة ، ومنه نرى أن الاسلام لم يساهم في الانحدار بالحياة المصرية إلى هذا الاضمحلال ولم يشترك في توجيهها إلى هذا الركود الذي رأيناه .

ومن الخير أن نقول الآن إن الشعوب في تطورها إلى النضج والكمال وانحدارها إلى الركود والاضمحلال لا تخضع لعامل واحد وإنما تسير — فيما يلوح من تاريخ التطور — مسوقة بعدة تيارات وحركات لكل منها نصيب في هذا التوجيه ، ومثل هذه الدراسات شاق على أهله ، فليس في وسع الباحث أن يحدد تحديدا رياضيا مدى ما كان للتصوف من أثر في توجيه الحياة المصرية ، لأن ذلك لا يقاس بمقياس ولا يكال بمكيال ولا يوزن بميزان ، ولهذا كان الكلام فيه — بالغاما بلغت قوته — عرضة للعجز عن مقارمة معاول الهدم إن سعت إلى هدمه وانجحت إلى تحطيمه . . .

كلمة حفاظة عليه :

## مصادر الكتاب \*

التصوف في هذا العصر موضوع بكر لم يتعرض لدراسته أحد الباحثين من قبل ، وقد تساوى في إهماله المستشرقون والشرقيون — قدماء ومحدثون ، ولهذا قلت استعانتى بالمستشرقين فيما سلف من فصول الكتاب ، وإن لم يمنعنى انصرافهم عن الموضوع الذى أدرسه من قراءة الكثير من أبحاثهم التى تناولت التصوف فى الإسلام ، فاطلعت على الكثير مما كتبه يركسون وما كدونالد وماسينيون وكوبولانى ولين وفولارز وكارادى فو وغيرهم ، كما عانيت بقراءة الكتب التى وضعها الشرقيون عن التصوف عامة فى غير العصر الذى أدرسه رغبة فى العلم بالتصوف عامة والافادة من ذلك فى تصور الموضوع الذى أدرسه وفهمه على أكمل وجه مستطاع .

أما المحدثون من الشرقيين الذين عرضوا للكتابة عن بعض نواحي التصوف فى هذا العصر فقد كانوا على قلتهم يستعينون بمصادر فى وسعى الرجوع اليها لأنها ما زالت تحت تصرف الباحث وفى متناول يده ، فاعتمادى على كتاباتهم لا يبرره البحث العملى الصحيح ولا سيما اذا عرفنا أنهم يخطئون النقل والفهم والاستنتاج كما وضع انا من كتابات جرجى زيدان وتوفيق البكرى ، وهذا فوق أنهم كانوا فى الجملة لا يتناولون ناحية فى التصوف بالدراسة المفصلة أو الموجزة ولكنهم كانوا يرضون لأفكار تحصل به فيصدرون أحكاما سطحية لا يبررها الواقع ولا ترضى عنها الدراسة العلمية المنظمة .

وعلى هذا فالباحث فى موضوع التصوف فى مصر إبان العصر العثمانى مضطر إلى الرجوع للمصادر الأولى - أى التى كتبها أهل العصر العثمانى وعالجوا

---

\* من المفيد جدا الاطلاع على ما كتبه عن المصادر فى كتابنا «التعراف لإمام التصوف فى عصره» ص ١٥٥ وما بعدها لمعرفة أخطاء المستشرقين وفهارس دور الكتب يصددها

فيها شئونهم بالطريقة التي بدت لهم ، وقد كانت طريقتهم في ذلك لا تخرج كثيرا ولا قليلا عن طريقة الفقهاء والكتاب من الشرقيين في هذا العصر وما قبله ، وشر ما فيها سرد المعلومات التي لا تولف بينها وحدة في الفكر ولا تلازمها دقة في البحث وإن كانت تمد القارىء بمادة قيمة وزاد دسم .

ولقد شاع بين الناشرين والمهتمين بالعلم من أهل الأجيال التي أعقبت العصر العثماني أن مصر قد أصابها في هذا العهد اضطحلال شاع في كيانها وتغلغل في شتى نواحي حياتها وشوه العلم في رؤوس أهلها ، فأدى هذا إلى انصراف أهل العلم عن نشر المؤلفات التي كتبت في هذا العصر مؤثرين الاهتمام بنشر الكتب التي وضعت في العصور السابقة حين كانت الحياة أدنى إلى الازدهار والحالة العلمية أقرب إلى النضج والفساط ، وما علموا أنهم بذلك يزيدون العصر ظلاما .

فأما الكتب التي صادفها العناية ووجدت من يقوم بطبعها فقد خرجت من المطابع حافلة بالأخطاء التي دلت على جهل الناشرين وكشفت عن مقصدهم من وراء طبعها . ولم يكن شيئا آخر إلا الريبح — وقد حملني هذا على ترك الكثير من هذه الكتب المطبوعة والرجوع إلى أصلها المخطوط رغم ما في ذلك من مشقة تبدو في رداءة الخط وصعوبة الاطلاع على المخطوطات داخل الدار . فاما المصنفات التي بقيت مخطوطة فقد حفظتها لنا دار الكتب المصرية إلى يومنا الحاضر والكثير منها بخط أصحابها ولكن بقاءها إلى اليوم لا يبرر الاعتماد عليها من غير حذر ، فإن الدقة كانت تعوز مؤلفيها في كل فكرة تناولوها على وجه التقريب ومعرفة هذا ضرورية لمعرفة العصر على حقيقته . على أن ذلك لا يحظ من دار الكتب لأنها غير مسئولة عن أوزار غيرها وحسبها أنها قامت على حراسة هذه المخطوطات طوال هذه الأجيال ، ولشد ما يتولاني الروع ويشيع في كيانى الجزع كلما تصورت ضررا حاق بهذه الدار وآتى على ما فيها من مخطوطات . لا قدر الله . وإنى لأرجو أن يكون هذا البحث المتواضع كفيلا بتوجيه نظر الناشرين إلى قيمة هذه المخطوطات التي حوتها الدار .

على أن الدار لم تقم بواجبها إزاء هذا العلم الذى تضمنه بين جدرانها ، ومن دلالات تقصيرها الذى تحمل وحدها تبعته ، ما نراه فى نسخ الكتب ، فقد كلفت الناسخين بالإكثار من نسخ بعض المخطوطات ولكنها لم تشترط فيهم أن يكونوا على علم يمكنهم من أداء هذه المهمة بشئ من الدقة والمهارة ، فجهات الكتب التى نسخوها نموذجاً لرداءة الخط وقبح الأخطاء .

وفارس الدار فى حاجة إلى نظام جديد يكفل للباحثين سهولة البحث ويخفف عنهم بعض مشقاته وذلك فوق أن الفهارس الحاضرة مليئة بالأخطاء والكتاب الواحد له فيها أسماء قد تبلغ الخمسة ، وسبيل البحث فيها ملتو يستغرق الكثير من الوقت ولا يضمن العثور على المطلوب ، وقد وجدت فى أثناء بحثي فى هذه الفهارس وإعداد ثبت بعدد النسخ الموجودة لكل كتاب ، أن الكتاب الواحد قد تكون له نسخ فى فهرس للتصوف ونسخ أخرى ذكرت أرقامها فى فهرس ثان وثالث وبذلك لا يسهل على الباحث أن يعرف جميع نسخ الكتاب الواحد إلا إذا تصفح فهرس الدار كلها . ١٠٠

على أن الدار مع هذا النقص كله تسد حاجة الباحث وتشبع نهمة منى أوفى الصبر واحتمال المشقات وكان بحثه منصبا على دراسات إسلامية - وقد كتبت عن التصوف فى هذا العصر الحائك فى ظلامه دون أن تصادفنى فيه حلقة مفقودة فقد وجدت قرائنه كلها من يؤرخها ويسهب فى بيان الحياة فيها وإن كانت عصور الاضمحلال تجرى فى شتى مراحلها على نمط واحد ، والتمايز فيها ضعيف لا يكاد يحس وقد لاحظت أن كتاب هذا العصر فى كل مرحلته كانوا يستقون علمهم عن الشعرائى أو يرجعون اليه يأخذون عنه كثيرا فى كتبهم وإن كان أكثرهم لا يشير الى ذلك .

ورغم هذا فقد اغتبطت بتعدد المصادر فى فترات العصر كلها اذ كان بعضها يمتاز بمادة لا تتوافر فى غيره وكان العلم بها ضروريا فى الكشف عن بعض آفاق المجهول من هذا العصر ، فى كتاب ( تحفة السالكين ودلالة السائرين للسمنودى ) مثلا أجزاء كاملة مسروقة من كتاب لوافح الأنوار

القدسية في بيان قواعد الصوفية للشعراني ، ورغم هذه السرقة التي لم يشر اليها السمنود في كتابه فقد زود القارىء ببيانات عن حياة الفقراء في رحاب الزوايا وغير ذلك لم أعثر عليه في كتاب آخر للشعراني أو غيره

ورحلة النابلسي ( الحقيقة والمجاز في رحلة بلاد الشام و مصر والحجاز ) تضمنت معلومات عن الزوايا والأضرحة وغيرها نعوز المصادر الأخرى التي اطلعت عليها — ثمتمد المصادر حتى في تصور الاضمحلال — التي من شأنها أن تسير على نمط واحد ولا يكون بين مراحلها تمايز — خير عظيم ينبغي أن يفتبط له الباحث ويسر به .

وحسبي الآن أن أقول في الدلالة على وفرة المصادر في العصر كله ، أن الفترة التي سبقت العصر العثماني في مصر رجعت فيها الى المقرئى والقله شندى وبعض المنحضى مين كالشعراني وابن أياس وأما القرن الأول من العصر العثماني (العاشر الهجرى ) فقد أوضح جوانب الحياة فيه الشعراني بمؤلفاته المتعددة وابن إياس وصاحب الكواكب السائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة ( ٣ أجزاء ) والنور السافر عن أخبار القرن العاشر والسنا الباهر بتكميل النور السافر ورسائل السيد محمد البكرى وغير ذلك كثير .

فأما القرن الحادى عشر الهجرى فقد كتب فيه عبد الرؤوف المناوى مصنفات كثيرة خيرها طيفاته الكبرى والصغرى ثم عبد الغنى النابلسى الذى زار مصر عام ١١١٠ وترك لنا رحلته القيمة من بعض الوجوه والمحجى صاحب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر بأجزائه الأربعة وغير هؤلاء كثيرون . فاما القرن الثانى عشر فحسبه الجبرئى والحفناوى واليومى ومصطفى البكرى والمليحى والمرادى ( صاحب سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر ) وغيرهم كثيرون

على أن الظاهرة التي سادت مؤلفى هذا العصر وشاعت في مختلف كتبهم وشتى مصنفاتهم هي السذاجة ، وقد كان روح العصر يبرر وجودها ، وليس أدل على ذلك من أن تكون كتب المناقب خير زاد للطاعين في أهل هذه المناقب بل لا نظن ظاهرة أدل على هذه السذاجة من العجز عن تعليل أبسط الظواهر وأنقها — وقد مر بنا الكثير من الأمثلة التي تشهد بهذا في مختلف فصول الكتاب

## كتب المؤلف

### ١ - تأليفاً :

- ١ - التصوف في مصر إبان العصر العثماني : دار مكتبة الآداب وأخذ طبع ١٩٤٦
- ٢ - التبريق بالغيب عند مفكرى الإسلام : صدر في سلسلة الجمعية الفلسفية في أكتوبر ١٩٤٥ .
- ٣ - الإسلام ( بحث مقارنة ) : أصدرته مكتبة الآداب في سبتمبر ١٩٤٥ .
- ٤ - الشعراني إمام التصوف في عصره : صدر في سلسلة أعلام الإسلام في أغسطس ١٩٤٥ .
- ٥ - قصة الكشف بين روما وقرطاجنة : نشرته طاعة الجامعيين للنشر العلم في نوفمبر ١٩٣٦ ، وأعادته مكتبة الآداب طبعه في فبراير ١٩٤٦ .
- ٦ - قصة النزاع بين الدين والفلسفة : تحت الطبع
- ب - ترجمة :
- ٧ - تراث الإسلام :
  - : نشرته طاعة الجامعيين للنشر العلم في أكتوبر ١٩٣٦ ( قدؤلف فيه ترجمة الحزب الذي وضعه ) - هجوم عن الفلاسفة واللاهوت - مع التعليق عليه )
  - : وسمي بتدريسي ونشره دار تراث العربيه مكتبة الآداب في فبراير ١٩٤٦ .
  - : وسمي - تدريسيك أستاذ الفلسفة الخافيه في جامعة كامبردج وسيظهر في جزئين جدد .
- ٨ - علم الغيب في العالم القديم
- ٩ - تاريخ علم الأخلاق







## DATE DUE

FEB 15 2005

JUL 15 2005

RAYSON

PRINTED IN U.S.A.



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0038496453

693.7991

T1983

DEC 20 1961

